Twitter: @alqareah
20.2.2017

الطبعة الثانية
بالعربية

الضِّفْدَعُ النَّارِيُّ

تأليف : چ. ك. مايكلز

الضُّفْدَعُ النَّارِيُّ

رحلة إلى قلب الفكر

تأليف

ج. ك. مايكلز

ترجمة

منى الدروبى

دار البلسم للنشر والتوزيع

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الضُّفْدَعُ النَّارِيُّ

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

“Al Dufdaa Al Nari”
Originally published by
Philograph, an imprint of Cascade, Inc.
under the title «Firebelly» by J. C. Michaels.
© J. C. Michaels 2007
This translation is published by arrangement with Philograph
Translation copyright © 2007 by Al-Balsam Publishing House

الضُّفْدَعُ النَّارِى

أصل هذا الكتاب هو المؤلَّف
Firebelly
للمؤلِّف ج. ك. مايكلز

وقد صدرت هذه الطبعة العربية بترخيص خاص من الناشر
Philograph, an imprint of Cascade, Inc.

جميع حقوق الطبعة العربية محفوظة لدار البلسم للنشر والتوزيع ©
جميع حقوق الاستغلال للطبعة العربية، بأى طريقة من الطرق محفوظة للناشر.
ولا يجوز بغير إذن كتابى مسبق من الناشر القيام بأية عملية استغلال للمصنف.
بأية تقنية معروفة حاليًا أو فى المستقبل، بما فى ذلك النسخ والترجمة والتخزين أو
التحميل، بالإضافة أو الإنزال، على ذاكرة الحاسب أو التثبيت على أى دعامة أو الإتاحة
عبر شبكة الإنترنت أو أى من شبكات المعلومات، المفتوحة أو المغلقة.

128 شارع النيل - الدقى 12311 - الجيزة - مصر
تليفون: 37627147 (202 +)
فاكس: 37627146 (202 +)
e-mail: dar@al-balsam.com
www.al-balsam.com

رقم الإيداع المحلى: 2007/17091
التزقيم الدولى: I.S.B.N.: 977-6171-13-3

الطبعة الثانية باللغة العربية 2011

Twitter: @alqareah

إلى چوليا

هذه الفتاةُ الصغيرةُ التى سيتبدَّلُ مفهومُها
لهذه القصةِ كلَّ عِقْدٍ من عقودِ حياتِها

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

المحتويات

تمهيد للصغار • 11

تمهيد للمراهقين • 20

تمهيد للكبار • 29

الجزء الأول • 36

الجزء الثانى • 140

الجزء الثالث • 200

خاتمة الرواية • 319

حاشية الرواية • 324

Twitter: @alqareah

على الصفحات التالية ثلاث مقدمات تمهيدية مختلفة تهيِّؤك لقراءة القصة، كما قد يلجأ المرء لتسخين محرك سيارته قبل الانطلاق بها فى صباح يوم بارد. أو كما تبطِّن حائطًا باللون الأبيض قبل طلائه بلون مشرق زَاهٍ. فبدلًا من أن أمدَّكَ بخلفيةٍ أصف من خلالها الشخصية والحبكة والمكان، أريد أن أقدم لك أساسًا للأفكار التى تربط عالمنا اليوميَّ بالدراما والإثارة الفلسفية. ستؤهِّلك هذه المقدمات لتصبح مستعدًا للتفكير بطرق غير تقليدية، وتهيؤك لاكتشاف نظرة فريدة للحياة تُعرف بالفلسفة الوجودية.

قرِّر كم عُمْرُك إما باستعمال الأسلوب التقليدى "دورانُ-الأرضِ-حولَ-الشمسِ"، أو الأسلوب الأكثر ذاتيةً: "ما-العمرُ-الذى-أشعرُ-به". بعدها اقرأ التمهيد الذى تراه أكثر مُلاءَمةً لك. إن أردتَ، يمكنُك قراءةُ أكثر من تمهيد – لديك مطلق الحرية فى الاختيار.

Twitter: @alqareah

تمهيدٌ للصغار

حين كنتُ فى الفصل الخامس، كنتُ أمضى معظم وقتى أبتكر طرقًا للفت الأنظار وإساءة السلوك. فإن لم أكن أتسلَّل خارجًا من الفصل، فأنا - على الأرجح - أكون منهمكًا بعمل شىءٍ مُؤذٍ آخرَ، مثل وضع طَبْشُور على مقعد المُعلِّمة أو صُنع قاذفٍ للبُصاق من قلم حبرٍ جافٍّ. كان أصدقائى فى الفصل يعتبرون تصرُّفاتى مُسلِيَّةً وممتعةً، ويشجعوننى على زيادة الشَّغبِ والجرأة. بينما كنت، فى رأى المدرسين، ولدًا مثيرًا للمتاعب، ويرغبون أن أمضى وقتًا أطولَ خارج الفصل - إما فى الرُّوَاق أو فى مكتب مدير المدرسة أو فى البيت.

وحين كنت أبدو هادئًا وساكنًا وأتظاهر بأننى أستمع بانتباهٍ إلى المُدَرِّسة، فإن اهتمامى، عادة، يكون بعيدًا جدًّا عمَّا يدور فى الفصلِ. إذا ما نادتنى المدرسةُ لأُجيبَ عن سؤالٍ

Twitter: @alqareah

يدور إما حول الموضوع المُحدَّد الذى تتحدَّثُ عنه أو حول موضوعٍ أكثرَ تعميمًا، مثل: "هل لديكَ فكرةٌ عمَّ أتحدث؟" كثيرًا ما كانت تُضطر لإعادة سؤالها. وبينما كنت أفكر فى أفضل ردٍّ لأتخلَّصَ من الورطة التى وقعتُ فيها، كنت ألجأ لتمثيل دَوْرِ مَن يُمْعِنُ فى التأمل والتفكير لإعطاء الجواب الصحيح. ولكن، وبعد أن أتنحنح وأتلعثم وأراوغ وأضيِّع الوقت بتحريك القلم والورقة، أجيبُ مع هِزَّةِ عدمِ مبالاةٍ من كَتِفَىَّ وبتعليقٍ هازلٍ، مثل:

– طبعًا، أعرفُ عمَّ تتكلمين.

كثيرًا ما كانتِ المدرسةُ تتهمنى بالشُّرود وعدم الإصغاء أو بعدم الاهتمام بأىِّ شىءٍ يدور فى الفصل، إلَّا أن هذا نادرًا ما كان واقعَ الأمرِ. فما كان فى رأيها حُلْمَ يقظةٍ كان فى رأيى تفكيرًا يوميًّا متواصلًا. ففى الظاهر، ربما كنت أبدو شاردًا وغيرَ مُهتمٍّ، ولكن فى داخلى، وفى عالَمى الخيالى بإمكاناته غير المحدودة كان هناك بحرٌ من الأفكار يلفُّ ويدور كالدوَّامة.

ورغم أن المُدرِّسة لم تدرك ذلك، إلا أن معظم أفكارى الخيالية كانت مستوحاةً من شىءٍ كانت قد ذَكَرْتُه. كنت أتفحَّص كلماتها، أدقِّقُ فيها وأهتمُّ بها إلى أقصى درجةٍ، كما لو كنت أدبُّ على يدىَّ وركبتىَّ فى غرفة مظلمة أبحث عن كَنْزٍ خَفِىٍّ. لا يُعينُنى فى العثور عليه سوى مصباح صغير يرسل نورًا باهتًا.

Twitter: @alqareah

أو كأنني شلَّال من المياه يندفع نحو نهر جائع. فمع كُلِّ سؤالٍ تطرحه كانت تندفع بغزارةٍ دستةٌ من الأفكار تتدفَّقُ داخل عقلي كشلالات صغيرة. أريد أن أعلمَ لماذا سألتْ هذا السؤال؟ وما عددُ الحلول المختلفة والممكنة؟ وهل سيعطي الإجابةَ ذاتَها تلميذٌ عاش منذ مائة عام مَضَتْ، أو آخرُ سيعيش بعد مائة عام قادمة؟ أو واحدٌ يعيش في الجانب الآخَر من العالم، ربما في جزيرة خالية من الطرقات المُعبَّدة والبنايات والآلات، شخصٌ لم يسمع قَطُّ بوجودِ فصلٍ دراسيٍّ - تُرَى هل ستكون إجاباتُهم واحدةً؟

وحين أجدُ نفسي تائهًا في شبكةٍ من الأسئلة، وحين لا يَعودُ بإمكاني الاستماعُ إلى المدرسة التي تقف إلى جانبي وهي تحاول جذبَ انتباهي، وحين يبدأ ذهني في الشعور بالألم من تعارُض الأفكار المتناقضة، أجبر نفسي، حينئذٍ، للخروج من عمق ورطتي الفكرية الملازمة.

أحيانًا، كنتُ أشْرِك المُدرِّسة في أفكاري - خاصَّةً إذا كانت مدرسةً جديدةً لم تُضف لي بعدُ وصمةَ مثير الشغب. أقول لها بمنتهى الأدب بأن لديَّ سؤالًا مُهمًّا. وعادةً، إذا ما استعملتُ نبرةَ صوتٍ معينةً، أنجح في جذب اهتمامها. أطرح عليها سؤالًا لأستكشف من خلاله أسلوبَ تفكيرها، فأسألها سؤالًا مثل: "من كُلِّ الأشياء التي نتعلَّمُها، ما الذي سيظلُّ صحيحًا دائمًا

Twitter: @alqareah

وصالحًا لكلِّ زمانٍ؟". ردُّ الفعل الفورىُّ يكون، عادةً، عينيْن تدوران فى مِحْجَرِيْهِما، يعقبه تَغضُّنٌ فى الجَبين. وأخيرًا يكون الردُّ عن سؤالى تعليقًا، المقصود منه صرفى عن الموضوع.

من المؤلم أن أتذكَّرَ الآن عدد المرات التى تَلقَّيتُ فيها الإجابة ذاتها: "كُلُّ ما تتعلَّمُه".

أتذكَّرُ الآن بكل وضوح اليوم الذى أدركتُ فيه، لأول مرة، كيف يمكن أن يقودَ سؤالٌ بسيطٌ إلى الوقوع فى مشكلة كبيرة.

كنا نبحث عن مرادفات اللون مثل اللون الأحمر الأدْكَن والقُرْمُزِىِّ، ولون العقيق وغيرها... كان من المفروض أن نكتبَ هذه الكلمات فى دفاترنا ثم نُدخلها فى جُمَلٍ مفيدةٍ. وجدتُ أن هذا واجبٌ مُمِلّ ومُضْجِر، ولم أعد مهتمًّا، وسَرْعانَ ما تحولت كتابتى إلى رسم عابث أتسلَّى به وأنا أفكر فى شىء آخر. بدأت مع كل جَرَّة قلم أخلُق عالمًا من الغابات والبِرَك والضفادع والثعابين. خطوطٌ منحنيةٌ وبسيطةٌ، وأشكالٌ هندسيَّةٌ فى غاية الإتقان. كان من الممكن تمييزُ كل شىء رسمتُه. ولكنَّ الألوانَ التى لونتُ بها تلك الأشكالَ كانت مُحيِّرة لا يمكن وصفُها... لا تشبه أبدًا أىَّ لونٍ رآه أحدٌ غيرى.

تراجعتُ إلى الوراء مستندًا إلى مقعدى ونظرتُ إلى الورقة

Twitter: @alqareah

وتساءلتُ محتارًا: كيف يمكننى تفسيرُ هذه الألوان ووَصْفُها لشخص آخر؟ فى أول الأمر فكرتُ أنه يمكننى الاعتمادُ على ألوان عرفتُها من قبل. باستطاعتى أن أقولَ مثلًا هذا لونٌ يميل إلى الزُّرْقَة أو يميل إلى الوردىِّ مع بعض الاصفرار. ومع هذا، فإذا كانت الألوان بمثل هذه الغرابة والاختلاف عن أىِّ شىءٍ سبق لى مشاهدتُه فهذا لن يُجْدِى. فهل يمكننى أن أصفَ شيئًا لم يَرَهُ أحد غيرى؟ هل من الممكن مثلًا أن أصف اللون الأصفر فقط باستخدام مرادفات لِلَّوْن الأزرق؟

رفعتُ يدى.

لمحتنى المعلمةُ وأشاحتْ بنظرها بعيدًا.

مددتُ ذراعى باتجاهها وضغطت الهواء بكفِّى المفتوحة. تظاهرتْ بأنها لم تلحظنى.

مددتُ يدى أكثرَ فى الهواء وأنا ألوِّح بها إلى الأمام والخلف مثلَ عَلَم يرفرف فى الهواء. استمرَّتْ فى الكتابة على اللَّوح.

وسَرْعَانَ ما وقفتُ على حافَّةِ المقعد وأنا على وشك القفز من مكانى. بدأ بقيةُ الطلبة فى الالتفات حولهم والتحديق بى وهم يكتمون ضَحكَاتِهم على تهريجى الغريب. لم يَعُدْ بإمكان المعلمة الاستمرارُ فى الادِّعاء بأنها لم تلحظنى.

التفتَتْ نحوى وقد بَدَا فى نظرتها الاستياءُ وقالت: "نعم".

Twitter: @alqareah

وقفتْ إلى جانب مقعدى والتزمتِ الصَّمتَ لبُرْهةٍ. أردتُ أن أوحى لها بأن سؤالى مُهِمٌّ. أخذتُ نَفَسًا عميقًا، وفى نبرةِ صوتٍ جعلتُها أكثرَ جِديَّةً عمَّا هى فى العادة سألتُها: "كيفَ يمكنُنى أن أصفَ لونًا لم يسبقْ لأحدٍ أن رآه من قبلُ؟"

تنهَّدتِ المُدرِّسةُ ثم نظرتْ إلى أعلى، إلى السقف، وسألتنى: "ماذا تعنى؟"

– لنفرض أننى لم أرَ فى حياتى سوى اللونين: الأزرق والأخضر. وبعد ذلك فى يوم من الأيام رأيتُ شيئًا أحمرَ... مثل ضُفْدَعةٍ حمراءَ. ماذا سأقولُ؟ وكيف سأصفُ لونَها؟

طوتِ المُعلمة ذراعيْها ووجَّهتْ نحوى نظرةً صارمةً. وتوقفتْ لفترةٍ عن الكلام. زفرتْ ثم قالتْ: "اجلسْ مكانكَ والتزم الصَّمْتَ".

تشابكتْ نظراتُنا كما لو أننا على وشك الدخول فى معركة. كنت أريدُ جوابًا. وهى تريدُ أن تتجاهلَ سؤالى. وقفتُ هناك أُحدِّق فى عينيها بنظرةٍ نفذت إلى ما وراءِ رأسها. أطلبُ منها إجابةً... تفسيرًا. أشارتْ نحو مقعدى.

قلتُ لها: "حسنًا. لم أكن أعلمُ أن جملةَ اجلسْ–فى–مكانكَ–والتزم–الصَّمتَ هى وصفٌ للَّوْنِ".

ضجَّ الفصلُ بالضَّحكِ بشكلٍ صاخبٍ. صَفَقَ البعضُ منهم مكاتبَهم وضربَ آخرون الأرضَ بأقدامهم. نظرتِ المُدرسة إليَّ

Twitter: @alqareah

بعيونٍ غاضبةٍ وأشارتْ نحو باب الفصل. انطلقتُ خارجًا من الغرفة نحو الرُّوَاق.

عادةً... حين أطرَد خارج الفصل نحو أرضية الرواق المصنوعة من الآجُرِّ البارد، كنتُ أزحفُ فوقه على بطنى متظاهرًا بأننى جُندىٌّ يهرب من المعركة. ولكننى هذه المرة جلستُ متربعًا ورأسى مدفونٌ بين يدىَّ أتخيَّلُ نفسى أعيشُ حياتى كُلَّها فى عالَم لا وجودَ فيه إلَّا للونين الأزرق والأخضر. الشمس والسماء والبنايات والأرض. كُلُّ شىءٍ طبيعىٌّ أو من صنع الإنسان مغمورٌ بأطيافٍ من اللونين الأخضر والأزرق.

وبعدَ هذه الحادثةِ جذبنى، فى يومٍ من الأيامِ، إغراءُ توهُّجٍ بلون قوس قُزَح للسير نحو الغابة. سرتُ وسط غطاءٍ شاهقٍ وكثيفٍ من الأشجار التى ترتفع عاليًا فوق أرضية منبسطة مليئة بأوراق الأشجار المتناثرة.

تابعتُ السيرَ إلى أن وصلتُ إلى بقعةٍ صغيرةٍ خاليةٍ من الأشجار. رأيت بِرْكةَ مياه صافية زرقاءَ تطفو على وجهها ورقةٌ خضراءُ وحيدةٌ لزَنْبَقة ماء. شاهدتُ فوق سطح هذه الورقة لونًا مُشعًّا لم أتخيل وجوده أبدًا، احمرارٌ مُتوهِّجٌ على شكل ضُفْدَعٍ. اقتربتُ منه بما يكفى لأشاهدَ وميضَ عينيه. مكثتُ لفترةٍ أتفحَّصُه وأُحدِّق فيه إلى أن انطبعَ شكلُه وتقاطيعُه

Twitter: @alqareah

فى ذاكرتى. لا أريد نسيانَ هذه الصورةِ الفريدةِ والرائعةِ لِلوْنٍ يختلفُ بالفعل عن أىِّ لونٍ آخرَ رأيتُهُ طَوالَ حياتى. مددتُ يدى لألمسَ هذا الاحمرارَ؛ ولكنَّه وثبَ بعيدًا وبهدوءٍ انزلق تحت الماء.

تركتُ الغابةَ وعدتُ إلى العالم المألوف. بإمكانى أن أتذكَّرَ ما شاهدتُ ولكننى لا أستطيعُ التعبيرَ عنه. أغمضتُ عينىَّ ورأيتُ أرضيةَ الغابةِ، والبركةَ الضَّحلةَ الزرقاءَ، وورقةَ الزَّنْبَق المُخضرَّة وضُفْدعًا مذهلًا وجريئًا وثابتًا، بَرَّاقًا ومُضيئًا يتألَّقُ بلونه الأحمر اللامع نحوَ السماءِ، ولكنى لا أستطيعُ استخدامَ الكلمات لوصف ما رأيتُ. من غير أن يكون هناك لغةٌ مشتركةٌ مع الآخرين، من غير أن يكون هناك شخصٌ آخرُ غامَرَ بالدخول إلى الغابة ليشاهدَ ما شاهدتُ، سأبقى الوحيدَ الذى خاض هذه التجربةَ. وحين يسألُنى أحدُهُم عن البركة، لن يسعَنى الإجابةُ، سوى بالصمت.

لم أكتشف إلَّا بعد أن كبرتُ أن شخصًا آخر أدرك أن سؤالى عن الضفدع الأحمر لم يكن المقصود منه تَعمُّد البلاهة ولا إشاعة الشغب. لم يكن سؤالًا حول ألغاز الحياة، يجاوز نطاقَ المعرفة، ولا كان تعبيرًا عن تجربةٍ عاطفيةٍ. كان سؤالًا عن كيف نعرفُ، وكيف نستطيعُ إشراكَ الآخرين فى ما نعرف.

Twitter: @alqareah

كتب «لودفيج فيتجنشتاين» كتابًا بالغَ الصِّغَر ذكر فيه أن حدودَ اللُّغةِ هى حدودُ ما يمكنُنا أن نعرفَ ونشاركَ الآخرين فى معرفته. فإن لم تكن لدينا الكلماتُ لوصفِ تجربةِ ما، فهذه التجربةُ مصيرُها الضياع، ولن تصلَ إلى أىِّ شخص آخرَ. حين أحاولُ أن أتحدَّثَ عن احمرارِ كنتُ الوحيدَ الذى رآه أو مرَّ بتجربة مشاهدته، فما أقولُه لا معنًى له، ولن يتمكَّنَ أىُّ شخصٍ آخر أن يفهمَه.

يرى «فيتجنشتاين» – وجِدَالُه يبدو الآن بالنسبة لى واقعيًّا – أنه حينما استعمل هذا التحليل اللُّغوىَّ لوصف الفِكْر، فقد استطاع أن يجد حلًّا حاسمًا لكُلِّ مشكلةِ فلسفيَّة.

أحيانًا لا تستطيعُ أن تجلسَ فى مقعدِكَ وتلتزمَ الهدوءَ.

Twitter: @alqareah

تمهيدٌ للمراهقين

حين كنتُ مراهقًا، كان النومُ أكثرَ جوانب الحياة إثارةً بالنسبة لي. لم يكن محاولةً للهروب من العالَم الحقيقيِّ؛ ولكنَّه كان عناقًا لعالم الأحلام الذي يوسِّع من وعييّ وتجربتي.

كثيرًا ما كنتُ أدركُ أثناء الحُلْمِ أنني مُمدَّدٌ في سريري ونائمٌ. لم يكن مُهمًّا مدى حقيقة الصور التي تبدو لي في الحلم، أو مدى تورُّطي في الفعل والدراما، فأنا أعلم أنني، وفي أيَّةِ لحظةٍ، سأصحو وتنتهي حينئذٍ هذه التجربة.

ومع أنني كنتُ أجد في مراقبة نفسي وأنا أحلمُ سحرًا وفتنةً، كما لو أنني متفرِّجٌ أشاهد تمثيليةً تتجلَّى تدريجيًّا على المسرح، إلا أن المغامرةَ الحقيقيَّةَ بدأتْ حين عثرتُ على وسيلةٍ لأتحكَّمَ في أحلامي عن وعيٍ. حينما بدأتُ الإحساسَ بهذه القابلية والمهارة كان اندفاعُ الإثارةِ والترقُّبِ كثيرًا ما

Twitter: @alqareah

يوقظني منَ النوم، ولكنني كنتُ إذا ما ظللتُ هادئًا وتعاملتُ مع هذه الحالة على أنها حادثةٌ مألوفةٌ، تحدث كُلَّ يومٍ، أجدُ نفسى أعود ثانيةً تدريجيًّا وببطء إلى عالم الأحلام الذى كان يمكننى تجربتُه تمامًا كأنه عالَمٌ حقيقيٌّ.

كان باستطاعة جسمى الحالمُ أن يشمَّ ويشعرَ ويتذوَّقَ ويستمعَ ويرى. كان بإمكانى أن أقضمَ قضمةً من تفاحةٍ لذيذةٍ وأشعر بعُصَارتها تسيل على جانبَىْ فمى. كما كان بإمكانى أن أسافرَ إلى بلادٍ بعيدةٍ وأركب جَمَلًا أعبرُ به كُثْبانًا تذروها الرياحُ، أو أن أطيرَ من خلال سماءٍ خاليةٍ من الغيوم وأشاهدَ العالمَ يتكشَّف وينجلى من تحتى. كان يمكننى الذَّهابُ عن طريق الحلم إلى أى مكانٍ وبأيَّة وسيلةٍ أختارُها. كما كان يمكنُنى أن أخترقَ الأشياءَ وأرى من خلالها وأن أجعلَ نفسى مُحصَّنًا ضد الألم. كان باستطاعتى تقريبًا أن أفعلَ أىَّ شىءٍ أريده.

كان عقلى الحالمُ يتَّسع لكلِّ المعرفة التى أعرفها فى عالم اليقظة. كان باستطاعتى استعمالُ هذا المخزون من المعلومات لإنهاء مشكلةٍ أو لاكتشاف حَلٍّ. كنتُ قد نجحتُ فى حلمٍ من أحلامى فى العثور على كَنْزٍ داخل صندوقٍ. كان الصندوقُ ثقيلًا جدًّا وغارقًا تحت ما يقرُب من عشرين قدمًا من المياه. لجأتُ لمعلوماتى فى الفيزياء وفكَّرتُ فى مختلف الطرق التى قد تُمكِّننى من رفعه إلى السطح. قررتُ أن أقومَ بسلسلةٍ من

Twitter: @alqareah

الغطسات مستعملًا بالوناتٍ صغيرةً منتفخةً. فكَّرتُ بأننى لو ربطتُ ما يكفى منها إلى الصندوق، فلا بدَّ وأنه فى آخر الأمر سيبدأ فى الطَّفوِ إلى السطح. نجحتْ خُطَّتِى وحين وصل الصندوقُ إلى سطح الماء جَررْتُه نحو الشاطئ، واكتشفتُ أن بداخله غنيمةً خياليةً لا تُصدَّق من الذهب والمجوهرات والعُمْلات المعدنية.

لم أكتفِ باستعادة الكَنْز. كنتُ أطلبُ المزيدَ. أردتُ أن أنقلَ هذا الكنزَ إلى عالم اليقظة. وبثقةٍ كبيرةٍ بقدرتى على هذا العمل قمت بجرف حفنةٍ من القِطَع النقدية فى قبضتىّ، وتَحضَّرتُ للعودة إلى عالم اليقظة. كنت أذكرُ بحيويةٍ إحساسى بجسدين يختلطان مَعًا. واحدٌ منهما يفوز بالكنز، ينهل من الصندوق ويمسك بالعملة الذهبية بين قبضتيه. والآخر مُمدَّد وهو مُسْتَلْقٍ على ظهره فى سريره، وعيناه مغمضتان. كلا الجسدين يقودهما العقلُ ذاتُه. وفيما اختلطتِ الحافَّةُ بين هذين العالمين، كنتُ اعتقدتُ بالفعل، فى تلك اللحظة، إننى نجحتُ فى استعادة الكنز. لكن إذا ما تطلَّعتُ بنظرةٍ أكثرَ وعيًا، كان سيتبيَّنُ لى كيف يمكن للعقل أن ينخدعَ بسَهُولة. كانت ذراعاى مُتوازيتيْن مع جسدى، وقبضتا يدى مضمومتيْن بشدَّةٍ كما لو أنهما تمسكان بشيءٍ ولكنهما فارغتان.

كان الحلم مسرحى الخاصَّ وأنا المخرجُ لكلِّ مَشْهدٍ. كما كان باستطاعتى أن أفعلَ أكثرَ مما أريد؛ قد أجعلُ الآخرين أيضًا

Twitter: @alqareah

يفعلونَ ما أريدُ. فمن الممكن مثلًا أن أسمحَ لصديقٍ بالظهور بصحبتي في رحلة، أو أن أبتدعَ وحشًا يمكنني صَرْعُه، أو أن أسافرَ عائدًا إلى الماضي لأصبحَ ملكًا، أو نحو المستقبل لأعيشَ فوقَ كوكبٍ آخرَ. من الممكن أن يحصلَ كُلُّ هذا بشكلٍ حَيٍّ وحقيقيٍّ كما يحدث في الحياة اليومية. فإن كان بإمكاني التفكيرُ بأيِّ شيءٍ، فأنا أملكُ القدرةَ على القيام به. كانت هذه بدايةَ اكتشافي لقدراتي الكُليَّة ونفوذي غير المحدود.

ولكن يمكن لمثل هذه القوةِ الساحقةِ أن يكونَ لها جانبٌ سلبيٌّ – وإن كانت فقط في الحلم. ففي إحدى المرات، وبعد أن أمضيتُ يومًا نشطًا ومرهقًا، مضيتُ إلى السرير وبدأتُ أحلمُ بطريقةٍ شفَّافةٍ عن فكرةٍ جديدةٍ لاختراعٍ ما. وحين صحوتُ من النوم وضعتُ تخطيطًا تمهيديًّا للمشروع في دفتر يوميَّاتي. ثم مضيتُ للطَّابَق السُّفليّ لأتناولَ فُطُورِي ولأحدِّث والدي عمَّا دَوَّنتُ، ولأُطْلِعَه كيفَ أن باستطاعتي استخدامُ الأحلامِ للوصولِ للمناطقِ الإبداعيَّةِ من عقلي.

وفيما كنتُ أحدِّثُه عن اختراعي، ظهرَ عليه الغضبُ الشديدُ وتكلَّم معي بطريقةٍ غريبةٍ وقال:

– يمكن أن يتسبَّب هذا النوعُ من التفكيرِ في الكثير من المشاكل. تَخلَّصْ في الحالِ من دفترِ أحلامِكِ.

رفضتُ الانصياعَ، لم يكن باستطاعتي رميُ مشروعِ

Twitter: @alqareah

استغرق منى أشهرًا من العمل. ضرب بيده فوق طَاوِلَةِ الطعامِ ورمى بالطعام والأطباق إلى الأرض. وقفتُ هناك مشدوهًا ومصدومًا، ليس فقط بسبب غضبه ورِدَّةِ فعله ولكن لأن الطعامَ وقع على الأرض بنفس الترتيب والشكل الذى كان عليه فوق الطَّاوِلَة. وبينما أنا أكافحُ لأفهمَ ما الذى يحدث، بدأ حجابُ النوم فى الانقشاع. وفجأةً شعرتُ بالرعبِ الشديدِ. لقد بدأتُ أفْرِطُ فى أحلامى وأخلط بين الحلم والواقع. تسارعتْ دَقَّاتُ قلبى ورشَحْت حَبَّاتُ عَرَقٍ من جبينى. فقد كنتُ أحْلَمُ بأننى أحلم.

وبعد هذه الحادثة لم أعُدْ واثقًا أبدًا من يقظتى الأخيرة إلى الواقع. كنتُ خائفًا ربما أننى بدأتُ خلطَ الواقع بالحلم، وقد يؤدِّى هذا للقيام بعملٍ جنونىٍّ ومُحْرجٍ إلى أقصى حَدٍّ. وربما أوصلنى إلى حَدِّ الإجرام. فأصبحتُ بعد ذلك أكثرَ حرصًا فى ما أقولُ وأفعلُ. فإن لم يكن بإمكانى التأكُّدُ أين ينتهى حلمى ومتى يبدأ عالمُ اليقظةِ، فما الذى يمكننى أن أعرفَه؟

لم أكن الإنسانَ الوحيدَ الذى أقلقه بعُمْقٍ هذا السؤالُ؟ حين بدأتُ فى قراءة أعمال «دِيكَارتْ»، اكتشفتُ وجودَ إنسانٍ آخرَ لديه نفسُ الهموم والاهتمامات حول الواقع. فقد أعلن «ديكارت» أن كلَّ ما يمكننا معرفتُه عن العالم الواقعى يجبُ

Twitter: @alqareah

أن يمرَّ أولًا من خلال بوَّاباتِ نسميها الحَواسَّ. ولكن، من الممكن أن تخدعَنا وتُضلِّلَنا حواسُّنا كما تفعلُ بنا أثناءَ النوم. فمن الممكن ألَّا تكون التجاربُ التى تدخلُ إلى عقولنا أكثرَ من أحلام أو أوهام.

فمن الممكن أن نعتقدَ بأننا جالسون للقراءة بالقرب من المدفأة، بينما نحن فى الواقع لعلَّنا مازلنا نائمين فى السرير.

ناقش «ديكارت» مُبيِّنًا: "بما أنه من الممكن لمَدَاركِنا الحسيَّةِ أن تعطيَنا معلوماتِ غيرَ دقيقةٍ وأن تخدعَنا، فلن نتمكَّنَ من الوصول إلى اليقين والمعرفة الحقيقية إلَّا بتجاهلنا لحواسِّنا واعتمادنا الكُلِّىّ على التفكير والاستنتاج المَبنىِّ على البراهين". ولكن أىُّ الحقائق يمكنُنا معرفتُها ببساطةٍ بالفكر المجرد وبدون اللجوء إلى الحواس؟ هناك فقط حقيقتان: حقيقةُ وجودِ الله، وحقيقةُ عِلْم الرياضيات (هاتان الفكرتان ستأخذاننى بعيدًا عمَّا أنا بصَدَدِ سَرْده؛ حتَّى إننى أخافُ أن أنساقَ وراءهما ولا أبدأ بكتابة قصتى أبدًا).

مَنْ يطلبُ منا التساؤلَ والشكَّ فى صِحَّة حواسنا ومداركنا ليس فقط الفيلسوفَ، فالفنانُ أيضًا يشاركُ فى هذا المجهود. لدينا مثلًا الفنَّانُ الرسَّامُ «مُونِيه» الذى قام برسم عشراتِ من اللوحات للمنظرِ ذاتهِ فى فتراتِ وأوقاتِ مختلفةٍ من

Twitter: @alqareah

النهار والفصول على مدار السنة. كان يريدُ أن يبيِّنَ مدى تأثير الضوء، وكيف يمكنه أن يغيِّر، بشكل جوهرىٍّ، المظهرَ الخارجىَّ للأشياء. فلون رُكامٍ من القشِّ فى آخر ساعات الصباح يبدو مختلفًا جدًّا تحت بريق شمس الصيف، عمَّا يبدو عليه تحت سماء قاتمة قبل هبوب العاصفة. يبقى الشىء الأساسى الدافع لحواسنا ذاته لا يتغير؛ ما يتغير هو مداركنا التى تتغير مع تبدُّل الضوء والظل.

ماذا لو أن الفيلسوفَ والفنانَ كانا على حَقٍّ فى أنه لا يمكننا الاعتمادُ والوثوقُ بحواسنا؟ ماذا لو أن المُهمَّ فى الحياة ليس العالَمَ الفيزيائىَّ الملموس الذى يمكننا قياسُه، ولكن فقط الحياةَ الداخليةَ الذاتيةَ للعقلِ؟ هذه الفكرةُ، هذه الاحتماليةُ تولِّد هاويةً كبيرةً قد تمرُّ دونَ الانتباه إليها. فحين تصبحُ اللوحةُ الفنيةُ واقعيةً جدًّا، وحين لا نعطى قيمةً إلا للتفكير الصِّرْف، وحين تصبحُ الأحلامُ أكثرَ إثارةً من الحياةِ ذاتِها؛ حينئذٍ نقفُ عند حافَّةٍ تبدأ فى عَزْلِنا عن الآخرين. ونبدأ معها فى خَلْقِ الواقعِ الذى نريدُه وتَشْكِيلِه.

ربما أننا قد لا ندركُ أن هذا العالَمَ الذى خلقناه بأنفسنا لا يمكن أن يخصَّ أىَّ شخصٍ غيرنا. لعلَّنا لا نعلمُ ولا نُقدِّر مدى اقترابنا منَ الهاويةِ فى هذا الأسلوبِ من التفكيرِ. ربما أننا لا نعى أننا إذا ما انزلقنا ستصبحُ العودةُ صعبةً جدًّا – بل لعلَّها

Twitter: @alqareah

مستحيلةٌ. ربما أننا حتّى لا ندركُ متى بدأ الانحدارُ حتى نجدَ أنفسَنا وقد ارتطمنا بالقاع. حينئذٍ يصبحُ قرارُ التراجعِ متأخرًا جدًّا ولا جدوى منه.

مَنِ الذى يستطيعُ أن يدركَ طبيعةَ هذه المشكلةِ، هذا النوعِ مِنَ الجنونِ؟ مَنِ الذى بإمكانه مساعدتُنا فى هذه الوَرْطةِ؟ أَرجوكَ لا تذكرْ لى الطبيبَ النفسانيَّ؛ بل انظرْ فى كُلِّ مكانٍ وأَوْجِدْ لى شاعرًا.

«جابرييل جيل» شخصيةُ شاعرٍ وبوليسِ سِرِّىٍّ، ظهر نابضًا بالحياة فى عملٍ أدبىٍّ للكاتب «ج. ك. تشسترتون». امتلك «جيل» مهارةً لافتةً للنظر. استطاع من خلالها تتبُّع أفكار الآخرين إلى أن تصلَ إلى شفَا الكارثة؛ حيثُ يمكن لزَلَّةٍ أو عَثْرةٍ فى الحُكم أن تقود الشخصيةَ إلى مأساةٍ لا يمكن تجنُّبها. فى رواية «**جريمة جابرييل جيل**»، يراقبُ الشاعرُ البارع، عن كَثَبٍ، أفعالَ رَجُلٍ شابٍّ. كان هذا الشابُّ قد أشرفَ على الاعتقاد بأن العالَمَ الوحيدَ الحقيقىَّ هو العالمُ الذى يفكِّرُ فيه ويدركُه. ولأن «جيل» نفسَه كان يومًا ما قريبًا جدًّا من هذا النوع من التفكير، فقد استطاع أن يتفهَّمَ مدى الخضوعِ والخطرِ الذى قد ينتجُ عنه. وفى اللحظةِ، التى بدأ فيها الشابُّ فى الاعتقاد أن بإمكانه التحكُّم فى عالم اليقظة، طبَّق «جيل» عليه علاجًا بسيطًا جدًّا ولكنَّه فَعَّالٌ ومُجْدٍ، ليبعد الشابَّ عن

Twitter: @alqareah

الاندفاع المُتهوِّر نحوَ الاستغراقِ فى الذاتِ، فى عالمٍ لا وجودَ فيه سوى للأنا.

علاج «جيل» كان زائدًا عن الحَدِّ وصارمًا. كان اعتداءً يُجازَى عليه تحت طائلة قانون أيِّ مجتمعٍ. ولكنَّ هناك العديدَ من الأمثلة عن أحداثٍ بسيطةٍ وتافهةٍ تعيدُ توجيهَنا فى اللحظة المناسبة. ما مدى بساطتِها؟ وما مدى تفاهتها؟ هل نحن فعلًا فى حاجةٍ إلى شاعرٍ ليأخذنا تحت ظلاله ويحمينا من أفكارِنا الخاصَّةِ؟ أحيانًا يمكنُ أن تتحوَّلَ حياتُنا وتتبدَّلَ عن طريقِ شيءٍ بسيطٍ ومتواضعٍ وغيرِ ذى شأنٍ مثل الالتقاءِ بُضفدَعٍ.

Twitter: @alqareah

تمهيدٌ للكبار

بعد تخرُّجى فى الجامعة تبنَّيتُ أسلوبَ حياةٍ سمحَ لى بالتنقُّل؛ مما أتاح لى العودةَ للإقامة فى منزل والدى أحيانًا، لأستعيدَ متعةَ العيش فى بيئةٍ سهلةٍ ومُرحِّبةٍ. وفى صباح يوم صيفىٍّ، وفيما كنتُ أنظرُ من خلال نافذةِ غرفةِ المعيشة الواسعةِ المُطلَّة على الشارعِ، لاحظتُ وجودَ شابٍّ قصيرٍ وممتلئٍ يسيرُ باتِّجاهِ المنزل. كان يبدو كرجلٍ حِرَفىٍّ يشتغلُ بمهنةٍ تتطلَّبُ علمًا ما، إلَّا أن ربطةَ عُنُقِه الملتويةَ وقميصَهُ الذى لا يثبتُ على جسمه وثيابَه المُتغضِّنة أوحتْ لى بأنه أكثرُ شبهًا بشخصٍ مُتشرِّدٍ.

رددتُ على الباب. سلَّم علىَّ بغير مبالاةٍ وبشكلٍ روتينىٍّ، ثم قام بكُلِّ أدبٍ ودماثةٍ فى عرض بضاعته التى هى تشكيلةٌ من الفُرَش وقطَعُ قماشٍ لتنظيف أرضيات الغرف ومنظفاتٌ

Twitter: @alqareah

للبُسُط والسجَّاد، وغيرها من الأدوات المنزليَّة. أخذ يتلمَّسُ مرتبكًا داخلَ حقيبته السوداء الواسعة. يُخْرِج منها عيِّناتِ وصورًا ليدعمَ وصفَه المُتَّسمَ بالغُلُوِّ والمبالغة.

لم أكن مهتمًّا ببضاعته. كما كنتُ أعلمُ الأسلوب الذى يعاملُ به والدى البَاعَة المُجوِّلين. فقد كنتُ واثقًا أن صاحبَ المنزل لن يكونَ أكثرَ منى إذعانًا ورغبةً فى الشراء. ومع هذا، وحرصًا على أن أبدو مهذبًا، ورغبةً منى فى أن أعطىَ هذا الرجلَ بضعَ دقائقَ من الأملِ فى توقُّع البيع، وقفتُ هناك أمام البابِ المفتوحِ أهزُّ رأسى بينَ الفَيْنَةِ والفينة، بينما توجهتْ بأنظارى نحو الأفق البعيد. وبدلًا من الاستماع إلى مضمون ما كان يقولُ، ركزتُ انتباهى على نغمةِ صوتِه. كنتُ قد سمعتُ هذه النبرةَ من قبلُ. عدتُ بأنظارى نحوَه بفضولِ مَنْ تَعرَّف عليه تمامًا. بدأتُ بالنظرِ بدءًا من أسفلِ قَدميْهِ وببطءٍ تفحَّصتُه صعودًا حتَّى قِمَّةِ رأسِهِ. أوقفَ مُنُولوجَه وبادلنى التحديقَ بعينين واسعتين كعيون الضفدع.

التزم كلانا الصمتَ لزمنٍ طويلٍ لا يبعثُ على الراحة. وقتٌ طويلٌ ربما بَدَا كأنه ينمُّ على بادرةِ تهديدِ وعدوانيَّةٍ فى أوضاعٍ معينةٍ. لم يعُدْ بإمكانى كَبْحُ الابتسامة الهائلة التى انتشرتْ على وجهى – والتى ارتسمتْ مثيلتُها على وجه الرجل الذى يقفُ أمامى على الباب. كان اسمُه «ويلْ»، صديقٌ من الجامعة،

Twitter: @alqareah

كنا قد أمضينا معًا العديدَ من الأمسياتِ التى لا تُنسى ونحن نتبادلُ الحديثَ والجدالَ فى مواضيعَ فلسفيَّةٍ شَتَّى.

قال وهو يسوِّى بيده شعرَه الأحمرَ المُجعَّد: "أَهذا أنت؟"

أجبتُه : "نعم. ربطةُ عنقك، وهذه الحقيبةُ المليئةُ بالخُرْدة خدعتنى". أشرتُ إليه بالدخول إلى البيت.

– لا أستطيعُ أن أصدِّقَ أن هذا أنت! هل تقيمُ هنا؟

أجبتُه: "فقط لعدَّةِ أسابيعَ قادمةٍ. بعدها سأعودُ للدراساتِ العُلْيَا بالجامعة".

جلسنا معًا وأجبتُ باقتضابٍ عن أسئلته ثم بادرتهُ بالسؤال عن أمور حياته. قال: "أنا لا أقيمُ «فى الشارع» ولكنِّى لستُ بعيدًا عنه كثيرًا. كنتُ أقيمُ فى سيارةٍ لفترةٍ ولكن لدىَّ الآن شقةٌ صغيرةٌ بالقرب من المكتبة".

– هل تبيعُ الكثيرَ من هذه البضائع؟

– ليس بالفعل، ولكنى أتَّبع برنامجًا خاصًّا أحدِّدُه لنفسى. على أية حالٍ، لدىَّ شىءٌ أودُّ أن أعرضَه عليك.

وفجأةً أصبح صوتُه مفعمًا بالحيوية والإثارة كما لو أن لديه كنزًا خَفِيًّا يريدُ أن يكشفَ عنه. ثم أردفَ: "سينالُ إعجابَك".

بدأ «ويل» من جديدٍ فى البحث داخلَ حقيبته التى على شكل آلة الأكرديون. تساقطتْ منه بطاقاتُ الائتمان وعيِّناتٌ

Twitter: @alqareah

من فُرَشِ الشَّعْرِ، وأخيرًا سحب عدَّةَ صفحاتٍ رَثَّةٍ مطبوعَةٍ وناولها لى وقد بدا "منتصرًا". على رأس الصفحة الأولى قرأتُ عنوانَ عملِه الأدبىِّ: «مُعْجَم ويل وال».

قال لى: "إنها مجموعةٌ من المآثر والحِكَم كنتُ كتبتُها، أحملها معى ربما وجدتُ زبونًا مهتمًّا. أسميها فلسفة الطريق. هل تتذكَّرُ أقوالَ أبُقراط: «الحياةُ قصيرةٌ، والفنُّ ممتدٌّ، والفُرَصُ زائلةٌ»".

استخلصتُ بسرعةٍ مغزى الجمل القصيرة الزاخرة بالمعنى. أقرأ من خلالها، أتوقفُ بين الحين والحين لأستوعبَ وأمتصَّ رحيقَ المعانى وعمقَ الكلمات التى حرَّضَتْها كتاباتُ صديقى فى نفسى. تضمنَّتْ تشكيلةُ الأوراق، صفحةً بعد صفحةٍ، أقوالاً ومآثرَ على نمط أسلوب كتابة «نِيتْشَه» فى عمله الأدبى «**معجم الشيطان**». هذا هو «ويل» أمامى شابٌّ فى العشرينيات من عمره يبيع الفُرَش من بابٍ إلى بابٍ. يبدو بمظهره الخارجىِّ كتلميذٍ لم يُنْهِ دراسَته الثانويَّةَ أكثرَ منه خرِّيجًا جامعيًّا. كما كان يبدو مُنفِّرًا فى هيئته كبائعٍ مُجوِّلٍ مزعجٍ. من النوع الذى يجعلُ معظمَ الناس يغلقون البابَ فى وجهه وهم يدمدمون متذمِّرين: "لسنا مُهتمِّين ببضاعتك"، ولكن فى داخله – فى ذلك الجزء الذى لا يمكنُنا رؤيَته بعيوننا ولا ملامستُه بجلدنا وحواسنا – يكمنُ عقلٌ ينقدُ ببراعةٍ ويستكشفُ أفكارًا خياليةً بالغةَ الرَّوْعةِ.

Twitter: @alqareah

سألتُه: "ماذا تقرأ هذه الأيامَ؟"

– أعمالٌ كتبها مُفكِّرونَ إيجابيُّونَ منطقيُّونَ. أريدُ أن أفهمَ كيف يمكن استعمالُ المنطق كأساسٍ لعلم الرياضيات.

قال هذا بوجهٍ عاديٍّ لا يبدو عليه أيُّ أثرٍ للهَذْرِ أو للدُّعابة. ترددتُ فى السؤال عن أى تفصيلٍ أو توضيحٍ، خوفًا من أن يصبحَ كل ما يمكنُنى فعلُه الإيماءُ برأسى إشارةً عن فهمٍ زائفٍ.

لمع داخل الغرفة شعاعٌ من نورٍ أضاء شعر «ويل» الأحمر بشكلٍ بدا معه رأسُه متوهجًا برَّاقًا، كما لو أنه قد ينفجر إلى شعلةٍ من اللهب. فى هذه اللحظة اكتشفتُ أن هناك منْطَقةً عاليةً فى العقل لا يصلُ إليها ولا يعلم عنها إلا قِلَّةٌ من الناسِ ولا يزورها إلا النادرُ منهم.

سألتهُ: "لماذا تبيع مماسحَ للأرضيات؟"

"ولِمَ لا؟ فنحن جميعًا بحاجةٍ لأرضياتٍ نظيفةٍ."

انتقل «ويل» إلى مكان ما، ليس عن طريق جسده ولكن عن طريق عقله، وعاد إلينا فى ثيابِ بائعٍ مُجوِّلٍ.

ربما أنه لا يزال يبدو بنفس الشكل وذات التصرف، ولكن هناك شيءٌ اختلف فيه. كان لدىَّ هذا الشعورُ حينما التقيتُ به لأول مرة ولكنه ظهر لى الآن بوضوحٍ أكبرَ. فهو يفكرُ فى مواضيعَ لا يمكن لى تخيُّلها.

Twitter: @alqareah

لا يمكن لنا أبدًا أن نعلمَ كيف تشكِّلُ الأفكارُ عالمَ الآخرينَ أو كيف تؤثرُ التجاربُ التى تمرُّ بحياة الإنسان – مَأسويَّةً كانت أم هَزْليَّةً – فى إعادة تشكيله وفى طريقة تفكيره. فأنا أمْعِنُ التفكيرَ فى شخصيتين متناقضتين: الأول «فارس الإيمان» فى عمل الفيلسوف «كِيرْكجَارِدْ» الذى تبدّل بعد أن مرَّ بتجربةٍ دينيةٍ مقدسةٍ. والثانى «زوربا اليونانى» فى رواية الكاتب «كازانتزاكيس» الذى انغمس كُليةً فى عالم دنيوى. لا يمكن تمييزُ أىِّ تغييرٍ فى المظهر الخارجى للفارس عمَّا كان عليه سابقًا ولكن من الداخل، فى عين عقله، كان قد وثب وثبةً.

فهو يبدو الآن وقد تَخطَّى الآخرين نحو شىءٍ خارجَ العالم الدنيوى الأرضى. كان هناك شىءٌ يقوده عن بُعْدٍ بشكلٍ صائبٍ نحو شىءٍ أبعدَ من مجرَّدِ حياةٍ جيدةٍ.

"يتجوَّلُ الناسُ حول العالم بحثًا عن أنهارٍ رائعةٍ وجبالٍ شاهقةٍ ونجومٍ جديدةٍ وطيورٍ ذاتِ ريشٍ نادرٍ، وأسماك غريبة، وأجناس بشرية منافية للطبيعة والعقل، فهم ينظرون إلى الحياة بشكلٍ أخرقَ وانْشِدَاهٍ وذهول فَظٍّ ووحشى. لا يثيرُ اهتمامى أىٌّ من هذا، ولكنى إذا عرفتُ أين يعيشُ «فارسُ الإيمان» فمن غير تردُّدٍ سأسافر إليه سيرًا على قدمىَّ ولن أتخلَّى عنه بعد ذلك أبدًا. هناك سأشعرُ أننى محاطٌ بالعناية حتَّى آخر العمر. هذه المعجزةُ بلا ريبٍ، هى التى تَشْغَلُ تفكيرى

Twitter: @alqareah

بشكلٍ مطلق." هذه هى أقوال «كيركجارد» فى بحثه عن الحقيقةِ التى من أجلها يحيا ويموت.

فمن خلال تسليم أبدِىٍّ ورضًا بالغيبِ والمجهول يبدأ إحساسُنا بمعنى وجودنا فى هذا العالم. شاهدنا هذا مع النبىٍّ «إبراهيمَ» والسكِّين فى يده يطيعُ أمرَ الله فى طلبٍ من أكثرِ الطلبات غرابةً؛ ومع رؤية الرجل البوذىِّ أثناء تأديته مناسكَهُ الدينيَّةَ. يدورُ ويرتِّلُ حول الجبل المُقدَّس للانعتاق من إعادة بَعْثِه مرة أخرى؛ ومع «هيديجر» وهو يطلبُ منَّا أن ننزعَ قشورَ طبقاتِ المجتمع ونتفهَّم ما الذى يعنيه وجودُنا هنا على هذه الأرض؛ ومع «سارتر» وهو يناشدُنا أن نُجابِهَ وجودَنا لنصبحَ المبدعين لجوهرنا، ومع «بوبر» وهو يحدثنا بأنه حين نقول (أنت)، (فالأنا) ضمنًا موجودة دائمًا؛ ومع صديقى «ويل» الذى لعلَّه يبيع الفُرَش من بيتٍ إلى بيتٍ، إلَّا أنه مُهتمٌّ بعمقٍ بهذا العالم ويُفَضِّل أن يأخذَ من زبائنه أفكارَهم وآراءهم بدلًا من أن يأخذَ نقودَهم.

اتركنى على جزيرةٍ، اهجرنى فى الصحراء، تخلَّ عنى فوق سهلٍ أجردَ فى القطب الشمالىِّ، ابعدنى عن العالم - سأجدُ طريقى للعودة والبحث عن هذا الرجل الغريب الأشعث. وحين أعودُ، سأبقى إلى الأبد أتساءلُ إن كان هذا الضُّفْدَعُ الذى أراه أمامى هو بالفعل فارسٌ.

Twitter: @alqareah

الجزء الأول

Twitter: @alqareah

1

تمتلئ الحياةُ بالعديد من الحافَّات القاسية الوَعْرَة: حافَّاتٌ تغرينا للاقترابِ مثل حافاتِ الجَرْف فوق الوادى الضيق حيثُ يجرى جدولٌ صغيرٌ. وحافاتٌ تُبعدنا مثل الحافة الحادة التى تَبرُز من غطاءِ عُلْبةٍ معدنيَّةٍ بعد فتحها. نشعر دائمًا بالتوتُّرِ والشدِّ بين الرغبة فى رؤية الحافة والإحساس بها وملامستها، وبين الرغبة فى التراجُع والانسحاب نحو الأمان والراحة. من الممكن أن نتردَّدَ فى اتِّخاذ القرار، من الممكن أن نجلسَ ونتأمَّلَ فى خطوتنا التالية، من الممكن أن ننظرَ بعيدًا عن الحافة ونتصرَّفَ مُدَّعين أنها غير موجودةٍ، ولكننا لا نستطيعُ الاستمرارَ فى تجاهل وجودها إلا لفترةٍ قصيرةٍ. فى نهاية الأمر علينا أن نصلَ إلى اختيارٍ ما.

Twitter: @alqareah

عرفتُ يومًا فتاةً صغيرةً عثرتْ على ظَرِبانٍ ميِّتٍ تظهر أحشاؤه خارج جسمه إلى جوارِ بركةِ ماءٍ فى الغابة. ما إن رأته حتى فرَّتْ هاربةً فى الحال، وهى تعانى من الاشمئزاز والرعب. ولكن وبعد أن جَرَتْ لمسافة قصيرة أبطأتْ خطواتها وتوقفتْ ثم استدارتْ عائدةً. نظرتْ نحوه من جديدٍ ثم التقطتْ عصًا من الأرض واقتربت أكثرَ من الجسم الذى لا حياةَ فيه ولكزته. لاحظتْ نسيج أمعائه وعمق اللون الأحمر المُزرَقِّ لمعدته المنتفخة. لاحظت الحَدَّ بين الحياة والموت. قطَّبَتْ قسمات وجهها متألمةً، ثم رَمتِ العصا، وانطلقتْ هاربةً.

لا يمكن للحافة أن تكون مُمِلَّةً أو غير مثيرة للاهتمام؛ ولذا فنحن دائمًا نعيد النظر إلى الوراء. أليس كذلك؟ من الممكن أن تبعث فينا مزيجًا من الإثارة والتَّمَلْمُل والقلق وعدم الرضا. بل ربما أنها تثير فينا الحزنَ والرعبَ. مهما كان شعورُنا ومهما صرَّحنا وأعلنَّا بقوة بأننا غير مهتمين، فنحن فى واقع الأمر نحتاج لأخذ لمحةٍ خاطفةٍ. لأننا بطبعنا فُضوليُّون ومُحبُّون للمعرفة والاطِّلاع على مثل هذه الأشياء.

من ناحيتى، كنت أكثرَ من فُضولىٍّ. حاولتُ أن أفهم الحافة عن طريق الرسومات البيانية والقياس والملاحظة الدقيقة؛ ولكننى وصلتُ لمرحلةٍ أصبحت معها مُثبَّطَ الهِمَّةِ وفاقدًا للصبر. رميتُ بعيدًا أدواتى وخضعتُ واستسلمتُ لانضباطٍ مُمِلٍّ.

Twitter: @alqareah

فقدتُ معه صِدقى وأصالتى. وبدلًا من محاولة الفهم بدأتُ فى مراقبة الحافة لعلَّها ستتآكل مع الزمن. آملًا أنها وبكل بساطة ستختفى وتكفُّ عن مجابهتى. كنتُ أحاولُ أحيانًا أن أخفِّفَ من شدة انحدارها، باللجوء إلى سحقها وضربها بعنف على جِذعِ شجرةٍ صُلْبٍ، أو على صخرةٍ من الجرانيت.

وطبعًا فشلتُ. فأنا صغيرٌ جدًّا والعالم كبير جدًّا. ولكنَّ جهودى لم تكن كلها خائبةً، فمع مرور الزمن والاستعانة باليسير من الحكمة أصبحَ باستطاعتى الآن أن أنظرَ إلى الوراء نحو حافات عالَمِى الشخصى، وأن أرى كيف أن خطوطَ وحدودَ غيرى من الناس والأشياء هى التى تُشَكِّلنى. فحدودُ جسدى ليست هى التى تقرِّرُ من أكونُ وماذا باستطاعتى أن أفعلَ وأين يمكنُنى الذَّهابُ، إنما حافَّات كل الأشخاص وكل الأشياء هى التى تعمل على نحت كافَّةِ إمكاناتى.

حسنًا، هأنذا أتحدث مثل الشاعر لأننى... ، لأننى أحاول أن أتجنَّب الحديث عن الحافة القاسية فى حياتى. لكنى أريد أن أخبرك عنها. فأنا لا أريدُ أن أتأخرَ عن البَوْحِ بما عندى ولن أرضى بأن أظلَّ إلى ما لا نهاية على المحيطِ الخارجىِّ، ولا أن أستمرَّ فى التسكُّع على نحوٍ غامضٍ ومُبْهَم. كما يفعل الشعراءُ عادةً. سأخبرك فى الحال.

Twitter: @alqareah

لن أجعلك تخمِّن ولن ألجأ إلى المخادعة والحيلة. لن أمُاطِلَ أو أسوِّفَ، ولن أدَّعىَ بأنه من الصعب الشرح والتفسير وبأن علىَّ أن أهيِّئ نفسى بالأبحاث وتدوين الملاحظات. سأحدِّثُك عن مشكلتى من غير تَردُّد ولا مُقدِّماتٍ طويلةٍ أو سَكْبِ دموعٍ أو محاولةٍ للمُوارَبة والتهرُّب.

ولكن علىَّ أن أحذِّرَكَ، ما سأخبرك به ليس بالخبر السَّارِّ. ما أنا على وشك البوح به قد يكون من الصعب سماعُه. ربما ظنَنْتَهُ غريبًا ومزعجًا. إذا ما انتابتك مثلُ هذه المشاعرِ بإمكانك الالتفاتُ بعيدًا وتحويلُ نظرك أو حتى الهروبُ. سأتفهَّم موقفك. فنحن أحيانًا لا نكون مُستعدِّين لمجابهة مثل هذه الأمور.

إذًا، فها أنذا مُستعدٌّ.

... انتظرْ لحظةً. تبدو كما لو أنك ستبتعد عنى. أرجوك لا تُسرِعْ بالهروب. فالأمر ليس بغيضًا كما تظن.

والآن ها أنا قد أعطيتُك الكثير من التحذيرات. لا تقلق ولا تظنَّ أن ما ستسمعه سيغيِّر مجرى حياتك إلى الأبد. لأنه لن يفعل؛ على الأقل هذا ما أظنه.

ربما لستُ مضطرًا لأن أخبرك، لأننى فى واقع الأمر أحْسِنُ إخفاء مشكلتى تمامًا. سأعمل على تغطية الحافة. لقد فعلتُ هذا سابقًا. فمن الممكن أن نتظاهرَ كما لو أننا لا نعانى من أىِّ اختلافٍ. ما رأيُكَ؟ أمَازلتَ تريدنى أن أخبرك؟ هل تريد؟

Twitter: @alqareah

بالطبع تريد. فنحن نرغب دائمًا أن نقتحم الحافَّةَ أو نتحرَّكَ حولها فى فضول – أليس كذلك؟

حسنًا، سأقول ما عندى، سأنطق وأفشِى سِرِّى. هل أنت على استعداد؟

ربما ما سأقوله ليس مهمًّا، ربما ستكتشفه بنفسك بطريقة أو بأخرى. والآن يبدو أنك بدأت تغضب. لا تُحبط من حماسك.

حسنًا، حسنًا، ها أنذا سأخبرك... كل ما علىَّ قولُه ثلاثُ كلماتٍ. ثلاثُ كلماتٍ صغيرةٍ لا غيرَ. كلمات قصيرة وليست طويلة. من السهل فَهمُها. ليستْ منَ الكلمات التى تتطلَّب أن تتأملها بدقة. كلمات بسيطة جدًّا. ستدرك معناها على الفور.

هل أنت مُستعدٌّ؟ متأكِّد؟ سأقولُها ثم أشِيح بنظرى بعيدًا لأننى لا أريد رؤيتَك وأنت تهرب. لا أريد رؤيتك وأنت تهرب بعيدًا عنى ولا تفكر فى إعادة الالتفات. ولكنى، مع هذا، آمُل بأننى حين أكفُّ عن حَجْب عينى وخجلى، ستكون ما زلت هنا أمامى. والآن سأنطقُ بالكلماتِ الثلاثِ:

لِى قَدَمَانِ فَقَطْ.

Twitter: @alqareah

2

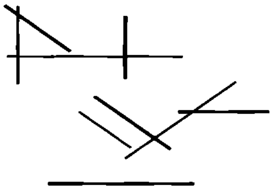

أرى أنك مازلتَ هنا! أنا سعيدٌ لأنك لم تهرُبْ منى. ألا تظنُّ بأن شكلى بهاتيْن القدميْن شاذٌّ وغريبٌ؟ ربما لن ينتابَك هذا الشعور إن كنتُ إنسانًا ولكنى ضفدع؛ والمفروض أن للضفادع أربعُ أقدام. قدمان فى الأمام وقدمان فى الخلف.

فى نهاية قدمى الأمامية اليُسْرى، ستجد، بدلًا من أربع أصابع وباطنِ قدمٍ لَزِج، أستعينُ بها على تسلُّق الجدران والتشبُّثِ بالصخور، ستجد فقط كرةً مُدوَّرةً ملساءَ من جلدٍ ضُفْدعىّ. باستطاعتى التلويح بهذه الكتلة إلى الخلف وإلى الأمام. كما أنى أستعملها كهرَّاوةٍ أدافع بها عن نفسى وأصدُّ تهديد أىِّ مفترسٍ خَطِرٍ، أو يمكننى أن أشقَّ بها طريقًا من خلال أيْكَةٍ من الأغصان المقطوعة الكثيفة. وحين يحاول، أحيانًا، ضفدعٌ آخرُ أن يخيفَنى أو يزعجَنى أعرضُ عليه تلك

Twitter: @alqareah

القدم مصحوبةً بصوت صرخةِ نقيقٍ. وهكذا أتخلص منه.

تعانى قدمى الخلفيَّةُ اليُمْنَى من مشكلةٍ مماثلةٍ، فهى أيضًا ليستْ كقدم ضفدعٍ عاديٍّ بل هى كتلةٌ ملساءُ؛ من غير أية إشارةٍ توحى أن شكلًا آخر كان من المفروض أن يكون فى هذا المكان. أنزلقُ، فى بعض الأحيان، أثناء القفز، ولكن طالما أنى متأكِّدٌ بأن قدمى ترتكز على شيءٍ آمنٍ ومتينٍ، أظلُّ قادرًا على القيام بقفزةٍ مثيرةٍ للإعجاب.

كتلةٌ ملساءُ فى قدمى الأماميَّةِ، وكتلةٌ ملساءُ فى قدمى الخلفيَّةِ. كل ما أحتاج إليه رقعةٌ فوق إحدى العينين لأبدوَ مثل قُرْصانٍ من الضفادع البرمائيَّة. "هاه... انتبه، تراجعْ إلى الوراء أيها الحيوانُ البغيض!"

أتظن أن هذا مضحك؟ هذا حَسَنٌ. فأنا أحب الهَزْل والمزاح؛ لأننى إن لم أضحك على حالى سأبكى. دموعى ليست نتيجةً لإحساسى بالحزن، فحزنى، على الأقل، ليس من النوع الذى يتمنَّى المرء لو يستبدلُ به السعادةَ والرضا. إنه حزنٌ كئيبٌ ناتجٌ عن إدراكى بقلَّة حيلتى وبمشاركتى الضئيلة فى عالم شاسع، لن يُتاح لى رؤيةُ معظمه أو ملامستُه، ولكن يكفى أن أعلم أن هناك على البعد عالَمًا آخرَ، ساعدنى إحساسى بوجوده، ولو للحظةٍ، على تفهُّم وضعى بأننى بقدمين ناقصتين.

لا بد أن أتوقَّف عن الكلام بهذا الشكل. فأنا، مَرَّةً أخرى،

Twitter: @alqareah

أتجنَّبُ ذِكْرَ شىءٍ ما. شىء أريد بالفعل أن أفْصِحَ لك عنه. لدىَّ حافَّةٌ أخرى ليس من السهل وصفُها. إنها واحدةٌ أحرص على الاستمرار فى إخفائها عن الأنظار. لا أبْدِيها للعِيَان إلا حين أكون يائسًا تمامًا أو فى حالة تحكُّم وسيطرة كاملة. سرِّى - بالفعل - مدهشٌ ورائعٌ وعجيبٌ. أحمى به نفسى وأبْعِدُ عنها الخطر وأجْبِرُ الآخر أن يحدِّقَ بعيونٍ مُتَّسعةٍ وفمٍ منفرجٍ مشدوهٍ. لدىَّ القدرة على إبطاء حركة الكون وإبداع ما سأكون عليه. ليس من السهل وصف مثل هذه الأشياء. فوصفُها أصعبُ من وصف قدمين ناقصتين. إن أردتَ أن تفهمَ ما أعنى... وحتى لا يبدو كلامى ساذَجًا وسخيفًا، فأنا بحاجةٍ لأن أخبرك المزيد.

بدأتُ حياتى كنقطةٍ سوداءَ تطفو وتدور من غير هدفٍ فى مياهٍ ضَحْلةٍ داخل حوضٍ زجاجىٍّ أخضر أدْكَن. انقسمتْ، هذه البويضةُ الصغيرةُ من الحياة التى هى أنا، وفى خلال ساعةٍ من الزمن بعد شعورها بأول لمسةٍ للهواء، إلى خليتين. ثم انقسمتا إلى أربع خلايا. وعادت لتنقسمَ كُلُّ واحدةٍ من تلك الخلايا، مرةً بعد مرةٍ، إلى أن أصبح شكلى يشبه ثَمَرة توت «عُلَّيْق» ريَّانة تسبح داخل تجويف كرة شفافة. شكَّلت هذه الخلايا المنقسمة قلبى ورئتىَّ ومَعِدَتى ومُخِّى وعينىَّ وأُذُنىَّ.

Twitter: @alqareah

استمرَّ هذا الانفصالُ والتعدُّدُ والتضاعفُ والاختلافُ أكثرَ وأكثر، إلى أن اكتمل كُلُّ عضوٍ وأصبح كل جزءٍ من الجسم وحدةً كاملةً وتامَّةً.

بدأتُ أتحرك وأتلوَّى داخل الكرة الهلامية، ولكنى سَرْعانَ ما انطلقت متحرِّرًا منها، وبدوتُ للعِيَان كشىء متحرك له جسمٌ قاتمٌ منتفخٌ مثل الجزءِ العُلْوِىِّ لنبتةِ الفُطْر، وذيلٌ كخيطٍ رفيعٍ مثل قصبةٍ لعُشْبة فى أول تَبرْعُمها وفتحات فى جسمى مَكسوَّة بالريش مثل خياشيم السمك. نظرتُ إلى نفسى وأصابتنى الدهشة؛ لكَمْ تبدَّلْتُ وتغيَّرتُ وذُهلتُ لما أصبحتُ عليه، ولما يمكن أن أكون عليه.

طُفْتُ متجولًا للحظة ثم، وبدون تفكير، تعلقتُ بقاع ورقة زنبق الماء. مكثت هناك عالقًا والتهمتُ الصَّفَار من داخل قناتى الهضمية. وحين نَفِدَ منى الصفار بدأتُ أشعر بالجوع الشديد لأول مرة. بعدها أحسستُ بحاجةٍ، لا قدرةَ لى على التحكُّم بقوتها، لإرضاء هذه الرغبة المُلِحَّة. حرَّرتُ نفسى من قاع ورقة الزنبق وطفتُ داخل عالَمٍ مائِىٍّ أبحثُ عن ما يسد جوعى ويُشْبعنى ويُتْخمنى تخمة تامة.

وفيما كنتُ أستكشف كل الطرق المختلفة التى يمكننى من خلالها أن أتحرك وأتلوَّى وأهتزَّ لأدفعَ بنفسى خلال الماء؛ أنقضُّ وأقفز بهذا الشكل أو بذاك، اصطدمتُ بشىءٍ يشبهنى

Twitter: @alqareah

تمامًا. بدأنا نسبح معًا دون تفكير جنبًا إلى جنب ورأسًا إلى ذيل. ندور ونلف فى دوائر لا نهاية لها صعودًا وهبوطًا إلى أن ارتطمنا بآخرين انضموا إلى موكبنا العشوائىّ؛ لنشكِّل آخر الأمر كتلة ضخمة من الأجسام المتحركة تلف وتدور فى دوَّامة. كنا نسبح من غير هدف أو تحديد اتجاه. ترتطم رؤوسنا على صخور ضخمة وتنكشط بطوننا حين تُلامِسُ القاعَ الرمليَّ. نحتشد لدى عثورنا على قطَع صغيرة من الطحالب أو على شيء لذيذ الطَّعْم. نلتفُّ حوله ويحاول كل منا أن يشقَّ طريقَه خلال الازدحام للوصولِ إليه.

وما إن بدأتُ أستمتع بالتجوُّل فى المكان فى جنون، حتى بدأ شكلى يتغير من جديد. فقد فوجئتُ بظهور قوائم على جانبَىْ جسدى. كان هذا شعورًا غيرَ عادىٍّ. برزتْ كشكل غريب ثم استمرتْ فى النمو خارج الجسم، كأنها كتلة غير طبيعية وغير مرغوب فيها. حاولتُ، فى أول الأمر، التخلص منها ظَانًّا أنها أجزاء إضافية لا لزوم لها؛ ولكنَّ هذا الفعل جعلنى أندفع بسرعة خلال الماء وأرتطم بقوة بأشياء قاسية عن غير قصد. ثم اكتشفتُ أننى لو كنت أكثر حرصًا وتحكمتُ فى حركة قوائمى المرتعشة فباستطاعتى، فى آخر الأمر، أن أتحرك تبعًا لهدف معين وبمنتهى السهولة.

ومع أننى استمررتُ فى التحوُّل؛ إلا أننى ظللتُ غير قادر على

Twitter: @alqareah

اللحاق بالآخرين؛ فقد أصبحوا الآن أكثر سرعة وحركة. كان عليَّ أن أقْنَع بالبقاء فى المؤخرة وأجاهد لأكون جزءًا من المجموعة.

كنتُ، أحيانًا، أتحرر منهم وأجد لنفسى مكانًا للراحة والمراقبة. كان من الممتع ملاحظة كيف يمكن للضفادع الآخرين أن يسبحوا مَعًا فى زمن واحد كحشد مندفع أو أن يتبعثروا إلى كتلةٍ عَشْوائيَّةٍ، لا هدفَ لها، من الرؤوس والذيول المتحركة التى تشق طريقها فى الماء. كان من المضحك مراقبتهم وهم ينتقلون، فى اللحظة ذاتها، بين هذين النقيضين، وعلى ما يبدو، أنهم كانوا غير مدركين كيف يَبْدُون وهم يتبدلون من حال إلى حال.

وسَرْعانَ ما اكتشفتُ سبب تقدُّم الآخرين عنى بكثير. ليس فقط لأنهم أضخم منى جسمًا؛ ولكن لأنهم يملكون أربع أقدام. أربع أقدام يستخدمونها لدفع أنفسهم خلال الماء بسرعة كبيرة. بشكل، تهيَّأ لى، كما لو أنها غير حقيقية. ظننتُ فى أول الأمر أن قَدَمىَّ تأخرَّتا فقط فى النُّموِّ وأنهما، فى النهاية، ستظهران بشكل عادى. ولزيادة الاطمئنان كنت أقوم بقياسهما عدة مرات كل يوم. أضع نفسى أمام صخرة وأمد قائمتى الأمامية اليُمنَى وألحظ الطول الذى وصلت إليه ثم أفعل الشىء ذاته بقائمتى الأمامية اليُسرَى وأقارن الفرق. أشعر بالأمل والسلوى مع أىِّ تغييرِ مهما كان طفيفًا.

Twitter: @alqareah

ولكن، فى الواقع، لم يحدث أىُّ تغيير. فالقدمان لم يَبْدُ لهما أى أثر. وهكذا بدأتُ بسرعة أشعر بحاجتى للحصول على شىء أكثر أهمية من الغذاء. أردتُ أن أصبح شيئًا آخر. أردت أن أكون ضفدعًا له أربعُ أقدام. أردت أن أكون أسرع حركة، رشيقًا وأنيقًا ومُهَنْدَمًا. أردت أن أعرف كيف سيكون إحساسى حين أتحرك وأرفس وأنزلق مثل الآخرين. أردت أن أكون ضفدعًا سريعًا على رأس المجموعة، قادرًا دائمًا على الحصول على أفضل طعام. ضفدع يملك أقدامًا قوية يحسُدُنى عليها الآخرون... ولو للحظة. أخذت هذه الفكرة تلفُّ وتدور فى عقلى بغير نظام، إلى أن أصبح التفكير المتواصل متعبًا جسديًّا. وأخيرًا، كان علىَّ أنْ أوقفَ هذا التمنِّى العديم الجدوى. فليس بإمكانى أبدًا أن أكون ضفدعًا سريعًا، كما لن يكون ممكنًا لورقة زَنْبق الماء أن تصبح شجرة عملاقة.

ومع استمرار جسمى فى التغيُّر، أخذ ذيلى الطويل والمَرِن فى الانكماش، كما اختفتْ خياشيمى وتناقصتْ كمية الأوكسچين التى كنت أمتصها من خلال جسمى. لم يَعُدْ باستطاعتى التنفُّسُ تحت الماء. كان علىَّ أن أفكر بطريقة لأستعيد القدرة على التنفس؛ وذلك بأن أطفو إلى سطح الماء لأتزود بشكل دورى ومنتظم بالهواء. أتجرَّعه بسرعة ليدخل

Twitter: @alqareah

رئتىَّ اللتيْن تكوَّنتا حديثًا. وهكذا أصبحت بمثابرة وإصرار أصعد إلى السطح لأتنفس وأنزل تحت الماء لأختبئ. كانت حاجتى لكليهما، بلا توقف، متعبة ومُمِلَّة. لم يعد باستطاعتى الحصول على الراحة أبدًا. وبعدئذٍ، فى أحد الأيام، ونتيجة لشعورى بإحباط وتعب شديدين واصلت السباحة مباشرةً نحو حافة الماء إلى أن وصلت إلى أرض مفروشة بالحَصَى. بدا لى الأمر سخيفًا أن أسبح على اليابسة ولكننى خفتُ أن أتوقف. وبعد كفاح مرهق وصعب جررتُ جسمى وذيلى القصير الكَثَّ واتجهتُ نحو بعض الصخرات الرطبة على اليابسة. كنت أتنفس بثقل. تلفتُّ حولى بسرعة وصُعقت. فها أنذا أتحرك على شىء صلب، ثم ما لبثتُ أن انهرتُ واستسلمتُ إلى نوم مرهق.

مع التغيير المستمر، اكتسبتُ ثقةً أكبرَ فى قدرتى على العيش خارج الماء. ومع أن العالَم المائىَّ كان يغلِّفنى من جميع الجهات ويمدُّنى بشعور كبير بالراحة بينما اليابسة تجبرنى على الزحف على بطنى؛ إلا أن اكتشافها كان ساحرًا.

بعد أن امتصَّ جسمى ذيلى وبدأ بطنى يتوسع من الجانبين، كما لو أننى ابتلعت زوجين من الحجارة الكبيرة ظننت أن هذا يمكن أن يعوقنى ويسبب لى مشكلة؛ إلَّا أن قَدَمىَّ اكتسبتا قوةً ومهارةً. أصابتنى الدهشة، فقد أصبح بإمكانى أن أستعملهما

Twitter: @alqareah

فى الزحفِ وحتى فى القفزِ فى الهواءِ. وهذا ما ولَّد لدىَّ شعورًا بالحرية والانطلاق من كلٍّ من الأرض والماء. وحين تبدَّل جلدى من اللون الأسود إلى الأخضر المُبَرْقَش، أصبح بإمكانى الاختباء والتخفِّى بين النباتات على اليابسة. وغمرنى حينئذٍ شعور بالرضا والراحة.

بدَتِ الأرضُ فى أول الأمر خاليةً من الغذاء. كنت أنزلق إلى بِرْكة المياه من جديد لأشبِعَ جوعى. أبحث عن الطحالب وغيرها من الطعام الشهىِّ الذى يطفو على البركة. ولكن فى أحد الأيام اكتشفت متعة الغذاء على سطح الأرض. ظهرتْ فجأةً مجموعة من الجرادِ برؤوسٍ كالدبابيس والعديد من ذباب الفاكهة الذى لا يطير. كانت تُصْدِرُ أزيزًا وتَثِبُ وتتراقص حولى. تعلقت عيناى تلاحقان حركاتها وشعرت بأننى بشكلٍ ما وقعت تحت أَسْرِها. وفجأة شعرتُ بتَوْق وإثارة غير منتظرة. بدأتُ أقفزُ بحماسٍ شديدٍ متوحش ألاحق إحدى الجراداتِ. وحين أصبحتُ قريبًا منها بما يكفى، أخذت نفسًا عميقًا واختطفتُها بفمى ودفعتُ بها إلى داخله بقدمى الأمامية الناقصة. ثم ابتلعتُها كلها دفعة واحدة. جلستُ هناك مبهورًا بما فعلتُ. تلفتُّ حولى لأرى إن كان هناك أحد غيرى موجودًا ليشاهد هذا العمل البطولى المذهل. كان هذا الجرادُ الطائرُ يتطلَّب التسلُّل خِلْسةً والانقضاض السريع لصيده، خاصَّةً، حين يكون بقربك

Twitter: @alqareah

خمسةٌ من الضفادع تريدُ اختطافَ نفس الجرادة. وبعد أن اكتشفتُ المذاق اللذيذ لهذه اللقمات الصغيرة المتحركة، لم أَعُدْ راغبًا في تناول طعام منقوع بالماء. كانتِ الضفادعُ الكبيرة ذات الأقدام الأربع تحصل على أكبر الجرادات وأكثرها قفزًا. كنت أرضخ وأكتفي بذباب الفاكهة؛ إلا أنني حين كنت أتمكن من صيد جرادة كبيرة متلوية وشهية كنت أسحقها داخل فمي متلذذًا وأجلس بعدها فَخُورًا مطمئنًا سعيدًا وراضيًا.

وبعد أن أكلَ كُلُّ واحدٍ منا المزيد والمزيد من الجرادِ بدأنا نكبر ونتضخم والحوض يصغُر ويضيق، لا يكاد يسعنا. احتلتْ أفضلَ أماكن الاختباء فيه الضفادعُ الضخمةُ الدافعةُ والضاغطةُ. وتكدست في الأماكن الأقل جودة الضفادعُ الصغيرةُ الضعيفةُ فوق بعضها البعض. لم تكن لي رغبة في الاكتفاء بأكل الفتات المُتبقِّي عن الكبار أو أن أكون الطبقة السُّفْلَى لشريحة من الضفادع؛ ولذا فقد أقمت بعيدًا في بقعة مكشوفة بالقرب من حافة الحوض الزجاجي. أضغط بجسمي على الزجاج محاولًا ألَّا أسبب أيَّ إزعاج. كان المكان جيدًا للمراقبة؛ ولكنه لم يكن بالمكان الجيد للاختباء. وقد لاحظتُ من موقعي هذا، كيف يصبح، حتى أكبر الضفادع حجمًا وأكثرها سرعةً، في وضع حرج حين تقترب منه حشرة من

Twitter: @alqareah

الخلف وتتسلق على ظهره وتجلس بأمان واطمئنان بعيدة عن مُتناوَل اليد، كما لو أنها تجلس على صخرة. كما راقبتُ الصِّراعَ الدائرَ بين اثنين من الضفادع أمضيا طوال بعد الظهر يتشابكان بحِدَّةٍ وعنفٍ بحثًا عن مكان للاختباء. فلم يلحظا وهما منهمكان فى القتال أن هناك على مقربة منهما على بعد قفزة واحدة بقعةً أكثرَ إغراءً وأمانًا. فى أغلب الأحيان، كان كل واحد منا يجلس صامتًا يتجاهل كل ما حوله ومَنْ حوله، منتظرًا ظهور الجرادة التالية.

وفى يوم من الأيام تغيَّرتْ حياتى بالكامل عن طريق غَرْفَةٍ كبيرةٍ واحدةٍ. أُدخِلَت شبكةٌ داخل الحوض وجالت فيه. اختفت الضفادع فى أعماقها. اندفعتُ بقوة وانحدرتُ بدءًا برأسى نحو كومة من القوائم القوية الملتوية التى كانت تدفع وتضرب أىَّ شىءٍ يقترب منها. حاولت أن أبادلهم الرفس والضرب؛ ولكننى انزلقتُ أكثر داخل الكتلة الخضراء. أغمضتُ عينىَّ وضَمَمْتُ قوائمى قريبًا من جسمى وتخيلت أننى فى مكانٍ آخر. أسقط، مثلاً، رأسًا على عَقِبٍ من أعلى تَلٍّ نحو بركة ماء منعش.

«طش».. اهتَزَّت الشبكة وارتَّجتْ وانقلبنا داخل حوض ماء آخر يمتلئ بماء بارتفاع ما يقارب طول نصف ضفدع. تحرك نحونا ظِلٌّ قاتم وأَحْكَم وضع غطاء الحوض فوقنا. أخذ

Twitter: @alqareah

كل واحد منا فى النقيق مستنجدًا. نقفز من الهلع نحاول أن نجد مَخْرَجًا. زحفتُ إلى إحدى الزوايا وكمنتُ أراقب الفوضى. ضغطَتْ على الجوانب الخارجية الشفافة للحوض أعضاء وردية اللون وأمسكته، ثم حملَتْهُ بما يحوى خارج الغرفة. تم وضعنا داخل صندوق معدنى ينبعث منه ضجيجٌ عالٍ. أقفل الباب وأصبح كل ما حولنا فى ظلام دامس. صرخ أحدهم قائلًا: "سنصل إلى هناك بعد خمسَ عشرةَ دقيقةً". أخذ الحوض فى الذبذبة والاهتزاز. قُذِفْتُ فى الهواء نتيجةَ لارتداد مفاجئ. التففَتُ حول نفسى قدر المستطاع، متظاهرًا بأننى كرة برمائيَّة داخل صندوق أسود يهزه مخلوق غريب مثير للفضول. وبينما كنت أفكر بأننى لن أستطيع تحمُّل لحظة أخرى لأفرغ مِلْءَ ما فى جوفى، توقفتِ الضجة العالية وتلاشتِ الذبذبات وخَيَّم سكون مُطْبق.

فُتح الباب ببطء باعثًا صريرًا صاخبًا وأشرق فجأة داخل الحوض نور لامع أذهلنا وأصابنا بالدُّوَار، كما لو أننا تلقينا لطمة غير منتظرة على الرأس. ألقيتُ لمحة على الآخرين ووجدتُهم جميعًا ساكنين كالصخور. تحركتْ بعض الظلال عن بُعْد وبدأتْ تتقدم نحونا تدريجيًّا. اقترب منا شكل ضخم يميل برأسه كما لو أنه يقيِّم هذه البضاعة الوافدة الجديدة، ثم قال: "سآخذهم جميعًا".

Twitter: @alqareah

3

تعرضنا لصدمة مفاجئة. حَدَّق بنا زوج من العيون وسمعنا صوتًا يقول: "ضعه فى هذا المكان بالضبط... إنها مجموعة مفعمة بالحيوية سأتمكن من التخلُّص منها بلا صعوبة".

كان صوت هذا المخلوق عميقًا وخشنًا. كان عريضًا، ضخمًا وربما عملاقًا. حلَّق يلف حولنا يتفحَّص الحوض الزجاجى من كافة جوانبه. كان يُدِيرُ شبكةً بين يديه وكان يبدو عليه مكر وخداع حيوان لَيْلِىّ مفترس.

أدخل الشبكة فى الحوض وأخذ يغرف فى كل مرة ثلاثة أو أربعة، ثم يضعنا بسرعة ورشاقة داخل حوض آخر. كنتُ من أوَّل الذين التقطَهم ومن أول الذين أجبروا على النزول إلى قاع الحوض. أخذ يكوِّم الضفادع واحدًا فوق الآخر، ثم قال وهو يضحك راضيًا مبتهجًا: "يبدو عليهم الآن الجَزَع والعَصَبيَّة".

Twitter: @alqareah

وضع غطاء من شَبَكٍ معدنيٍّ فوق الحوض وأردف: "سأخرجهم حين يستقرون ويهدؤون". خطرتْ لنا جميعًا الفكرة ذاتها فى آنٍ واحد: الاختباء!!

وبدأ كُلُّ واحد منا يرفس ويقفز باهتياج شديد. انحنيتُ منخفضًا إلى الأسفل قدر طاقتى شادًّا جسمى ومحاولًا أن أتجاهل الاضطراب والفوضى الضاغطة علىَّ من أعلى. ثم ما لَبِثَتِ الكومةُ أن تفرقت مثل انفجار بذور حبَّات البازلَّاء. بعد أن زالت الفوضى تلفتُّ حولى وتحركتُ لمسافة لا تزيد عن طول ضفدع عن المكان الذى كنتُ حَطَطْتُ عليه. سمعتُ صوتَ انسحاق حَصًى رَخْوٍ. نظرتُ إلى الجانب الآخر من الحوض ورأيت ضفدعًا يزحف مسرعًا ليجد لنفسه مكانًا للاختباء. وبعدئذٍ عمَّ الصمت والسكون. لم يَعُدْ من الممكن رؤية أى أثر للآخرين. تعجَّبتُ للسرعة التى تحركوا واختفوا من خلالها.

جلستُ فى وسط حوض غريب يُنْذِر بالشر تحدِّق فيه عيون العشرات من الضفادع المختبئة. يتساءل كُلُّ واحدٍ منا ما الذى سيحصل له. أخذتُ جَرْعةً من الهواء لأنفخ جانَبىّ، واستعددتُ للقفز بعيدًا عن أىِّ شىء ضخم أو آكلٍ للحوم أو لا يشبهنى فى الشكل. أىُّ شىء له فم كبير.

تحرك شىء خارج زجاج الحوض وسمعتُ صوت «تِكْ... تِكْ». موجة من الذبذبات المزعجة تغلغلتْ داخل جسمى.

Twitter: @alqareah

ارتعدتُ وأطلقتُ بسرعة زفيرًا من صدرى وقمت بعدة قفزات عشوائية. لاحظتُ بالقرب منى صخرةً رَمَاديَّةً ضخمةً وفى أسفلها مكانًا يصلح للاختباء. تحركت بسرعة باتجاهها.

«تك، تك، تك» أصبح الصوت أكثر عُلُوًّا وإصرارًا.

زحفتُ إلى الوراء داخل المخبأ تحت الصخرة وحشرتُ جسمى بداخله. لن أسمح لأىِّ شخص أو لأى شىءٍ أن ينتشلَنِى خارج الحوض. ضَمَمْتُ قائمتَىَّ نحو بطنى. لن أسمح لأىٍّ كان أن يرى أن لى قدمين فقط.

دار الشكل حولنا للحظة ثم مضى مبتعدًا. توقف النَّقْر على الزجاج. أطلقتُ زفيرًا واسترخيتُ. كان يومًا مرهقًا. أغمضتُ عينىَّ وغرقتُ فى سُباتٍ عميقٍ ملىءٍ بأحلام حيَّة ومزعجة.

صحوتُ على أصوات نقيق. بدأ الآخرون يغامرون بالخروج من مخابئهم يتبادلون النداء وهم يستكشفون ما حولهم زحفًا على بطونهم. كان هذا الحوض واسعًا جدًّا. يحتوى على الكثير من الأماكن الممتعة والمشاهد المريحة. وهذا ما جعلنى أضع جانبًا بعضًا من مخاوفى من شَرٍّ مُرْتَقب. فمن أحد الجوانب كانت تنساب المياه من شلال على ارتفاع طول ستة ضفادع ممدودة. تسقط المياه على منطقة صخرية وتتجمع مُشَكِّلَةً جدولًا صغيرًا يتعرج من خلال رقعة مليئة بالحَصَى الرَّمَادِىّ

Twitter: @alqareah

المُتَورِّدِ، ويصبُّ داخل حوض للسباحة محملًا بأوراق زنبق الماء. كانت أرض الحوض مزخرفة بُرقَع من الطحالب وأوراق النباتات الخضراء من جميع المقاسات، وبصخور ضخمة على أشكال متعددة يصعُب وصفها. كان الحوض واسعًا جدًّا وكنت أشعر بالإثارة؛ فمن الممكن أن أجد لنفسى مكانًا أختبئ فيه دون أن يشاركنى فيه أحد.

كنت كل يوم أستكشف أجزاء مختلفة من الحوض وأحاول العثور على أماكن جديدة للاختباء. وقد أثار اهتمامى بشكل خاص مكان تحت صخرة سوداء وملساء فى نهاية الحوض مقابل حوض السباحة. كان يمكننى الجلوس هناك راضيًا مستريحًا أتابع مسار الجرادِ وألاحقه، وأنا أراقب طيف الألوان تتكسَّر أشعَّتُها تحت الشلال فى داخل هذا الحوض الجديد. كان هناك فى الحوض عددٌ قليلٌ من الضفادع الذين لم يأتوا معنا بل سبقونا للإقامة فيه. كان يبدو عليهم الطُّمأنينة والراحة. لا بد أنهم أقاموا فيه منذ فترة. كانوا يشبهوننا فى الشكل واللون، إلَّا أنهم كانوا أضخم منا بكثير.

بدا عليهم جميعًا الرضا حتى إنهم لم يلحظوا وصولنا باستثناء واحد منهم. ضفدع عجوز كان يجلس فى كُوَّةٍ تحت زاوية الشلال. كان أضخمهم جميعًا. ذو جلد باهت ومُتغضِّن. كان بمُجْمله يميل إلى القُبْح. وفى المرة الأولى التى لاحظتُ

Twitter: @alqareah

فيها الضفدع العجوز لم أستطع رفع نظرى عنه ومواصلة التحديق. فيه، وسَرْعانَ ما لاحظنى وبادلَنى التحديق.

كان ينقل بصره بينى وبين شىء ما إلى جانبى. يرفع بين الفَيْنَةِ والفَيْنةِ جبينه متسائلًا. قام بهذه الحركة عدة مرات بطريقة غريبة أقلقتنى. وأخيرًا ألقيتُ لمحةً إلى جانبى. رأيت شيئًا يتحرك تحت الأوراق. ظهر زوج من الهوائيَّات يتلوَّيان. وبعدئذٍ برزتْ أكثر الجرادات إسالةً لِلُّعاب تنسلُّ من أمامى. شَعَرتُ بتحفُّزٍ شديدٍ. ونشطتْ قدماى. ارتفعتُ وتهيأتُ للقفز. ولكننى ترددتُ وعدتُ بنظرى نحو الضفدع العجوز. كانت هذه اللحظة طويلة بما يكفى ليستغل ضفدع آخر تردُّدى ويقفز أمامى يخطف الجرادة. هزَّ الضفدع العجوز كتفيه مستهجنًا وأغمض عينيه.

ذهبتِ الآن الحدود الخضراء الدَّكْنَاء التى كانت تطوِّق أفكارى. فالجهات الأربع لهذا الحوض محاطة بزجاج شفاف. شفاف لدرجة يبدو لى أن باستطاعتى القفز إلى مكان بالكاد لمحته من قبل. آووه، ما الذى فاتنى ذكره!! فمن خارج الألواح الزجاجية كان ثَمَّة عالَمٌ من المربعات والمستطيلات مرصوصة فوق بعضها البعض أو إلى جانب بعضها البعض. تتجمع معًا لتشكل زوايا وحافات. تم رَصُّ الأشكال الكبيرة

Twitter: @alqareah

فى أسفل المجموعة وتكدَّست فوقها الأصغر ثم الأصغر على التوالى، كما لو أنها تتنافس ليحصل كل شكل على مكانه الخاص. كانت الجوانب مَكْسوَّةً بألوانٍ غريبةٍ جدًّا تتدرَّجُ من الأحمر اللامع والأصفر إلى الأزرق الباهت والبُنِّى. معظم الأشكال الصغيرة ذات نقوش متعددة الألوان مثيرة للفضول من المُنقَّط والمُلطَّخ والمُقلَّم والمدوَّر.

حول كل هذه الأشكال، توزَّعتْ أحواض وأقفاص أخرى يحتوى معظمها على حيوانات لم يكن يسرُّنى النظر إليها. فعلى الجانب الآخر من المَمَرِّ كانت تعيشُ مجموعةٌ من الثعابين التى تنزلق وتلتفُّ وتحدِّق بى مهددة. تنقر بألسنتها الرفيعة والطويلة تمدُّها إلى الخلف وإلى الأمام كأنها تحاول أن تتذوق شيئًا.

بالقربِ منها كانت تقيم السَّحالِى فى بيتها تتمطَّى وتمد أجسامها الطويلة الحرْشُفيَّة. تقف منتصبة على قوائمها الخلفية وتضغط ببطونها على الزجاج. وأما القفص الذى يليه فكان بيتًا لحرباء وحيدة تتباهى بزينة جسمها، وتبدِّل ألوانها طوال النهار من اللون الأخضر الفاقع إلى الأخضر الفاتح إلى أطياف من الأصفر والبرتقالى. من مكان بعيد فى الغرفة، كانت هناك مخلوقات تُصَدِر أصواتًا غريبة. كلاب نابحة وقطط تموء، وطيور ترفرف وتخفُق بأجنحتها وتلفُّ

Twitter: @alqareah

حائمةً فى أقفاصٍ مُتدَلِّيةٍ من السقف، تُسَقْسِقُ وتَقُوقُ وتُثَرْثِرُ، وأحيانًا تصرخ مذعورةً "سأمسك بك، سأمسك بك".

كان معظم اهتمامى مُنصَبًّا على الناس الذين يتجولون ويتأمَّلوننا ويلفُّون حول الحوض كما لو أنه جبل شاهق ذو مَمَرٍّ خَفِىٍّ يصل للقمة. يأتون ويذهبون دون أى نظام معين بتشكيلات متنوعة جدًّا. يتطلعون إلينا ويحدِّقون من كُلِّ الجهات وهم يجرجرون أقدامهم. يلفون حولنا ويتوقفون أحيانًا ليضغطوا بوجوههم على زجاج الحوض. كان يبدو عليهم كما لو أنهم يتعجبون وربما يندهشون مما يشاهدون داخل الحوض. لماذا كنت أنا بالذات محور اهتمامهم؟ كان هذا بالنسبة لى لغزًا كبيرًا.

كان الناس يقتربون كثيرًا من الحوض؛ حتى إن أفواههم وأنوفهم الكبيرة التى يتنفسون بها كانت تُضبِّب الزجاج. فى أول الأمر كان هذا مرعبًا. كنت أظن أنهم سيمتصوننى إلى داخلهم على الفور. ولكننى سرعان ما أدركتُ أنهم لا يستطيعون اختراق الحوض كما لا يمكننى الخروج منه. وهذا ما بعث السَّكِينَة فى نفسى وجعلنى أشعر أننى فى مكان آمن. أتسلَّى برؤية هذه الفِكُوك المفتوحة والمندهشة، وتلك العيون المُحدِّقة من وراء الزجاج.

لاحظتُ أن لا وجه للتشابه بين البشر حتى عندما تراهم

Twitter: @alqareah

عن قرب؛ على عكس الضفادع التى لا تجد سوى اختلاف بسيط بين بعضها البعض. فمنهم الطويل والقصير والضخم والرفيع وكل شىء فيما بين هذا وذاك. يكسون أجسامهم بثياب تتدرَّج من اللامع الزاهى والمبهرج إلى الأدْكَن المكتوم. ويصرخون فى صغارهم بكلمات مثل: "اهدأ" أو "أين أنت؟". بينما يركض هؤلاء الصغار بلا هدف ولا غاية، تمامًا مثل أفراخ الضفادع.

وحين يكفُّ هؤلاء الأطفالُ عن النظر إلينا – وكثيرًا ما يفعلون – كنت أحب مراقبتهم والنظر إلى أنوفهم وأفواههم التى لم أعد أجدها مرعبة.

ومع هذا، فقد كانوا يحتفظون بعادة مزعجة للغاية. كانوا يسيرون ببطء وحرص إلى أن يصلوا إلى جوانب الحوض ثم يتهيَّؤون للهجوم، يقوِّسون أصابعهم مثل ضفدع يستعد للانقضاض على جرادَةٍ، ثم يوجِّهون أصابعهم نحو واحدٍ منا ويبدؤون فى النقر على الزجاج: «تِكْ، تِكْ، تِكْ، تِكْ». كان هذا الصوت يبعث صريرًا مذبذبًا من خلال الحَصَى وإلى داخل جسمى.

يرددون: "أهلًا بك أيها الشاب الصغير. دعنى أراك وأنت تقفز «تِكْ، تِكْ» أنت الذى هناك. هل أنت مستيقظ؟".

لم يكتفوا بمشاهدتنا لإشباع اهتمامهم وفضولهم. كانوا يريدون أن نتقافز فى المكان ونقدم لهم عرضًا مسليًّا.

Twitter: @alqareah

بعدئذٍ، وبسرعة تبدأ الأصابع العشر فى حركةٍ دائريَّةٍ على الزجاج «تِكْ، تِكْ، تِكْ، تِكْ». قد يلاحظ أحد البالغين ويقول شيئًا مثل: "يا عزيزى، ألم تقرأ اللافتة؟ إنها تقول: «من فضلك لا تنقر على الزجاج»". ولكن وكأنه أمرٌ حَتْمىٌّ، لا يمكن تجنُّبه، يظهر ولد آخر بعد بضع لحظات وتبدأ النغمات النشاز المتنافرة من جديد.

أسمعُ أحيانًا بعض الأولاد يسألون أهلهم إن كان بالإمكان اصطحاب واحدٍ منا إلى البيت. وهكذا يتسنَّى لهم النقر على آذاننا يوميًا. عادةً، ينحنى البالغون نحو أولادهم ويقولون: "سنرى" أو "ربما مرة أخرى".

أحيانًا، إذا ما حدَّق ولدٌ بالحوض لفترة طويلة أو تكررت زيارته خلال عدة أيام؛ فهذا يعنى أن اختياره وقع على واحد منا. يظهر حينئذٍ الرجل العملاق مع شبكته وينتشلُ الضفدع المختار ويضعه فى كيس بلاستيكى ويناوله للولد... لم يَصْدِفْ أن عاد أى ضفدع للحوض.

فى أحد الأيام، وبعد أن انتهيتُ من تناول وجبةٍ خفيفةٍ من الجرادِ، لاحظتُ اقتراب ولديْن تعلو وجهيهما ابتسامةٌ واسعةٌ. اقتربا من الحوض بخطوات سريعة. أطلَّ الولد الأطول ليرانا من خلال السلك أعلى الحوض، بينما انحنى القصير إلى أسفل

Twitter: @alqareah

الحوض وأخذ يحدِّق من خلال الزجاج ثم قال: "آووه... انظر إلى كل هذه الضفادع".

هزَّ الولد الطويل رأسه موافقًا ثم تراجع قليلًا إلى الوراء. تتبَّعتُ إصبعه وهو يشير إلى جانب الحوض، واستعددتُ لسماع دورة جديدة من النَّقْر. ولكن بدلًا من ذلك أشار الولد بإصبعه إلى قطعة من الورق ملصوقة على زجاج الحوض، وقال: "هذا هو اسم ما نراه في هذا الحوض... **بامبينا أورينتاليس**".

أخذتُ نظرةً سريعةً حولي. لم أكن متأكدًا عمَّ أبحث.

قال الولد الطويل: "يقولون ها هنا بأنها ضفادع طينية من ذوات البطون الحمراء كالنار. موطنها آسيا".

وبينما كان الولد الأضخم يفسِّر للأصغر، اقترب الرجل العملاق ممسكًا بشبكته يضربها على كَفِّه بغير اكتراث وسألهما: "هل وقع اختياركما يا أولاد على أيٍّ واحدٍ منهم؟"

نظر الولدان لبعضهما البعض وهزَّا رأسيهما بالنفي.

– على ما أظن لم تصلا بعد إلى أي قرار. ما رأيكما، سأصحبكما في جولة قصيرة.

قلب شبكته رأسًا على عَقِبٍ وبدأ يشير بمقبض الشبكة، وهو يقول: "هل تشاهدان هؤلاء هاهنا؟ إنهم أصغر الموجودين. لقد وصلوا من مزرعة لتربية الضفادع منذ عدة أسابيع. لا تزيد سِنُّهم على خمسة أشهر. أما الكبار الذين تشاهدانهم هناك

Twitter: @alqareah

فعمرهم حوالى سنة. إذا كنتما تنويان الحصولَ على أكثرَ من ضفدعٍ من الضفادع ذات البطون النارية، فمن الأفضل أن تختارا من هم بنفس الحجم والعمر، وإلَّا فإن الأكبر قد يأكل الطعام كله".

راقب الولدان نهاية الشبكة كما لو كانا يتعقَّبانِ جرادةً. أبعد الصغير أنظاره للحظة، ثم حدَّق نحو زاوية الحوض وقال: "ما رأيُك بهذا الضفدع الكبير حقًّا والذى يجلس هناك تحت الشلال؟"

أجابه الولد الثانى: "إنه ضفدع طينى".

عَلَّق الرجل: "أنا أُلقِّبه بالحاكم. فهو يختلف بعض الشىء عن الآخرين لأنه لا يقفز حوله كثيرًا مثلهم، بل يكتفى بالجلوس تحت الشلال يراقب الباقين. كما أنه أكبرهم سنًّا".

– كم يبلغ من العمر؟

– لست متأكدًا، ولكنِّى سمعت أن البعض منهم يمكن أن يعيش ليصل إلى سن العشرين. وهذا يعنى أنه مُسِنٌّ عَجُوز بالنسبة لحيوان برمائى. أنا لا أعنى أنك لا تستطيع اقتناءه ولكن، على الأرجح، لن يكون اختيارًا جيدًا إذا كنت ترغب فى الحصول على حيوانٍ أليف.

سأل الولد القصير: "هل هو عجوز جدًّا؟"

– كلَّا. ليس هذا هو السبب.

Twitter: @alqareah

– إذًا. لماذا ؟

قال الرجل: "حسنًا. لأنه ليس من الضفادع التقليديَّة التى تراها عادةً فى محلات بيع الحيوانات الأليفة، فقبل أن يصل هذا الضفدع إلى هنا – كان ضُفْدَعًا بَرِّيًّا".

Twitter: @alqareah

4

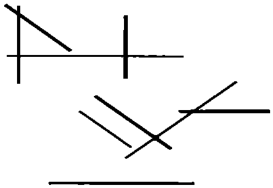

بَرِّيّ! ماذا يعني بأنه - بريّ؟ هل يعني هذا أن الضفدع العجوز خطير، خبيثٌ ومُؤذٍ، أم أنه فقط غير اجتماعيّ؟ لا شك أنه غريب الأطوار. كما أنه يبدو مختلفًا وغير منسجم مع الآخرين. لا بد أن شيئًا قد حدث له، شيء رهيب لا يمكن ذِكْرُه. ولكن، ربما، أنه شيء ساعد على تحويله للأفضل. شيء رائع. مهما كان هذا الشيء، كنت بحاجة لأن أعرفه. بدأت أراقبه عن كَثَبٍ. ولكن بحرص.

وعلى الرغم من أنه كان يمضي معظم اليوم ساكنًا بلا حِرَاكٍ، إلا أنه لم يكن راضيًا عن نفسه. كان يبدو أنه يلاحظ ويسجل اقتراب أيِّ شخصٍ منه وعادات كل ضفدع ومكان كُلِّ جَرادةٍ. كان ما يثير فضوله وحَيْرتَه بشكل خاص السيد

Twitter: @alqareah

الثعبان الذى كان يستمر فى مراقبته أحيانًا لساعات عديدة. وفى كل مرة كان جارنا الذى يزحف ولا يملك أية قوائم يفرد جسمه الطويل المُرقَّط وينصبه إلى أعلى أمام الزجاج، ويتمايل به إلى الأمام وإلى الخلف. يبدأ الضفدع العجوز حينئذٍ، وعلى الفور، بتحريك كتفيه وعينيه فى إيقاع متعاطف، كما لو كان الاثنان مُتَّصليْن برباطٍ خَفِىٍّ. هذا المشهد كان غريبًا ومُقْلقًا؛ ولذلك ابتعدتُ عنه قدر المستطاع كما فعل بقية الضفادع.

حين كان الضفدع العجوز يشعر بالجوع، كان يسبح عابرًا البِرْكَة ويزحف نحو الصخور الرطبة ويراقب الوعاء الذى يمتلئ بالجرادِ. فى الحال، يتوقف أى ضفدع آخر عن الصيد، يبتعد ويوسِّع أمام الضفدع العجوز مَمَرًّا مباشرًا لينالَ ما يرغبُ من طعام – حتى ولو كان هذا يعنى التراجع للوراء والتخلِّى عن جرادةٍ كان على وشك القفز للحصول عليها. كان الضفدع العجوز رشيقًا وهادئًا، كما كان حريصًا ومباشرًا. نادرًا ما يقوم بحركة لا لزوم لها. وكان حين ينتهى من تناول طعامه بعد أن يملأ بطنه يرجع ليحتل مكانه بجوار الشلال ويعود مرة أخرى للمراقبة والاستغراق فى التأمل.

فى أحد الأيام، وبعد أن وصلتْ مجموعةٌ من الجرادِ وملأ الضفادع الآخرون بطونهم حتى وصلوا لدرجة التُّخَمة، وشعر كل واحد منهم بعدها بالرضا وداعبه النُّعاس، جازفتُ

Twitter: @alqareah

بالخروجِ من مخبئى للبحثِ عن ما بقى منها. ترقبتُ مكان جرادة صغيرة تبدو لذيذةَ الطعم تقفز من تحت ورقة بالقرب من حوض السباحة. زحفتُ عبر الصخور وتسللتُ خارجًا وراء الحشرة القافزة وأطبقتُ عليها. إنها وجبة شهية للعشاء. كانت قائمتا الجرادة الخلفيتان مازالتا عالقتين خارج فمى حين انتبهتُ لوجود صاحب النقيق العجوز. لم أكن لاحظته وهو يقترب.

قال لى بصوت رتيب يؤكد به واقعًا معروفًا ومفروغًا منه: "هذه جرادتى".

لم أكن واثقًا مما سأقول أو مما سأفعل. فكرت فى أن أبصق الطعام الذى مضغتُ نصفه وأقدمه له.

تمتمتُ قائلًا: "هل تريدها؟"

أخذتِ الجرادةُ تتلوَّى منزعجةً فى فمى والضفدع العجوز يواصل التحديق. لم يكن أمامى شىءٌ آخر سوى أن أبتلعها.

– ها أنت الآن أكلت جرادتى.

حوَّلتُ عينىّ وتطلعت إليه وقلتُ: "أنا آسف، ولكننى لم ألحظ وجودك".

قال وقد نَفِدَ صبرُه: "ألم تَرَنِى؟ لقد نظرتَ نحوى مباشرةً ثم ابتلعتَها. علاوةً على أنك تراقبنى بشكل مستمر. كيف إذًا تدَّعى عدم الانتباه لوجودى؟"

Twitter: @alqareah

تظاهرتُ بالدهشة وقلت: "هل تظنُّ أننى أراقبك؟"

سألنى: "هل تُنكِر ذلك؟"

تساءلت محتارًا بينى وبين نفسى، قد يكون واحدًا من الضفادع البطيئة الغضب؛ ولكن ما إن يستفحل الأمر ويثور غاضبًا حتى يأكل كل شيء، الأخضر واليابس، بما فيهم أنا. شعرت بارتباك شديد من ردَّة فعله، ونبرة صوته، وكِبَر حجمه. لم أعُدْ واثقًا مما سأقول أو أفعل. ووجدتُ نفسى بلا سابق تفكير أرد على الهجوم بإفشاء السر الذى كان قد تطرَّق إلى سمعى وبادرتُه قائلًا، وبصوت قَلِقٍ وعالٍ: "أمَا زلتَ بريًّا؟"

– هل هذا ما سمعته... أننى بَرِّىّ؟

– سمعت الرجل الكبير الذى يمسك بالشبكة... يتحدث عنا جميعًا نحن الضفادع.

قال الضفدع العجوز يحثُّنِى على مواصلة الكلام: "وما الذى قاله؟"

– قال إنك مختلف عن الآخرين... قال... قال إنكَ برىٌّ. لا أعلم ماذا تعنى هذه الكلمة بالفعل، ولكن إذا كنتَ بريًّا أو مازلتَ بريًّا، أرجوك لا تغضب منى. لن آكل بعد اليوم أية جرادةٍ تريد أكلها.

استمررتُ فى الحديث بعصبية آملًا أن أصرفَ غضبه بكلماتى، لعلِّى أتمكن من القفز مبتعدًا حين تطرف عيناه،

Twitter: @alqareah

وأخذتُ أثرثر وأتحدث عن النباتات والصخور ووفرة الجراد. وحين نفدت المواضيعُ والأشياءُ التى يمكن أن أتحدث عنها، لجأتُ للتَّمْتَمةِ ولتكرار ما قلتُ. شددتُ قدمىَّ أتهيأ إذا ما سنحت الفرصة للهروب.

استمر صاحب النقيق العجوز فى التحديق بى، ثم قال: "بإمكانك أن تكفَّ عن هذا اللَّغْوِ الذى لا طائلَ منه. أقترح عليك أن تفعل هذا وألا تحرج نفسك وتبدأ معى بالقدم الخطأ".

قدمى! هل يمزح؟

أخذنا نحدِّق ببعضنا البعض لنرى من الذى سيتراجع أولًا. وبينما كنت أفكر بقدمىَّ السليمتين وقدمىَّ الناقصتين، ثُرْتُ وسخطتُ عليه وغضبتُ من ملاحظته الساخرة. تلاشتْ مخاوفى وأمسكتُ بقدمى الناقصة ورفعتُها أمامه وقلتُ: "هذا لن يحصل أبدًا. فكما ترى. ليس لدىَّ حتى قدمٌ سَوِيَّة".

اتَّسعت عيناه البارزتان وانفرج فمه الكبير حتى صار بإمكانى أن أرى مسام حنجرته. ثم استسلم للضحك.

نظرتُ إلى نهاية قائمتى؛ كنت أشير بها - بتلك الكرة المُدوَّرة من اللحم - إلى الضفدع العجوز كما لو كنت أعرض عليه شيئًا مُهمًّا جدًّا. كان بالفعل منظرًا مضحكًا.

قال: "تبدو ظريفة وقوية. أنت، على الأرجح، ملاكم جيد بهذه القدم المَكْسوَّة بما يشبه الجراب الواقى".

Twitter: @alqareah

قلت متغطرسًا حتى يكون رَدِّى متوازنًا مع سخريته: "أنا لستُ ملاكمًا محترفًا".

ابتسمَ وهزَّ رأسه قائلًا: "أظن أن عليك أن تُعيد النظر. فمن الممكن أن تصبح ملاكمًا متميزًا. يمكنك على الأرجح أن تُطيح بعين ثعبان بلكمة واحدة. يمكن لقدمك أن تطيح برأسه كله".

جَفلتُ. فقد كان التصوُّرُ خياليًّا ومبالَغًا فيه بشكلٍ مضحك، وهذا ما جعلنى أكتم ضحكةً خافتةً، فالتصورُّ سخيفٌ ومنافٍ للعقل. ازدادتْ قهقهة الضفدع العجوز وانطلق كلانا فى الضحك بصوت عالٍ إلى أن اتجهت أنظار كل الضفادع إلينا. كانت هذه هى المرة الأولى التى وجدتُ فيها أيَّة دعابة أو فكاهة فى قدمىّ الناقصتين.

قال لى: "لم أرَ أبدًا من قبل أقدامًا غير مكتملة بهذا الشكل".

شددتُ قوائمى بسرعة تحت جسمى ونظرتُ بعيدًا. وتوقف الضحك.

– لا تغضب، كل ما هنالك أنى أردتُ أن ألقى نظرةً عن قرب. فأىُّ اختلافٍ يثير فضولى وحَيْرتى. ألا ينتابُك الشعورُ ذاتُه؟

أجبتهُ وأنا أحاول أن أتجاهله: "لا أجدُ أىَّ شىءٍ غريب أو غير طبيعىّ بالنسبة لقدمىّ".

Twitter: @alqareah

– حسنًا، لقد عرفتُ ضفادع بإصبعين أو بثلاث أصابع، ورأيتُ ضفدعًا بزعانف من قبلُ، ولكنى لم أرَ قطُّ ضفدعًا بأقدام غير مكتملة تنتهى بكتلة كالتى فى قدميك. وهذا ما يثير فضولى.

هززتُ رأسى ونظرتُ بعيدًا.

– دعنى أراهما فقط... يبدو كما لو أن إحداهما ذات أصابع متصلة بأوتار، بينما الأخرى ملساء تمامًا.

استدرتُ قليلًا فى اتجاهه: "ماذا ؟"

– عادة ما تُغلَّف القدمان الخلفيتان للضفادع الذين هم مثلى ومثلك بأوتار مثل أقدام الإوَزّ، وأما القدمان الأماميتان فأصابعهما غير متشابكة. فى حالتك أرى قَدَمًا أمامية واحدة ذات أوتار، والأخرى ملساء بلا أوتار ولا أصابع منفصلة. أليس هذا صحيحًا؟

– لم أكن أعلم هذا.

– هذا لا يجعلنى مندهشًا. فأنت تفكر فى قدميْك طوال الوقت؛ ولكنك لم تحاول النظر إليهما بتمعُّن – على كل حال – فأنا لا أستطيع أن أتخلص من حبِّى للاستطلاع. هل يمكننى أن ألقىَ نظرةً عن قُرْبٍ؟ هل يمكننى أن ألمسَ واحدةً منهما؟

كانت نبرةُ صوته رقيقةً وثابتةً. اقترب منى مُشجِّعًا.

Twitter: @alqareah

جفلتُ من طلبه هذا. نظرت إلى قائمتَيَّ ثم إليه، ثم رفعتُ قدمى الأمامية المبتورة ومددتُها أمامه. وضع قدمه بلطف فوق قدمى. لم أشعر أبدًا من قبل بمثل هذه اللمسة من أى ضفدع آخر. وشعرتُ معها برعشة دفء تجتاحنى وتسرى فى داخلى.

– كنت أظن أنك بَرِّىٌّ أو خبيث أو شىء من هذا القَبيل.

قال: "لا تقلق منى". ببطء، أنزلنا قدمينا ثانيةً نحو الأرض.

وأردف: "بالفعل، كنت أعيش فى الخارج. هذا كل ما فى الأمر، كنت أعيش بالقربِ من بِرْكَة واسعة، محاطة بالأشجار والعُشْب والعديد من أغصان الأشجار المقطوعة التى كانت تهيِّئ لى الكثير من أماكن الاختباء".

سألته: "أين فى الخارج؟"

– الخارج هو كل مكان فى الناحية الثانية خارج هذا الزجاج.

حكَّ رِجْلَه على الحوض وأكمل: "يُمكنُكَ القيامُ بكل ما يخطر على بالك حين تكون فى الخارج – بالفعل، خارج كل شىء – يمكنُك أن تستمرَّ فى القفز إلى الأبد، أو على الأقل إلى أن تصادفك صخرة كبيرة أو شارع أسفلتى فى الطريق".

قلت وقد أعجبتنى الفكرة: "آووه. هل كنت سعيدًا هناك؟"

Twitter: @alqareah

– من الممكن أن تمضى أوقاتًا بهيجة. فأنت تنعم بشمس دافئة، وبأوراق زنبق الماء على كُلِّ شَكْلٍ وحَجْمٍ، وبحشراتٍ حيَّةٍ تُصْدِرِ أزيزًا وتنتشر فى كل مكان. إن وجودك فى الخارج قد يفتح أمامك إمكاناتٍ لا يمكن أبدًا أن تتخيلها وأنت فى داخل أى وعاء.

– هذا مثير جدًّا.

– إنه مثير فعلًا. ولكن من الممكن أن يكون، أيضًا، خطيرًا جدًّا. يكْمُن المفترسون مترصِّدين دائمًا فى كل مكان. يزحفون نحوك دون أى إنذار ثم يبتلعونك فى جوفهم فى لقمة واحدة.

قلت له: "ولكن هذا لم يحدث لك".

– حين تعيش فى الخارج تتعلم بسرعة كيف تحمى نفسك. فى أول الأمر تحاول أن تقفز مبتعدًا عن أى خطر يواجهك، ولكنك سريعًا ما تدرك بأنه ما من مكان يبقى آمنًا بشكلٍ مُستمرٍّ. هناك فى الواقع شىءٌ واحدٌ يمكن فعلُه، خاصَّةً، حين يحيط بك الخطر من كل جانب.

سألتُ بقلقٍ وتَوْقٍ لمعرفة المزيد: "ماذا ؟"

– إنه أمر بسيط جدًّا.

– ما هو؟

– أن تلزم السكون.

– هل هذا كل ما فى الأمر؟

Twitter: @alqareah

أجابنى: "نعم. أن تكون ساكنًا. حين تكون فى قفص زجاجى، من السهل أن تتعلَّم كل ما عليك أن تعرفه عن الحياة فى داخله. بإمكانك أن تستكشف الشلَّال وكل صخرة وكل تجويف وكل جزء ناتئ ومُتدلٍّ. باختصار، يمكنك أن تتعرف على عالَمك كله. ولكن فى الخارج – وراء هذا الزجاج – لن يمكنك أبدًا أن تتعرف على كل ما يحيط بك. ولذا؛ فأنت تحتاج للالتزام بالسكون والمراقبة المتواصلة، وأن تبقى دائمًا على أهْبَة الاستعداد".

– ظننتُ أن بإمكانك السفر والتَّجْوَال فى كل مكان. هذا ما كنت تقوله...

قاطَعنى قائلًا: "لن تصبح ضفدعًا مُسنًّا باللَّفِّ والتَّجْوال. يمكنك الاستمرار فى العيش حتى تبلغَ سِنَّ الشَّيْخُوخَة إذا ما التزمتَ ليس فقط بالسكون، بل بالسكون التام".

Twitter: @alqareah

5

بدأتُ أمضِى أوقاتًا أطول فى صُحْبة الضُّفْدَع العجوز. كنت أترك مكانى المريح تحت الصخرة السوداء الملساء فى الصباح الباكر مع أول لمحة نور. أسبح عَبْرَ حوض السباحة، وأغطس تحت مياه الشلال المتساقطة، ثم أتسلَّق إلى جزء بارز فى زاوية صخرة. أزحف بعدئذٍ تحت فجوة صغيرة، وأسند نفسى إلى ركنٍ قَصِىٍّ وراء الشلَّال على شمال المكان الذى يحتله. كان كلانا يشعر بالراحة والرضا، ونحن نجلس جنبًا إلى جنب، ننظر من خلال غُلاَلَةِ المياه ورذاذٌ خفيفٌ يمدُّنا بانتعاشٍ دائم.

كان فى بعض الأحيان يحلو له الحديث باستطرادٍ وبلا توقُّف. يسرد علىَّ الأقاصيص الواحدة تِلْوَ الأخرى حتى أشعر بالضياع بين تدفُّق كلماته. وفى أوقاتٍ أُخرَى كان يلتزم بصمت مُطْبق. يكاد لا يشعر بجلوسى إلى جواره. ومع أننى

Twitter: @alqareah

كنت أتنحنح أحيانًا وأسلِّك حلقى بإطلاق نقيقٍ مرتعشٍ أو أنطق بأيَّة كلمة تخطر على بالى، مثل: "إنه يوم جميل" أو "انظر لهذه الجرادة الكبيرة" لألفت انتباهه، إلا أنه كان لا يهتز ولا يَجْفُلُ ولا يُبْدِى أىَّ اهتمام بأىِّ شىءٍ آخرَ فى داخل الحوض. وهذا لم يكن يزعجنى البَتَّةَ. كنت أشعر بأننى أتعلم شيئًا من قربى منه، حتى ولو أمْضَى اليوم بطوله صامتًا.

كثيرًا ما كنت أحدِّق مُسْترِقًا النظر إلى اللون والشكل النادر لجلده. كان هناك نتوءات وكُتَل تكوَّنت بشكلٍ شاذٍّ على ظهره، تبدو كما لو أنها قِطَعٌ من الصخر الصلب تبرز تحت لحمه طُلِيَتْ بعد ذلك بلُطَخٍ من اللون الأسود. فى بعض الأحيان، وبينما كنت أجلس صامتًا إلى جِوَارِه كنتُ أحاول أن أعدَّ البروز المُتغضِّن لأستكشف إن كان قد ظهر المزيد منه. وفى إحدى المرات ضبطنى وأنا أحدِّق فسألنى: "ما الذى تحدِّق فيه؟"

حاولتُ أن أتظاهر بأننى لم أسمعه.

بادلنى التحديق وقال: "هل تنظر إلىَّ؟"

هززتُ كَتِفىَّ منكرًا.

– ألا تعلمُ ما الذى تنظر إليه؟

هززتُ كتفىَّ مرَّةً أخرى وسألتُه: "ماذا تعنى؟"

– أجِبْ فقط عن سؤالى. ما الذى تنظر إليه؟

تردَّدتُ. لم أكن أريد أن أذكر أىَّ شىءٍ عن نتوءاته وأجبته فى

Twitter: @alqareah

تَرَدُّدٍ، وقد رسمتُ ابتسامةً على وجهى: "أنظر إلى ضفدع".

– فى الوقت الحالى أنا ضفدع طينى.

– يااااه.. أنا آسف. إذًا فنحن ضفادع طينية. أليس كذلك؟"

أجابنى وقد ظهر على مُحيَّاه لمحةُ استهزاءٍ: "ألا تعلم لأىِّ نوعٍ تنتمى؟

هززتُ رأسى نافيًا وأجبتُ: "أظن أننى لا أعلم. كنت أظن أننى ضفدع وحَسْب. هل أنا ضفدع طينى؟"

ردَّد ورائى: "ضفدع أم ضفدع طينى؟ إنه سؤال بسيط ولكن الرد عليه يتطلَّب الحَذَر والدقة".

سألتُه: "كيف؟"

قال: "ضفدع، ضفدع طينى، كلب، قطة، ثعبان. كلها أسماء يطلقها الناس علينا، فقط، لإدراجنا ضمن تصنيف أو آخر – حتى لو كنا لا ننتمى إليه. فهم يقولون مثلًا: إن الضفادع المائية تحب الماء ولها جِلْدٌ أملسُ، بينما الضفادع الطينية تفضِّل اليابسة ولها جلد يبرز عليه بعض النُّتُوءات. وها نحن أنت وأنا نحب الماء ولدينا نتوءات على الجلد – كما لاحظت. إذًا لأىٍّ نوعٍ يتم تصنيفنا؟" توقَّف لبُرْهَةٍ ثم أكمل: "هل تعلمُ الاختلافَ الحقيقىَّ بين الضفدع المائىِّ والضفدع الطينىِّ؟"

هززتُ رأسى نافيًا وانحنيتُ نحوه تَوَّاقًا لمعرفة المزيد.

– الاختلاف الحقيقى هو فى أسلوب التفكير. يدَّعى بعض

Twitter: @alqareah

الناس أنهم إذا ما قبَّلُوا ضفدعًا مائيًّا سينقلبُ إلى أمير؛ وإذا ما قبَّلُوا ضفدعًا طينيًّا سيظهر لهم ثُؤلُول(*). إنه مجرد اختلاف فى وجهات النظر.

قلت له: "فى هذه الحالة، فأنا أظن أننى أنتمى للنوعيْن. فأنا أحيانًا، حين تكون أيامى مثلَ أيامِ الضفدعِ المائىِّ يتملَّكُنى شعورٌ بالعَظَمة كأننى مَلِك من الملوك. وفى أوقات أخرى، تنتابنى مثل الضفدع الطينىِّ رغبةٌ بالاعتزال والانفراد بالذات. حينئذٍ، أُوْثِر الصمت، ويصبح كل ما أريده مكانًا خاصًّا لا يعترضه شىء ولا يقترب منه أحد".

قال: "أعلم جيدًا ماذا تعنى".

فكرتُ للحظة واستمعتُ إلى التفاهم الصامت الذى كان يدور بيننا وقلت: "ربما... إن هذا ليس مُهِمًّا إن كنت ضفدعًا مائيًّا أو ضفدعًا طينيًّا – أو أى شىء آخر".

– كلَّا إنه مُهِمٌّ جدًّا. عليك أن تعلم أن معظم هؤلاء الناس الذين تراهم فى خارج الحوض يلفُّون حوله وينظرون إلينا ويمضون الوقت فى التحديق فينا، يأتون وبنِيَّتهِم اصطياد ضفدع مائى. فهم لا يهتمون كثيرًا بالضفادع الطينية.

---

* الثُّؤلول : حبَّةٌ مُستَديرةٌ مُشقَّقة فى حجم الحِمَّصة أو دونها ، تظهر على الجلد . ج : ثآليل .

Twitter: @alqareah

قلت معلقًا: "إذًا فأنا بلا ريبَ ضفدعٌ طينيٌّ. فأنا لا أريد أن يختارنى أحد – فقط ليأكلَنى".

"ليأكلك؟ هل هذا ما تظنه؟ لن يأكلك أحد – خاصة، إذا كنت ضفدعًا بقائمتين فقط". قال هذا وهو يمنحنى ابتسامة عريضة ساخرة. وأردف: "هذا محلٌّ لبيع الحيوانات الأليفة وليس سوقًا لبيع الطعام".

– إذًا، ماذا سيفعلون بضفدع؟

– سيأخذونك إلى بيوتهم ويعتنون بك. ستحصلُ على حوض خاصٍّ وطعامٍ من الجرادِ الذى لن يشاركك فى التهامه أحد... لن يكون بجوارك أىُّ صِنْفٍ من الثعابين أو الطيور ولا حتى ضفادع أخرى لتسرق طعامك.

– حَوْضِى الخاصُّ. يا لها من فكرةٍ مثيرةٍ للاهتمام!

سألتُه: "هل تأمل أن يقع عليك الاختيار؟"

– معظم الحيوانات فى هذه الغرفة يتمنَّوْنَ ذلك. البعض منهم يُفْرِطُ فى إظهار لهفته إلى أبعدِ حَدٍّ على أمل أن يتم اختياره. لا يمكنك أن تعرف أبدًا قَدْرَ الإثارة التى يمكن أن تظهر على حيوانٍ أليفٍ إذا ما اكتفيتَ بمراقبة الضفادع فقط. إن أردتَ أن تفهم ما أعنى، ما عليك سوى أن تنظر إلى تلك الجِراء. ألْقِ عليها نظرةً من هنا، تَرَهَا تنبحُ وتَثِبُ طَوالَ الوقت.

Twitter: @alqareah

– نعم.

– كما أنها تتملَّق الناسَ بطريقةٍ مُهِينَةٍ. تستلقي على ظهورها راجيةً أن تُفرك بطونها في كل مرة يمر بجوارها شخص ما. وفي الدقيقة التالية تراها تتقافز على جوانب القفص ناشبةً مخالبها لِلَفْتِ الانتباه. أو تتمدَّد وهي تهزُّ أذيالها. هذا الترحيب المُبالَغ فيه يبدأ من جديدٍ مع مرور شخصٍ آخرَ يظهر بالقرب منها.

– هل يعني هذا بأن عليَّ أن...؟

ضحك الضفدع العجوز وقال: "لا، طبعًا لا. فالحيوانات الأخرى مثلنا، نحنُ الضَّفادعَ، تُبْدِي تَحفُّظًا أكبَر، فالضفدع لا يقفز أبدًا على صاحبه أو على أي إنسان آخر. هل تعلمُ ما الذي سيحدث إذا ما قفزتَ على شخصٍ ما مثلما يفعل الكلبُ؟... سيُلْقِيك أرضًا مصحوبًا بنظرةٍ اشمئزازٍ وتعبيرٍ غاضبٍ. فالضفدع له طبيعةٌ خاصَّةٌ بالضفادع والكلب له طبيعة خاصة بالكلاب ويجب ألَّا نخلطَ بين الاثنتين".

قلتُ له: "شكرًا للنصيحة، من غير أن أفهم تمامًا لمَ جئنا على سيرة الكلاب"، وأكملتُ: "ولكنك لم تُجِبْ عن سؤالي. هل تريد أن يأخذك واحدٌ من هؤلاء الناس إلى بيته؟"

أجاب الضفدع العجوز: "لا أُريدُ أن يعتني بي أيٌّ منهم. فحين تعيشُ في الخارج تتغيَّرُ وجهة نظرك للحياة". ثم

Twitter: @alqareah

التفتْ إليَّ وأردف: "ومع هذا إذا توافرت لي الفرصةُ للاعتناءِ بشخصٍ ما، فهذا سيكون رائعًا".

سألتُه وأنا أشعرُ بدهشةٍ كبيرةٍ: "هل تعني بواحدٍ من هؤلاء الناس؟"

نظر إليَّ وهزَّ رأسه موافقًا.

سألتُه: "كيف يمكن لضفدعٍ أن يعتنيَ بهذه العيون البارزة الناتئة والأجسام الثقيلة الضخمة التي تضغط بأنوفها على الزجاج وتخبط وتنقر؟ كيف يمكن لك الاهتمامُ بواحدٍ منهم؟"

قال: "لا أعلم، ولكن حين أنظر من خلال الزجاج إلى عالَمهم، أرى أنهم يبحثون عن شيءٍ أكثرَ، أكثر مما لديهم. يأتون إلى هنا لاقتناءِ قِطَطٍ وكلابٍ وفئرانٍ وسحالٍ وضفادع. أنا لستُ واثقًا، ولكنِّي أحيانًا أتساءل قد يكونون بحاجة إلى كائنٍ يهتمُّ بهم لا العكس. بحاجة لشخصٍ أو شيءٍ ليعتنيَ ويهتمَّ بهم".

قلتُ له وأنا أنظر إلى أسفل، إلى قدمي الناقصة: "لا أستطيعُ تَخيُّل هذا. فأنا لا أستطيع حتى الاعتناءَ بنفسي".

أجاب: "ربما ستفهم ما أقول في الوقت المناسب". ترددَّتُ قليلًا وأجبتُ: "هل تظن، هل تظن أن شخصًا ما سيهتمُّ يومًا بضفدع ليس لديه سوى قدمينْ؟"

Twitter: @alqareah

قال: "همممم... لستُ متأكدًا. لو كنتَ كلبًا بقائمتين فربما سبَّب لك هذا مشكلة. ولكن وبما أنك لست سوى ضفدعٍ... آسف... فأنا فقط أسخرُ من نفسي. أنت، على الأرجح، لا ترى في هذا القول ما يُضْحِك كثيرًا. من وجهة نظري تعبير «ربما» أفضل ما يمكن أن أضمنه. ومع هذا، فهناك **بالفعل** كلابٌ بقائمتين فقط. لقد شاهدت مرَّةً واحدًا منها. كان يستعيضُ عن قائمتيْه الخلفيتيْن بحذاءٍ للتزحلق. بالنسبة لحالتك، لن تستطيعَ الاستعانةَ بالحذاء لأنه سيمنعك من القفز".

وجأر صاحب النقيق بضحكةٍ مُجَلْجلَةٍ انطلقتْ من القلب.

– أنا سعيدٌ لأنك تراني مضحكًا بهذا القدر.

– أووه. أنت على الرُّحْبِ والسَّعَةِ. عليك أن تكتشف أننا إن لم نضحك على حالنا سنبكي.

شاركتُه بضَحِكةٍ مُقْتضَبةٍ، من باب الأدب، لا المشاركة في الدُّعابةِ والسخريةِ وقلت: "ولكنَّ هذا لا يجيب عن تساؤلي".

قال الضفدع العجوز: "في الحقيقة، ليس لديَّ أيُّ جوابٍ، فالناسُ تتَّخذ قراراتٍ عديدةً لم أتمكن يومًا من فهمها. كان يقيم هنا في هذا الحوض ضفدعٌ أبيضُ اللونِ بعينيْن حمراويْن وجسمٍ هزيلٍ، وعظامٍ ناتئةٍ. كنا جميعًا نكاد لا نتحمل النظر إليه، ولكن تم اختياره من دوننا جميعًا في أقلَّ من أسبوعٍ".

Twitter: @alqareah

قلتُ: "آمُلُ أن أبقى فى هذا الحوض، أجلسُ بالقرب منك وأنظرُ من خلال الشلّال وأراقبُ المشهد المُسلِّى فى الجانب الآخر من الزجاج".

قال: "الأمل؟"، أمسك العجوز بهذه الكلمة مُحوِّلًا الحوارَ كما يبدِّل الطائرُ اتِّجاهَ طيرانه مع هبوبِ الرِّيحِ. وأردف: "خُذْ حِذْرَك مِمَّا تأمل فيه".

– لماذا؟

– لأنك إذا ما أمَلْتَ بشدَّة، خاصَّةً فى أشياءَ لا يمكن تحقيقُها، يمكن أن يصبحَ شعورُك هذا خطيرًا.

– خطيرٌ؟ أنا لا أكفُّ عن الأمل طَوالَ الوقت. آمل أن ألتقطَ أكبرَ الجراداتِ. آملُ أن يكونَ لى قَدَمانِ أُخْرَيانِ. آمل ...

– لا تخلِطْ بين الأمل والتمنِّى. أن تأمل غير أن تتمنَّى. هل سمعتَ قصةَ الجِنِّىِّ الذى انطلق خارجًا من الزجاجة ومنحَ ثلاثَ أُمنياتٍ؟

قلتُ: "لا".

– سُجن جِنِّىٌّ فى زجاجةٍ "لأعمال شرِّيرة" كان قد قام بها ثُم تَمَّ رَمْىُ الزجاجةِ فى المحيط. ظلتِ الزُّجاجةُ طافيةً دونما هدفٍ طوالَ ألفٍ وثمانمائةِ عامٍ. وفى أحد الأيام ألقى أحدُ الصيادين شَبَكته فى البحر ووجد فى قاعِ الشَّبكةِ زجاجةً غريبةَ الشَّكلِ. رفع غطاءها القديم فانبعثَ منها جِنِّىٌّ محاطٌ

Twitter: @alqareah

بالأثير. كان الجنيُّ سعيدًا جدًّا لتَحرُّرِه، وكافأ الصيادَ بأن منحه ثلاثَ أمنياتِ. فالجنيُّ لا يمكنُه ولا يستطيعُ أن يمنحَ ثلاثةَ آمالِ.

التفت الضفدع العجوز إليَّ وقال: "هل فهمتَ مغزى القصة؟ الأملُ هو قرار نتَّخذُه بأنفسنا. لا يمكن لأحدِ أن يمنحه لنا. فأنتَ، في الحقيقةِ، ضفدع له قدمانِ فقط. ويجب ألَّا تأمل أن يصبحَ لك أربعُ أقدام فهذا بكل بساطة لن يحدث أبدًا".

– وماذا إذا ما ظَلَلْتُ آملُ على أيَّة حالِ؟

– إذا لم تحصلْ أبدًا على ما تتمنَّى فهو، في الواقع، أمرٌ غير مُهِمٌّ . تمَنَّ قَدْرَ ما تريد أن يكون لديك أربعُ أقدام؛ فهذه الأمنية لن تغيِّرَ من واقع الأمر شيئًا. فالأمنياتُ ما هي إلَّا أفكارٌ غيرُ عقلانيَّةِ لطلب المستحيل، مثل رَمْي القطَع النقديَّةَ الصغيرةَ في النافورة أو طلبِ أمنيةِ من نجمةِ في السماء. من ناحية أخرى، إذا لم تحظَ بما تأمل فيه، فهذا سيؤثر على اختياراتك القادمة في الحياة، ومن الممكن أن يبدِّل من سيرةِ حياتك. فإذا أمضيتَ زمنًا طويلًا وأنت تأمل بلا نتيجةِ، فقد ينتهي بك الأمرُ إلى أن تُصاب بالإحباطِ واليأسِ من غير أن تحصلَ على أيِّ شيءِ.

"إذًا..."، تَمْتَمتُ وقد تشوَّش ذهني وأربكني معظمُ كلامه، "بماذا يمكنني أن آمُلَ؟".

Twitter: @alqareah

– يمكنك أن تأمل فى أمورٍ من الممكن أن تُحقِّقَها من خلالِ جَهْدِك وسَعْيِك. فهناك الكثيرُ الذى يمكنُك عملُه لتحقيق أملك فى الإمساك بأكبر جرادةٍ: راقبِ المكانَ الذى يتمُّ وضع الجرادِ فيه، لاحظ استراتيچيات الضفادع الأخرى، ثُمَّ حَدِّدْ لنفسك الموقعَ الصحيحَ. ولكن – كما ترى – ليس بإمكانك سوى أن تتمنَّى أن تكون ضفدعًا ذا أربع أقدام سليمةٍ.

– أريد أن يتحققَ أملى ولو للحظة، أريد أنَ....

قاطَعنِى قائلًا: "أَصْغِ إليَّ . تَمَنَّ أَن تكونَ لك أربعُ أقدام قَدْرَ ما تشاءُ، ولكن لا تأملْ فى إمكانيَّةِ تحقيق هذه الأمنيةِ. ارتسمتْ على وجهه ابتسامةٌ غريبةٌ. جلسنا، بعدئذٍ، نفكِّرُ فى صمتٍ".

Twitter: @alqareah

6

كان الصوتُ الوحيدُ هو صوتُ تساقط قطرات المياه المترقرقة تنساب من الشلّال وتتقافز فوق سطح الماء فى الحوض. كانتِ الأضواءُ خافتةً، فاليوم إجازة والمحل يقفل أبوابه. وهكذا تَرَكَنا المسئولون بعد أن زَوَّدونا بمئونةٍ كافيةٍ من الجرادِ.

وبدلًا من أن نتلذَّذ بأكلها على مَهَلٍ ونستسيغ مذاقها ونكهتها، قمنا بالتهام هذه الحشراتِ القافزةِ بأسرعِ ما يمكننا. وأصبحنا الآن ممتلئين ومُتْخَمين.

لم يَعُدْ هناك أىُّ داعٍ لأن نطوفَ فى المكان بحثًا عن فريسة؛ ولذا أمضينا بقية اليوم فى هدوءٍ طلبًا للراحة. أحيانًا، كان ينطلق من أحد الضفادع النائمة نقيقٌ خافتٌ فيصحو من حُلْمه.

فى مثل هذا اليوم يبدو الضفدعُ العجوزُ فى منتهى الحيويَّةِ والنشاطِ. كان يترك موقعه المعتاد تحت الشلال

Twitter: @alqareah

ويزحف حول الحوض، كما لو أنه يتفحَّصُ كُلَّ رُكْنٍ أو زاويةٍ أو شِقٍّ. ثم يقوم بزياراتٍ متتاليةٍ مُقْتضَبةٍ يمرُّ فيها على كل ضفدع من الضفادع. وفى إحدى تلك الزيارات، حدَّثنى كيف وصل إلى هذا الحوض. لم ألحظ اقترابه منِّى إلى أن بَادرَنى بالحديث قائلًا:

– هل تستمتعُ بالسكونِ والهدوءِ؟ هذا لا يحصُل كثيرًا.. أن يمضىَ اليومُ كله بمثل هذا الهدوء.

أخفض رأسه وتحضَّر للذَّهابِ لاستكمال جولته.

قلت له: "انتظرْ. أشعر بالفُضُول أريد معرفة شيءٍ ما".

استدار نحوى وقال: "نعم؟"

– لماذا لا تَخْلُدُ للراحة أو للنوم مثلنا جميعًا؟ لم يعدْ هناك أىُّ جرادٍ لتبحث عنه.

– نعم. أعلم هذا. لقد أكلتم حتى أصبتم بالتُّخَمةِ كما لو أن هذا الجرادَ هو آخر ما فى الوجود ولن تحصلوا على غيره أبدًا. أما عن جولتى هذه فهى عادةٌ، هذا كلُّ ما فى الأمر. فحين تعيش فى الخارج تعتاد على التَّجوُّلِ حين يعمُّ السكون والهدوء، خاصةً، حينما يحين وقت الهجرة.

رَدَّدتُ من ورائه: "الهجرةُ؟ ماذا تعنى؟"

– إنها التحرُّك والانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ آخر. انتقالٌ دَوْرىٌّ للبحث عن مَأْوًى ومسكنٍ جديدٍ. يقوم بهذه الهجرات الجماعية العديدُ من الحيوانات بما فيهم الضفادع.

Twitter: @alqareah

– لماذا تهجرون بيوتكم؟

– لأن البيوت تتغيَّر، فهى تصبح إمَّا شديدةَ الحرارةِ أو شديدةَ البرودةِ، إما شديدةَ الرُّطُوبةِ أو شديدةَ الجفافِ، وربما أصابها الضررٌ بعد هبوبِ عاصفةٍ، أو غزاها مفترسون جُدُد. نحن لسنا بحاجةٍ للهجرة من هذا المكان، ولكن فى الخارج الوضعُ مختلفٌ. فالبِرَكُ الضَّحْلةُ عادةً ما تجفُّ فى الصيف وتُجبر الضفادعَ على الانتقالِ إلى مياهٍ أكثرَ عمقًا. أحيانًا تكون هذه الأماكنُ قريبةً من بعضها البعض، ولكن فى أوقاتٍ أخرى تكون بعيدةً جدًّا وتتطلَّب أيامًا من القفز والوَثْب. حين تكون ضفدعًا بريًّا تصبح الهجرة جزءًا من حياتك، مثلك مثل الكثير من الحيوانات والحشرات التى تعيش فى الطبيعة.

ثم أخذ يقصُّ علىَّ مغامراتهِ الكبيرةَ حين كان يتحرك بين البِرَك يقفز مرةً بعد الأخرى على التوالى وبأكثرَ ما أوتىَ من قوةٍ. قفزاتٍ طويلةً وسريعةً باحثًا عن مَأوًى جديدٍ ومنزلٍ آخر.

حدَّثنى عن مغامراته التى خاضها وعن قصصٍ أكثرَ إثارةً بكثيرٍ مما يمكننى تخيُّله. قلتُ له: "هذا يبدو شيئًا خُرافيًّا، لا يُصدَّق".

– كان خرافيًّا بالفعل – إلى أن تم إنشاءُ طريقٍ بعرض أربعةِ خطوطٍ بين البِرْكَة التى نشأتُ وتربيتُ فيها والبركة التى كنتُ أستريحُ عندها. كان علينا جميعًا أن نُنَاوِرَ لنشقَّ

Twitter: @alqareah

طريقنا بين السيارات السريعة، فعادةً لا يهتم السائقُ أبدًا بأىِّ شىءٍ يمر تحت الواجهةِ الزجاجيَّةِ للسيارةِ. لم ينجح الكثيرُ من الضفادع فى الانتقالِ عَبْرَ الطريقِ.

– هل تعنى بأنهم....

– سُحقوا. نعم. أتذكَّر الآن آخر هجرةٍ لى وأنا أتوجَّه نحو البركة التى كنت أنتقل إليها عادةً فى الربيع. بدأتُ المسيرة فى الصباح الباكر قبل أن يزدحم الطريق. نظرتُ إلى كلا الجانبين ثم بدأتُ فى القفز، وفجأةً رأيتُ سيارةً مسرعةً تتجهُ نحوى، لم يكن لدىَّ الوقتُ اللازمُ للابتعاد عن الطريق. كل ما كان بإمكانى فِعْلُه هو أن أجد لنفسى مكانًا فى المنتصف، وأن أرجو أن تمرَّ عجلاتُ السيارةِ على جانبىَّ وبعيدًا عنِّى.

وبدلًا من أن تستمر السيارةُ منطلقةً فى السير خفَّفت من سرعتها ثم توقَّفتْ. نزلتْ منها فتاة شابة وانحنتْ إلى أسفل ورأتنى. مدتْ يديها وحَملتْنى بينهما. وهمستْ لى بأننى لطيف وسألتنى إن كنتُ أرغبُ بالذَّهاب معها.

– وهل ذهبتَ ؟

– لم تترك لى فرصةً للاختيار. وضَعتْنِى فى حاويةٍ بلاستيكيَّةٍ وأقفلَتْها وأخبرتْنِى بأننى سأصبح ضُفدعَها الأليفَ الجديدَ، ثم عادتْ إلى السيارة وانطلقنا فى طريقنا إلى منزلها. أقمتُ فى غرفتها فى حوضٍ جميلٍ يحتلُّ مكانًا على

Twitter: @alqareah

رَفٍّ تحت النافذة. كان المنظر جميلًا. كانت النافذة تطلُّ على مَرْجٍ أخضرَ مُورقٍ وعددٍ من أشجار "القَيْقَب". كان المكان ظريفًا، ولكنَّ الحياةَ هناك كانت مختلفةً كثيرًا عمَّا كانت عليه فى الغابة.

سألتُه: "هل أحببتَ الإقامة معها؟ وهل تأقلمتَ مع وضعك الجديد كضُفدعٍ أليفٍ؟"

أغمض عينيه كما لو أنه يفكر بعمق أو كأنه على وشك الإغفاء.

كنتُ مُصِرًّا لأعرفَ المزيدَ فسألتُه: "هل تفتقدُ الحياةَ كضفدعٍ بريٍّ يعيش فى الطبيعة؟"

قال: "لا يمكن الإجابة عن مثل هذه التساؤلات ببساطة، «بنعم» أو «بلا». لا أملك الكلمات المعبِّرة لوصف هذه التجربة. ربما ستكتشفُ هذا بنفسك فى يومٍ من الأيام".

كان الأمر يبدو لى غريبًا، بشكلٍ ما، فها هو ذا قد تَمَّ انتزاعُه من العالم الخارجىِّ، من الحياةِ البريَّةِ حيثُ كان يعيشُ بالقرب من بحيرةٍ فى الطبيعة، ثم فُرض عليه العيشُ فى حوضٍ زُجاجىٍّ، ومع ذلك لا يستطيع أن يجزم ويقول: «نعم» لقد أحببتُ أو «لا» لم أحبَّ أن أكون بَرِّيًّا.

قلتُ متردِّدًا بعض الشىء: "أود أن أعرف شيئًا آخر".

قال: "نعم".

Twitter: @alqareah

أَخذتُ نفسًا عميقًا ثم سأَلتُه عن أمرٍ كنت أَودُّ معرفَته منذ مُدَّةٍ طويلةٍ: "ما الذى جاء بك لتقيم هنا فى مَحلٍّ للحيوانات الأَليفة؟".

– بعد أن أمضتِ الفتاةُ سنتيْن من عُمْرِها وهى تعتنى وتهتمُّ بى، افترق والداها عن بعضهما البعض وعاش كلُّ واحدٍ منهما بمفرده. هاجرا على ما أظن. وهنا قررَّتِ الفتاةُ أن تتخلَّى عنِّى. انتقلتُ بعدها إلى عِدَّةِ محلاتٍ مختلفةٍ لبيع الحيوانات الأَليفة، إلى أن وصلتُ أخيرًا إلى هنا. هذا كل ما فى الأَمر. ليس هناك الكثير من المفاجآت المثيرة فى حياتى كما ترى.

– أنا لا أُوافقُك الرأْىَ! لقد مررتَ بالكثير من المغامرات المثيرة! أُريد أن أسمعَ المزيدَ عنها: المزيد عن حياتك بالقرب من البِرْكةِ، المزيد عن حياتك كضُفدعٍ أَليفٍ، المزيد عن قصَّتِك مع هذه الفتاةِ وعن تَنقُّلك بين أحواضٍ عِدَّةٍ...

كنت أتكلم بسرعةٍ وقد بدتِ الإثارةُ واضحةً فى صوتى. كنتُ أُريدُ سماعَ حكاياته كلها بأَسرعَ ما يمكن.

قاطعنى قائلًا: "لا أسمِّى ما مررتُ به من حوادثَ وتجاربَ مغامرةً. فى الواقع، فى أَحيانٍ كثيرةٍ كان هذا مُرْعبًا حقًّا. إن كان هناك أَيَّةُ مغامرةٍ فى الحياة، فهى حين تعيدُ سردَ الأَحداث. يمكنك حينئذٍ أن تضيف أو تُلغى بعض الأَشياء لتحكىَ قصتَك

Twitter: @alqareah

كما تريدُ لها أن تبدو. ولكن حين تعيش التجربةَ، فأنت تتمنَّى أحيانًا لو كنت فى مكانٍ آخرَ بعيدًا عنها".

قلتُ وأنا أهزُّ رأسى موافقًا لأشجِّعه على مُواصلَة الكلام، رغم أننى فى الحقيقة لم أفهم الكثير مما قال: "بالطبع، أنا أفهمُ ما تقولُ".

أحيانًا، كان يتهيَّأ لى أن أفكارَه قادمةٌ من عالمٍ يختلف تمامًا عن حياتى التى تتركز فى الاختباءِ تحت الصخور وأَكْلِ الجرادِ والقلقِ على قدميْن ناقصتيْن، ولكنِّى مع ذلك كنت أصرُّ على الاستماع. كنتُ منجذبًا إلى الإيقاع المتناغم المُبْهَم والملىء بالألغاز لكلماته.

Twitter: @alqareah

7

اقتربتْ من الحوض فتاةٌ صغيرةٌ، وبينما كانت تنحنى إلى أسفله رأيتُ انعكاس الشلَّال داخلَ عُمْقِ زُرْقةِ عينيْها اللتيْن تبحثانِ عن شىء ما. أسندَتْ يديْها فوق رُكْبتَيْها وأخذتْ تُجَرْجِرُ قدميها، وهى تلفُّ حول الحوض وتنظر إلى داخله من جميع الجهات. بدأ الضفادع الآخرون فى الوَثْبِ، مستعرضينَ المَدَى الذى يمكنهم القفز إليه وخِفَّة حركاتهم ورشاقتها. ابتسمتْ وهى تطرفُ لهم بعينيها. كان وجهها صغيرًا وناعمًا، وبدا أن حماسَها للحصول على ضفدع لا نهايةَ له.

قالت: "بابا، أريد أن أقتنىَ ضفدعًا لطيفًا".

تقدَّم نحو الحوض رجلٌ يسير وراءها، ووضع يدَه بلُطفٍ على كتفها وقال لها: "اختارى أىَّ واحدٍ تريدينه".

دفعتْ شعرها وراءَ أذُنيْها بإصبعٍ من كُلِّ يدٍ من يديها

Twitter: @alqareah

واستقرتْ خَصائِلُ شعرها الأشقر الغامق على كتفيْها. استمرتْ فى الدوران حول الحوض وفى التحديق من خلال الزجاج. ثم تفحَّصتْ ببطءٍ وبحرصٍ شديدٍ الصُّخورَ والنباتاتِ، وبِرْكَةَ الماءِ والشاطئَ الرَّمْلىَّ. نظرتْ نحو شلال الماء وتوقفتْ. كانت عيناها تبرُقان بحدَّةٍ، وهى تحاول أن ترى من خلال الستارة المائيَّة لتلمح ما وراءها.

كنتُ جالسًا بالقرب من الضفدع العجوز تحت الشلال. نظر إليها باهتمامٍ شديدٍ وهو يحرِّك رأسه إلى أعلى وإلى أسفلَ، ثم إلى اليمين والشمال. تبادلا النظرات وطرفا بأعينهما فى نفس اللحظة. نظر نحوى وبدون تَرَدُّدٍ قال: "إنها مناسبة جدًّا لك. ازحف خارجًا من مَخْبِئك وأَظْهِرْ نفسك".

سألتُه: "ماذا تقول ؟ لماذا تقول هذا؟"

قال: "لأنى أرى أنها مختلفةٌ عن معظم الأولاد الآخرين".

– كيف يمكنك أن تعرف؟ فهى هنا منذُ بضعِ دقائقَ فقط.

– لقد راقبتُ الناسَ من خلال الزجاج لزمنٍ طويلٍ، أطولَ ممَّا أتيح إليك. وهذه فرصةٌ لن تُعوَّض. من الواضح أنها ليستْ مِنَ المزعجين الذين ينقرون على الزجاج، فأنت بالطبع لا ترغبُ أن يختارك واحدٌ منهم – أليسَ كذلك؟

– أنا سعيدٌ وراضٍ بما أنا عليه الآن. أودُّ البقاءَ فى هذا الحوض والجلوسَ بقُرْبك نتبادلُ الحديثَ عمَّا يحدث خارج هذا الزجاج.

Twitter: @alqareah

أجلتُ نظرى ما بين الضفدع العجوز ووجه الفتاة الصغيرة. كان وجهها يشعُّ ويضىء من انعكاس نور رذاذ مياه الشلال عليه. قلتُ له : "لا أريد الذهاب معها".

نظر إلىَّ صامتًا بعينين قاتمتين، ثم بدا الغضب واضحًا على وجهه وقال: "كما ترى، أحيانًا، حين يتحتَّمُ علينا أن نتَّخذَ اختيارًا صعبًا نحتاجُ لشخصٍ آخرَ ليتخذَه لنا". وبسرعة انقلب مُهتزًّا ثم التف حول نفسه، ووجَّه إلى ظهرى بقدمهِ الخلفيَّةِ رفسةً قويَّةً مفاجئةً.

ارتميتُ بقوةٍ فى الماء بدءًا برأسى وغطستُ فى حوض السباحة محدثًا صوت «طش» عند ارتطام جسمى بالماء. صارعتُ لأتسلَّق ورقة زَنْبق الماء، ثم تمدَّدتُ وبصقتُ القليل من الماء من فمى مثل نافورة صغيرةٍ. التفتُّ ورائى نحو الضفدع العجوز الذى كان يجلس مبتسمًا ابتسامةً عريضةً، وأنا أحاولُ استردادَ أنفاسى .قالتِ الفتاةُ: "ياااااه... أنت ضفدع صغير ومضحك".

دهشتُ لدى سماعى لنغمة صوتها. كانت دافئة ومُرحِّبة، مثل أصوات رقرقة مياه الشلال ولكن أقل منه رتابةً. نغمة مُحمَّلة بالإمكانات الكبيرة. أردتُ الذوبان فى عينيها.

وفجأةً، شعرت بوعى كبير بذاتى، وأدركتُ تمامًا أننى أطفو على سطح الماء فوق ورقة زَنْبقِ الماء، محاطًا بالزجاج. ينظر

Twitter: @alqareah

إلىّ شخصٌ من العالِم الخارجىٍّ. أخفيتُ قدمىَّ غير المكتملتين تحت جسمى. وحبستُ أنفاسى، وتجرَّعتُ قليلًا من الهواء، ونفختُ نفسى.

فى تلك اللحظة، فى هذه المسافة من الزمن، التى تمضى متباطئةً والتى تُقاس بقلبى وأفكارى، أدركتُ أن هذه الفرصةَ، هذه المصادفةَ ستتلاشى حين تبتعد قَدَما الفتاة عن جوانب الحوض. بالنسبة لها، هذا الاختيار لن يكون له أىُّ أثرٍ فى حياتها .أما بالنسبة لى، فاختيارها هذا سيحدِّد مستقبلى.

فكرتُ للحظةٍ أطولَ ثم نفختُ نفسى أكثَر وأكثرَ، محاولًا أن أبدوَ قَدْرَ المستطاعِ كبيرًا ونبيلًا وأنا أطفو مستعرضًا شكلى فوق ورقة الزنبق. اختارينى، اختارينى. سأعرضُ عليك مواهبى وأبهرك بقدراتى على اصطياد الجرادِ، وعلى سرعةِ القفزِ واللَّفِّ والانقلابِ والهبوطِ، وسأثبتُ لكِ أننى أتقنُ السباحةَ رأسًا على عقبٍ فى الماء. سأكون أفضلَ حيوانٍ أليفٍ يمكنُكِ الحصولُ عليه. وفيما أنا أفكر بكل هذا، انزلقتُ من فوق ورقة زنبق الماء ووقعتُ فى الماء ناثرًا المياه حولى فى منظرٍ مُحْرِجٍ جدًّا.

قالتِ الفتاةُ: "بابا، أريد هذا الضفدعَ الذى تراه هناك، والذى تتناثر المياه من حوله. إنه مضحك ومُسَلٍّ". بدأ قلبى فى الخفقان بسرعة. وأكملَتْ: "ربما أنه صغير الحجم، ولكنَّه جذَّابٌ وخَجُولٌ بعض الشىء، مثلى".

Twitter: @alqareah

انحنى الوالد إلى جانبها. كان وجهه نحيلًا وأملسَ بأنفٍ دقيقٍ وعيونٍ لامعةٍ. مال برأسه إلى الجنب وأمدَّنى بابتسامةٍ بلهاءَ، وهو يقول: "إنه اختيارٌ ممتازٌ يا كارولين. لِمَ لا تعرِّفينَه على نفسك؟ سأعودُ على الفور مع المُوظف المُختَصِّ ليساعدَنا".

ضغطَتْ بجبينها على الزجاج وبدأت تُحدِّثنى كما لو كنتُ صديقًا قديمًا: "أنتَ هديَّتِى لعيد ميلادى الثامن. سيكون لديك حوضُ سمك خاصٌّ بك. أحب أن أسمِّيَه حوضَ سمكٍ، مع أنه لا يوجد به أَىُّ سمك. كان عندى أسماكٌ ذهبيةٌ ولكن أصابها نوعٌ من الطُّفيلياتِ، ومع هذا ما زلتُ أحتفظ بها جميعًا. حينما ماتتْ - وقد ماتتْ جميعُها - كنت أضيف قليلًا من الماء لوعاءٍ بلاستيكىٍّ وأضع فيه السمكة الميتة، ثم أضعها فى المُجمِّد لتُجمَّد. وحين تموت التالية كنتُ أضيف قليلًا من الماء فوق الماء المتجمد وأضع السمكة عليه وأجمدهما معًا فوق بعض. وهكذا جَمَّدتها جميعًا الواحدة فوق الأخرى. والآن ما زلتُ أرى سمكاتى كُلَّها فى أىِّ وقتٍ أريد".

بدا لى هذا مرعبًا! تبدَّل بسرعة اهتمامى الفُجائىُّ وأنا أستعرض نفسى كأفضلِ ضفدعٍ فى الحوض إلى قلقٍ وخوفٍ شديدين ورغبةٍ فى الاختفاء بأعمقِ حفرةٍ. زحفتُ خارج حوض السباحة ودَبَبْتُ ببطءٍ نحو الضفدع العجوز، وقلت له راجيًا

Twitter: @alqareah

فى صوتٍ مرتعشٍ: "خَبِّئنِى... خبِّئنِى. لا أُريد الذَّهابَ معها".

قال لى: "استمع إلىَّ. يجب أن تذهبَ معها. ستعتنى بك كثيرًا، فلن تستطيع تمضيةَ بقية عمرك فى هذا الحوض. بالإضافة إلى ذلك، هل تعلم ماذا يفعلون بالضفادع التى لا يتم اختيارُها؟"

هَزَزْتُ رأسى نافيًا. نظر الضفدع العجوز نحو جارِنا، وهزَّ رأسه إلى أعلى ثم إلى أسفل وقال: "هل فهمتَ؟ سيرمون بك مباشرةً إلى السيد الثعبان".

ابتلعتُ ريقى بصعوبةٍ. اقترب الرجلُ العِمْلاقُ مبتسمًا ومُلوِّحًا بشَبكتِه كما لو أنه حيوانٌ مفترسٌ على وشك أن ينقضَّ على فريسته.

قال والد الفتاة: "أشيرِى يا كارولين لهذا السيد إلى الضفدع الذى ترغبينَ فيه".

أشارتْ له نحوى. انحنيتُ إلى أسفلِ المَسْبَح وحاولتُ الاختباءَ خلف صخرةٍ بعيدًا على قدر المستطاع. غطستِ الشبكةُ فى الحوض وبدأَتْ تلفُّ وتدور أمام وجهى. لن أستسلمَ بسهولةٍ وعن طِيبِ خاطرٍ. وفجأةً قفز ضفدع آخر فى بركة الماء. انقضَّتِ الشبكةُ بعيدًا عنِّى وانْتَشلَتْهُ بدلًا منى، ولكننى لم أشعر بالارتياح - بل على العكس - كنت حزينًا جدًّا. أدركتُ الآن، وبعد أن فوَّتُّ الفرصةَ مدى خَسارتى. لقد كانت تريدنى

Twitter: @alqareah

أنـا وليس الضفدع الآخر. شعرتُ بـألمٍ لم يسبق لى أن مررتُ بمثلـه... شعور من يكون مرغوبًا بشدة ثم يُترك خطأً ويُنسى.

لم يعترض أحد. وضـع الرجل الضخم الضفدع الآخر فى كيس بلاستيكىٍّ ونـاوله إليها ثم سار مبتعدًا. أشار والدُ كارولين لابنته أن تَتْبَعهُ؛ ولكنَّها لم تتزحزح من مكانها. كانت تعلم بـاللَّبْس الذى حدث. نظرتُ إلى الضفدع العجوز. كان وجهه يعبِّر عن تصميمه، وقَدمُه تتـأرجح وهى على أهْبةِ الاستعداد لرفسى رفسةً أخرى مُشجِّعة؛ ولكنها لم تَعُدْ ضرورية. وهكذا زحفتُ خارجًا من المكان الذى كنتُ أختبئ داخله.

نظرتْ إلىَّ، وهزتْ رأسها، ثم وقفت، وقالت بصوتٍ مُتردِّدٍ ولكنه يوحى بالثقة: "أرجو المعذرةَ يا سيد، ولكن ذلك ليس الضفدع الصحيح، فأنا أريدُ هذا". كانتْ تقفُ منتصبةً فاردةً طولَها تمد يدها وتشير بإصبعها باتجاهى مباشرةً.

التفت الرجلان إلى الوراء.

قال الرجل العملاق: "أعتذر عن الخطأ". ثم أعاد الضفدع الآخر إلى الحوض وغطَّس شبكته أمامى.

التفتُّ نحو الضفدع العجوز. غمز بعينه وقال: "هذا أفضلُ شىءٍ بالنسبة إليك".

سألتُه بصوتٍ مرتجف: "ربما. ولكن ماذا بالنسبة لك!".

– هذا أفضل لى أيضًا. فأنا ضفدع عجوز. لا أصْلُح أن

Twitter: @alqareah

أكون حيوانًا أليفًا لأولادٍ صغارٍ، فأنا مازلتُ بَرِّيًّا. أنا بحاجةٍ لشيءٍ مختلفٍ.

طَفَرتْ دمعةٌ من عينى، وقلتُ له: "أتمنَّى أن تنالَ أفضلَ ما فى الوجود". ثم وثبتُ داخلَ الشبكةِ. تم رفْعِى إلى أعلى، إلى خارج الحوض.

Twitter: @alqareah

8

لم يكن بإمكانى تصديقُ ما رأيتُ. لم أتخيَّل أبدًا ماذا يعنى وجودى خارج الحوض، أن أكون فعلًا فى الخارج .استمر الاتساع أكثر وأكثر وإلى ما لا نهاية فى كافة الاتجاهات. فمن فوقى انتشر غطاءٌ من السماء بمَشَاهِد وصور من الزُّرْقة التى لا نهاية لها. زُرْقة يتخلَّلُها تموُّج من سحابٍ أبيضَ يتسلَّل إلى أسفلَ نحو خُضْرةٍ من الأغصان المُورِقَة، ومن حولى، كنتُ محاطًا بالزوايا الحادة لجوانب البنايات والألوان المتعدِّدة للسيارات والشاحنات، ومن تحتى، كانت هناك الطرقات المخططة بالخطوط الصفراء، والتى امتدَّتْ على جانبيها أرصفةٌ يتسكَّع الناس فوقها، وهم يتسامرون ويتحدثون مع بعضهم البعض. منهم مَنْ يسيرون برُفْقةِ كلابهم المربوطةِ

Twitter: @alqareah

بـمِقْـوَدٍ، والـبـعـض الآخـر يـجـرُّون عـربـاتِ أطـفـالـهم الـصـغـار. على البُـعد، كان من الممكن أن أرى العُشْبَ الأخضرَ المُغْرِى والحواجزَ من الشُّجَيْراتِ الخضراءِ. كنت أُريد أن أشاهد كُلَّ شيء. كنت أدير رأسى فى كل اتجاهٍ، محاولًا ألَّا يفوتَنى أىٌّ مشهدٍ. كنت أُريد القفزَ نحو العالم.

قالت كارولين: "اهدأ يا ضفدعى الصغير. فنحن مازلنا فى طريقنا إلى السيارة". وَضَعتِ الكيسَ البلاستيكيَّ الشفَّافَ على كَفِّها، وحملته قريبًا منها وهى تقول: "إنها رحلةٌ قصيرةٌ بالسيارة إلى أن نصلَ إلى منزل والدى".

حَمَلَتْنِى إلى داخل المنزل، ثم صَعدَتِ السلالم إلى الدَّوْرِ العُلْوىِّ نحو غُرْفتها. رَفَعتِ الكيسَ فوق رأسها ودارت بى ببطءٍ فى أنحاء الغرفة. وقالت: "هذا هو منزلُك الجديدُ".

كانت الغرفة واسعة، ومع ذلك كانت تعطى شعورًا بالراحة. عُلقتْ على الجدران عِدَّةُ لوحاتٍ لحيواناتٍ متنوعةٍ إلى جانب لوحة واسعة من نسيج مُطرَّز باللونين: الزهرى والأبيض ولوح لعبة السهام المريشة المصنعة من القماش. فى زاوية الغرفة كان هناك مكتب أبيض وُضعت فوقه بعضُ الأوراقِ وكرةٌ أرضيةٌ. عُلِّقت فوقه أرففٌ امتلأتْ بالكتب وبعُلَبٍ تحتوى على ألعابٍ مُتعدِّدةٍ وعدَّةِ صفوفٍ من الحيوانات المَحْشُوَّة المتنوِّعة

Twitter: @alqareah

الأشكال. على بُعد قفزة كبيرة لضفدع، بعد نهاية السرير، شاهدتُ نافذةً واسعةً عُلِّق تحتها رفٌّ واسعٌ وضع فوقه حوضٌ مائىٌّ جميلٌ.

وضعتِ الفتاةُ الكيس فى داخل الحوض، ثم أمالته بلُطْفٍ وأخرجتنى وهى تقول: "هذا هو الحوض الخاص بك".

انسللتُ إلى الأسفل فى تهيُّبٍ وتطلَّعتُ حولى. زحفت نحو رقعة تترقرق منها فُقَّاعاتُ ماءٍ صافٍ. انزلقت فيها وغمرت نفسى ولم يبق ظاهرًا منى سوى عينين تبحثان بفضول فوق الماء. فى الناحية المقابلة لحوض السباحة هذا، كان بإمكانى رؤيةُ أرضٍ يابسةٍ وعليها القليلُ من النباتات المنثورة. كما كان هناك عدة قطع من الصخور البنية الكبيرة وقطعة ملتوية من الخشب الأملس تطفو فوق سطح الماء مَكْسوَّة بالطحالب.

قالتِ الفتاةُ: "لستَ بحاجةٍ لأن تختبئ. فكل هذا لك". مدت يدها فوق الحوض، وفتحت الستارة المرنة، ورفعت زجاج النافذة إلى أعلى. انتشرت نسمة من الهواء الدافئ المعطر داخل الغرفة، وتسربت من خلال الحاجز العُلْوىِّ للحوضِ.

قالتِ الفتاةُ: "آملُ أن تحبَ العيش هنا. بدأ الظلام ينتشر الآن، ولكن فى الصباح ستستمتع بالنظر إلى البِرْكَة التى تقع على حافة الفناء الخلفى لحديقتنا".

زحفتُ خارج حوض السباحة واتجهتُ نحو صخرةٍ كبيرةٍ

Twitter: @alqareah

وعالية. كان المنظرُ من النافذة مذهلًا. فى تلك اللحظة، أدركتُ كيف أن وجهة نظرى الكلية للعالم لم تكن أعلى من رأس جرادةٍ كبيرةٍ. لم تكن فكرتى عن البركة إلا أنها مجموعة من الأماكن الصالحة للاختباء، ولكنى الآن وأنا أنظر إليها من مكان مرتفع، فبإمكانى أن أتطلَّعَ وأشاهدَ المنظرَ كَكُلّ. أنوارٌ صفراءُ خافتةٌ تنعكسُ من مياه البحيرة، وظلالٌ من الأشجار تشكل أشكالًا ونماذج على سطحها، وعُشْبٌ كثيفٌ يحيط بالحافة بين الماء واليابسة. لم يخطر لى أبدًا أنَّ للبحيرة شكلًا، وأن لها حافَّةً تحيطها، وأن سطحها أملس كالزجاج.

قالتِ الفتاةُ: "وأنا أيضًا أحب البحيرة. ربما سأصطحبك إليها فى يومٍ من الأيام".

كان بإمكانى الاستماعُ إلى الهمسات المبهمة لثرثرة الجرادِ وأصوات نقيق بعض الضفادع عن بُعد. تطلَّعتُ نحو الأغصان العالية لشجرةٍ فارعةِ الطول بالقرب من النافذة، وشاهدتُ الحشرات تطير فى كل اتجاه وتلمع فوق الأوراق. قفزتُ فى كل مكان أستكشف كُلَّ زاويةٍ من حوضى الجديد، ونثرتُ على نفسى رذاذَ الماء المنتشر حول حوض السباحة. وَثَبتُ إلى أعلى الصخور وأضخمها، وتخيَّلتُ أننى ملكٌ مُتوَّجٌ على هذه المملكة الضفدعية. كان من الصعب علىَّ أن أصدق أن كل هذا يَخُصُّنِى وحدى.

Twitter: @alqareah

التفتتْ كارولين نحو والدها وضَمَّته وهى تقول: "أظنُّ أنه سعيدٌ بوجودهِ هنا".

انحنى لينظرَ داخلَ الحوض، ثم قال: "إنه فعلًا يحب القفز فى كل مكان".

أنزل وجهه نحو جانب الحوض وابتسم، ثم تَجوَّل متباطئًا حول الحوض يتطلَّع إلىَّ ويتفحَّصُنِى من كُلِّ زاويةٍ. اقترب بوجهه كثيرًا من زجاج الحوض، أكثر من اللازم. اختفتْ ابتسامته. قَطَّب جبينه وأغمض عينيه نصفَ إغماضةٍ مُحدِّقًا، ثم رفع رأسه وقال: "كارولين، أظن أن لدينا مشكلة".

– ماذا؟

– هذا الضفدع لديه قدم ناقصة. انظرى!

وأشار نحو قدمى. وأكمل: "لا أرى أيَّةَ قدمٍ فى نهاية قائمته".

بدأتُ أرتجفُ. يبدو أنه بعد أن امتلأتُ بالمرح والحيويَّة والحماس تخليَّتُ عن مراقبةِ نفسى وإخفاءِ عاهتى. لم أكن أبدًا فى الماضى أسمح لنفسى بالتحرُّك بكل هذه الحرية، وبالأخص حين أشعر أن هناك مَنْ يراقبنى ويتطلَّع إلىَّ. توقفتُ عن القفز وجَمَدْتُ فى مكانى، ثم ثنيتُ قوائمى تحت جسمى.

ارتفع حاجبا كارولين واتسعت عيناها وقالت: "أنتَ على حَقٍّ يا بابا، وانظر إلى هنا ينقصه أيضًا قدمٌ فى الخلف".

Twitter: @alqareah

خفضا رأسيهما إلى جانب الحوض وهما يواصلان التحديق – وجهٌ على كل جانب من الحوض، والفتاة تهزُّ أكتافها والوالد يحكُّ رأسه. تطلعتُ خارج النافذة، إن كانا لا يرغبان فى الاحتفاظ بى، أتمنَّى أن يُطْلِقانِى إلى الخارِجِ إلى الغابة، بدلًا من أن تُجمِّدَنى كارولين فى المُجمِّد مع سمكاتها المثلجة.

قال الأب: "سنعيده إلى المحل على الفور ونأتى بواحد آخر بدلًا منه. واحد بأربع أقدام سليمة. لن يقفل المحل أبوابَه قبل ساعةٍ. أنا واثقٌ أنهم سيسمحون لنا باستبداله. ولكن القرار يعود إليك يا كارولين".

ظلتِ الفتاةُ فى مكانها تتطلَّع إلىَّ. التفتُّ وبادلتُها النظراتِ. توقفتْ عن معاينتى وعن القيام بأيَّة حركة. كانت تفكر بعُمْق. فى هذه اللحظة ستحمل كلماتها معنًى كبيرًا.

ما الذى سأفعله لو أن حياة شخص ما تعتمد كليًّا على قراراتى؟ ماذا لو انقلب هذا العالم رأسًا على عَقِب؟ ماذا لو كانت هى التى فى داخل الحوض وأنا الذى بيده اتخاذ مثل هذا الاختيار المهم؟ كانت الإمكانية، إلى حَدٍّ ما، مخيفة.. بل مرعبة. ولكن الحياة ليست بهذا الشكل الذى أتخيله. ففى الواقع أنا مَنْ كان ينتظر القرار فى الداخل. لم يكن أمامى ما أفعله سوى السكون التام. لن أحاول القيام بَوثْبَةٍ كبيرةٍ،

Twitter: @alqareah

بقفزةٍ غير مُجْدِيةٍ. سأجلسُ فى مكانى هادئًا وأكونُ ما أنا عليه – ضفدع له قدمان سليمتان وقدمان ناقصتان: واحدة أمامية فى جهة الشمال، والأخرى خلفية فى جهة اليمين. لن أفعل شيئًا. سأترك لها حرية الاختيار.

قالت الفتاةُ بصوتٍ يدلُّ على عاطفةٍ وتعاطفٍ غير مُتوقَّعيْن: "لا يمكنُنا إعادتُه. فمَنْ غيرُنا سيرغبُ بضفدعٍ له قدمان فقط؟ أريده كما هو، بالشكل الذى هو عليه".

ولم تُعِد التفكيرَ قَطُّ فى القرارِ الذى اتَّخذَتْه.

Twitter: @alqareah

9

"**يحتاج** كُلُّ حيوانٍ أليفٍ إلى اسمٍ وهذا يشمل ضفدعى".

ثنتْ كارولين ذراعيها وأخذتْ تحومُ فى دوائرَ حول والدها. وقف يراقبها وهو يثنى ذراعيْه أيضًا.

قالت كارولين: "بما أننا قررنا إبقاءه معنا، فلا يمكننا أن نواصل مناداته بالضفدع أو ضفدعى الصغير، أو شيئًا من هذا القَبِيل".

– هذا صحيح ولكن...

قاطَعَتْهُ: "إذًا، فنحن بحاجةٍ للتفكيرِ فى اسمٍ لائقٍ".

قال والدُها وهو يُدِيرُ رأسه إلى الوراء ليتطلَّع إليها وهى تلفُّ من ورائه: "ليس من الضرورىِّ أن نُسمِّيَهُ هذه الليلةَ. تَعرَّفِى إلى ضفدعك لمدةٍ أطولَ وبشكلٍ أفضلَ، بعدئذٍ سيُصبح من السهل التوصُّل إلى اسمٍ".

Twitter: @alqareah

– كلَّا، كلَّا. أشعرُ بأن علىَّ أن أُعطيَه اسمًا فى الحال، قبل أن أذهبَ إلى السرير.

– فى الحال؟

– نعم يا بابا على الفور.

– ربما لن يُعجبَكِ الاسم فى الغد. دعينا نفكر فيه حين لا نكون مرهقين جدًّا.

– أنتَ لا تريدُ أن تفهمَنى. لن أستطيعَ النومَ حتى أعطيَه اسمًا. هل تريدُنى أن أظلَّ مستيقظةً طوالَ الليلِ؟

توقفتْ عنِ السَّيْرِ ونظرتْ إليه مباشرةً وأنزلتْ ذراعيْها.

تذمَّر والدها ودَمْدمَ: "كارولين...".

"أول سؤال نُوجِّهه إلى شخصٍ ما حين نقابله هو: ما اسْمُكَ؟"، قالتْ هذا وهى تخطو حولَه وتلوِّح بذراعيها لتؤكِّد على أقوالها، وأكملت: "فأنت بابا وماما هى ماما و«بِثْ» هى «بِثْ» وكلبى اسمه «نِكْ» ومُعلِّمتِى الآنسة «فلُوتْ»، وجارنا «بِيلْ» واسم كلبه «چونو».

– كارولين، أزِفَ موعد...

– لو لم يكن لدىَّ أسماءٌ لهؤلاء الناسِ والحيواناتِ، لكان علىَّ أن أقولَ شيئًا مثل: هذا الكلبُ يخصُّ الرَّجُلَ الذى يعيش فى الدَّوْر الثانى فى البيت الأبيض فى الجانب الآخر من الشارع. إلى جانب أننى أطلقتُ أسماءً على كل لُعَبِى منَ الحيواناتِ المَحْشُوَّةِ. فلا يصحُّ ألَّا يكونَ لحيوانٍ حقيقىٍّ اسْمٌ.

Twitter: @alqareah

سألها وقد ظهر الغضب واضحًا في صوته: "إلى متى سنستمر في هذا اللَّغْوِ؟"

– لا أعلم... إلى أن أجدَ حلًّا.

– دعينا نرى إن كان من الممكن أن ننتهي من هذه المُهمَّةِ خلالَ خمسَ عشرةَ دقيقةً. هل أنتِ موافقة؟

– موافقة.

– عليَّ أن أعترفَ بأنني وأمَّك أعطيناك اسمًا منذُ اليومِ الأوَّلِ لولادتك.

قالت كارولين وهي تشعرُ بالانتصار: "كما ترى، حتَّى البالغون يحتاجون إلى تسمية الأشياء! إذًا يا بابا، ما الاسمُ الذي سيكون ملائمًا له؟"

– همممم... أنا بحاجةٍ لأن أفكر قليلًا... ما رأيُكِ باسم «مَارْتِينْ»، أو «سُورِيْن»، أو ربما «چان»، ما رأيك «بفيودور»؟

قَطَّبَتْ وجهها وهزَّتْ رأسها بحِدَّة، وقالت: "أرجوك يا أبي، فلتكُنْ جادًّا. من أين جئتَ بهذه الأسماء؟ لا أريدُ اسمًا عجيبًا أو غريبًا".

– إذًا ما رأيُكِ باسمٍ بسيطٍ مثل «تُومْ»؟

– هل سمعتَ أبدًا عن ضفدع اسمه توم؟ هذا ما يمكن أن نُلقِّبَ به قِطًّا. وهو ليس بقطٍّ. أريد شيئًا مميزًا. اسمٌ لا يمكن لضُفْدَعٍ آخرَ الحصولُ عليه. اسمٌ لا يمكن لأحدٍ أن ينساه.

Twitter: @alqareah

– همممم. إذًا سَمِّيه «قِطَع نـاقصة».

ضحك وهو يقول هذا ثم استمر مُردِّدًا بعض الأسماء الأخرى.

– انتظر يا بابا، ارجع ثانيةً للاسم الذى ذكرتَهُ فى الحال.

ردد: "قِطَعٌ ناقصةٌ".

– نعم، هذا هو الاسم. أعادَتْ ترديد الاسم ببطءٍ شديد، وهى تنطقُ بكُلِّ حرفٍ على حِدَةٍ: قِ–طَ–عٌ نَ–ا–قِ–صَ–ةٌ. إنه فعلًا لاسْمٌ مُضْحِكٌ. يُعْجِبُنى. وهو أيضًا واقعىٌّ جدًّا. هو اسم جيد لأنه يخبرك بشكل ما عن حالته.

– يا كارولين كنت أمزح معكِ فقط. هل تريدين فعلًا أن تسمى ضفدعك "قِطَع نَاقِصَة"؟

– لقد فكَّرتَ بأحسنِ الأسماء يا بابا! سيترك انطباعًا حسنًا عند مَنْ يسمعه، كأنه اسمٌ لمُخْبِرٍ سَرِّىٍّ، أو ربما قطعة مُحيِّرة ناقصة يحتاج إليها اللاعبُ فى لُعْبَةِ الألغازِ. ربما أنه الحل فى لعبة البحث عن الكَنْز.

رفعتْ يديها نحو جبينها، وغطَّتْ عينيها، وقالت بصوت تعمَّدتْ أن يكون شرِّيرًا: "يجب علينا البحثُ عن القِطَعِ الناقصةِ".

انحنتْ إلى الأمام وتظاهرتْ بأنها تبحث عن شىء على الأرض، ويداها تغطى عينيها. وفجأةً رفعت ذراعها ودفعتْ

Twitter: @alqareah

بها الهواءَ وصرختْ فى صوت منتصر: "آها، لقد عثرتُ على القِطَعِ الناقصةِ. وأنا الآن أصبحتُ غنيةً!!"

– من الواضح أننا اقتربنا من موعد النوم يا حبيبتى.

– أنا جادَّةٌ يا بابا، بإمكاننا تسميتُه ق.ن. اختصارًا. فقط حَرْفانِ، قافٌ ونونٌ، وهكذا لن يكتشف أحد اسمَه السرّىَّ، إلَّا إذا أخبرناهم به.

ردَّدَ والدُها: "ق.ن... ق.ن. لقد أحببتُ الاسمَ. أنا مُتَّفِقٌ معكِ. اسمه ق.ن. اختصارًا لقطع ناقصة. والآن حان موعدُ النومِ".

قفزت كارولين فى الهواء، ومدَّتْ يديها إلى أعلى، ورمَتْ نفسها على السرير وهبطت عليه وهى تقول: "الآن، أنا مُستعدَّةٌ للنومِ".

أصبح لى اسْمٌ. كان يكفى أن يعرفه الناس وينطقوا به حتَّى يمكنهم أن يتذكَّرونى ويتعرَّفوا علىّ ويتحدثوا عنِّى. حتَّى ولو لم يتمكنوا من رؤيتى. من خلال كلمة واحدة، وفكرة واحدة، صار بإمكانى دخولُ عقلِ أىِّ شخصٍ.

ولَكَمْ كان اسمًا مميَّزًا وقويًّا: قطع ناقصة. يستحضر معناه فى الذِّهْنِ صورةَ ما أنا عليه. كان اسمًا صادقًا وحقيقيًّا. لم أعُدْ بحاجةٍ، بعد الآن، أن أخبِّئَ أىَّ جزءٍ من جسمى. صار باستطاعتى أن أتحرَّكَ فى كُلِّ مكانٍ بحُريَّةٍ وأنا أشعرُ بالأمان. فأنا ضفدعٌ بقدميْن فقط. ضفدع بقِطَع ناقصة. كان الاسمُ

Twitter: @alqareah

أيضًا يوحى بالغموض ويمتلئ بالألغاز كما لو أن هناك شيئًا غائبًا مفقودًا، أو ليس فى مكانه الصحيح أو منسيًا. من الذى سيعرف ما الذى حصل، ما الذى ضاع، أو ما إذا كان من الممكن العثور عليه؟

كان إحساسى بالإثارة والبهجة فى هذا اليوم ظاهرًا، مثل شجرةٍ وحيدةٍ منعزلةٍ مغروزةٍ فى محيطٍ من رمال الصحراء. كان يومًا من أيام المغامراتِ التى تهزُّك طربًا، والإثارةِ التى تجعلُك سعيدًا جَذِلًا، لاكتشافٍ رائعٍ ومثيرٍ. تبدَّلتْ مشاعرى من الخوفِ والحزنِ، إلى الإحساس بالإثارةِ والمرَحِ والرَّغبةِ فى الضَّحِك. أردتُ أن أعيشَ متعةَ هذا اليومِ مرَّةً بعد مرَّةٍ إلى ما لا نهاية.

Twitter: @alqareah

10

كانتْ كارولين أكثَر من مربيةٍ متميزةٍ تُحْسِن رعايتى وتوفِّر لى احتياجاتى من الطعام والماء وتعاملنى بلطفٍ واهتمام. كانت توحى لى أحيانًا وتحفِّزُنى على الجرأة والتفاخر وعلى لفت الأنظار. كانت تُبْدِى استحسانها بإطلاق أصواتٍ مُشجِّعة «يـاااااه» و«أحسنـتْ»؛ لتعبِّرَ عن إعجابها برشاقتى وخِفَّة حركتى مع أننى بقدميْن ناقصتيْن. كنت كثيرًا ما أنزلق أو أرتطم بشيءٍ دون انتباهٍ فى محاولةٍ لأثْبِتَ لها مدى قدرتى على الوثب. وحين كنت أضرب رأسى خطأً أو أهْوِى على جنبى كانت تجفُل من سَقْطَتِى، وتسألنى بصوتٍ فى منتهى العذوبة واللَّهْفِة إن كنتُ على ما يُرام. كانت تضمُّ ذراعيْها إلى جسمها وتصرخ مُتأوِّهةً كما لو كانت هى التى وقعتْ وارتطمتْ أو تأذَّتْ.

Twitter: @alqareah

فى الصباح، ومع أول شعاع للنور يضىء غرفتها وينتشر ليصل إلى جوانب حوضى، كانت تستيقظُ من النوم وتُحيِّينى بمرحٍ وحماسٍ وتسألنى إن كنتُ حَلمتُ فى الليلة الماضية.

كانت تحملنى أحيانًا وترفعنى لمستوى أذنها، حتَّى تتمكَّنَ من الاستماع إلى كل نَغَمةِ نَقيقٍ أُجيبُ بها عن تساؤلها. كنتُ أحدِّثها عن وميض الشلال الذى تسلَّقتُ إليه، وكيف أن الطحالب الملساء جعلتِ الصعودَ إلى القمة صعبًا، وكيف انزلقتُ نحو بِرْكةِ الماء الهادئة ثم طفوتُ ساكنًا بدون حِراكٍ فوق الحافَّةِ. كيف انقلبتُ رأسًا على عَقِب نحو الشلال الصغير، وكيف غطستُ داخل بركة تمتلئ وتضطرب برغوة الماء. ومن ناحيتها، حكَتْ لى كيف كان والدها ووالدتها يَغُطَّان فى النوم، حين هبَّ إعصارٌ مُدمِّرٌ فى ظُلْمة الليل الساكن واقتلع المنزلَ من أساساته، وكيف عَصفَتِ الرِّياحُ الشديدةُ وحملتِ المبانى إلى أعلى ما يمكنها الوصول إليه فى السماء، حاملةً معها الزوجيْن اللذيْن جمعتهما معًا بأعجوبة داخل دَوَّامة، ثم كيف حطَّتِ العاصفةُ بهدوءٍ بالمنزل المُدمَّر على مَرْجٍ مُورقٍ على شاطئ بحيرة.

كنا نتبادلُ الكلامَ والنَّقْنَقَة بحُبٍّ وحماسٍ ومرح. ننتقل من موضوعٍ إلى آخرَ. نجولُ فى الحديث حول أحداثٍ شَتَّى صغيرةٍ وفى اتجاهاتٍ مختلفةٍ، قصص محبوكة مليئة

Twitter: @alqareah

بالمشاهد المثيرة والأحداث الدراميَّة، كلمات بسيطة محمَّلة بالمعنى. قليلًا ما كنا نفهم بعضنا البعض؛ فنحن نعيش فى عالَمَيْن مختلفيْن كُلَّ الاختلاف ولكن كان هناك شىءٌ مشتركٌ بيننا. شىءٌ يقرِّبُنا من بعضنا البعض، مثل ارتباط جذور شجرة الكِسْتِنَاءِ بطينِ الأرضِ. كنا نحن الاثنين داخلَ شىءٍ ما، نتطلَّع دائمًا إلى الانتقال إلى خارجه ونتساءل متعجبين: تُرى كيف يبدو هذا العالَمُ الخارجىُّ ونتمنَّى، ولو لمرَّةٍ واحدةٍ، أن نستطيعَ استكشافه من تلك الزاوية.

شىءٌ واحدٌ كان دائمًا صِلَةَ الوَصْلِ بيننا دون أى لَبْسٍ أو ارتباكٍ أو تحويلٍ شاعرىّ للموضوع، هو الجَرَادُ. كانت كارولين تصل مرةً فى الأسبوعِ وبصحبتها عُبُوَّةٌ من الحشرات القافزة الحية الطازَجة فى كيسٍ بلاستيكىّ. تضعها فى قفصٍ خاصٍّ يقع إلى جانب الحوض، حيث كنت أتمكن بنفادِ صبرٍ من مراقبة غذائى القادمِ يقفزُ ويثبُ وهو يأكل الخَسَّ والفُتات؛ حتى يحين الوقتُ لالتهامه.

كان، كافيًا، أن أتوقع استمتاعى بهذا المِهْرَجان من القفز والوثب لغذاء قرب–وقت–التلذُّذ بأكله، ليصبح واحدًا من أكثر الأفكار بهجةً وإثارةً. كان الجرادُ الكبيرُ بطيئًا أجاهد لابتلاعه؛ ولكنَّه كان لذيذ الطعم. أما الجرادُ الصغيرُ فكان يطير بسرعةٍ

Twitter: @alqareah

وباستمرارٍ؛ مما يسهِّل اختطافه وهضمه ولكن مذاقه كان غير مُميَّز بعد أولِ قضمةٍ. كان الجرادُّ المُفضَّلُ عندى الأسرعَ والأحذقَ، ليس فقط لأن ملاحقتهم فى كل مكان وصيدهم كان ممتعًا، ولكن لأنهم كانوا الألذَّ طعمًا والأكثرَ «قَرْمَشةً».

كانت كارولين، كل بضعة أيام، تلبس كفوفًا مطاطيَّةً وتضع نظَّارةً واقيةً على عينيها، وتستخدم مِلْقاطًا بلاستيكيًّا طويلًا لتُخْرِج ثلاثًا أو أربعًا من الحشرات القافزة الرَّيَّانة النَّضِرَة من قفص الجراد. كانت تلتقطها بحرصٍ وتجذب الواحدةَ تِلْوَ الأخرى،وهى تُغضِّنُ حاجبيْها وتشيحُ بوجهها مُشمئزَّةً إلى الناحية الأخرى، ثم تتطلَّع بخوفٍ نحو نهاية الملقاط. كانت تُبْعد الجراد قَدْرَ المستطاع عن جسمها وترتبك وتتلوَّى بألمٍ فى كُلِّ مرَّةٍ تلكزُ خطأً جَنَاحًا لجرادةٍ.

لم أتمكنْ أبدًا من إدراك السبب الذى يجعل كارولين تُقيم مثل هذا الحاجز بينها وبين الجَرَادِ. ولكن على ما يبدو، لم يكن هذا بالعمل السهل عليها. ما إن يتم نقل كافَّةِ الجرادِ، حتى تضع الغطاء بسرعةٍ فوق حوضى، وترمى بكفوفها ونظارتها الواقية إلى الأرض، ثم تنهار على سريرها كما لو أن الجَهْدَ الشاقَّ الذى بذلَتْهُ قد أنهك قُواها.

ومع أننى كنتُ أودُّ أن أبدأ فى صيد الجراد حالَ وصولهِ؛ إلَّا أنه كان علىَّ أن أنتظرَ حتى يستقرَّ ويهدأ، فالتغييرُ المفاجئُ

Twitter: @alqareah

للمكان يجعل الحشراتِ القافزةَ تَثِبُ دائمًا فيما حولها بدون هدفٍ. تهبطُ على ظهورها وعلى جوانبها. تميلُ لتصطدم بالصخور أو قد تقفزُ بمرحٍ داخلَ الماء لتغرق - وهذا كان يسبِّب لى شعورًا عميقًا بخيبة الأمل؛ لأننى لا أستطيعُ أكْلَ جرادةٍ غارقةٍ وميِّتةٍ، مهما اشتدَّ جوعى.

بعد أن يهدأ الاضطرابُ الأوَّلىُّ، كنت أنتظرُ حتى ألمحَ جرادةً لذيذةً تتحرك، حينئذٍ أبدأ بوضع خُطَّتى للصيد باهتمام كبيرٍ ومهارةٍ فى التسلل. لا تعنى رؤيتى لجرادةٍ متحركةٍ بأننى سأتمكن من صيدها، مع العلم، أن الجرادَ لا يتَّسم بالفِطْنَة والذكاء، إلَّا أنهم يُحْسِنُون الاختفاء تمامًا منا نحن الضفادع - لا يمكن للضفادع أن تميِّز بينهم وبين الصخور حين يلتزمون بالسكون. يمكن للجرادة أن تقف على بُعْدِ سنتيمترٍ واحدٍ أمام أنفى، فإن توقفتْ عن الحركة، لن أستطيعَ رؤيتها ولن يُتاح لى اصطيادُها. لذا؛ كنت أبحث عن مكان بالقرب من منتصف الحوض يتيح رؤيةً جيدةً، وأنتظرُ حتى ألحظَ أقلَّ حركةٍ لأقفزَ فى اتجاهها. أتوقفُ قليلًا حتى ألمحَ حركةً أخرى ثم أقفزُ قفزةً ثانيةً. إنها لُعْبة أسمِّيها: حركة-الجرادة، وقفزة-الضفدع.

كان التحدِّى هو اللجوء إلى أقل عددٍ من الوثبات لاقتناص جرادةٍ ماهرةٍ. كان معظمُ الجراد يستمرُّ فى الذبذبة والاهتزاز

Twitter: @alqareah

غير واعٍ باقترابى منه. ومع هذا، فهذا الجراد النشيط والسريع والماهر له خبرة كبيرة بالمراوغة والتملُّص حتَّى لا يصبح غنيمةً سهلةً. أقترب منهم فيتجمدون، ثم أهاجم بغتةً فيتجمدون من جديد، ويختفون عن النظر. يعتمد نجاحى فى الإمساك بواحدةٍ على مدى إصرارى وصبرى. وحين أصل أخيرًا إلى المسافة المناسبة أقوم بوثبتى الأخيرة. أحيانًا تستغرق منى هذه المناورة اليومَ كُلَّه.

فأنا لستُ مثل بعض الضفادع المائية والضفادع الطينية التى يمكنها أن تلفَّ لسانها بسرعةٍ مماثلةٍ لحشرةٍ مائيةٍ جريئةٍ وتقتنص فريستها بلسانها. فأنا، وآخرون ممَّنْ هم من فصيلتى، لا نستطيعُ أن نصطادَ بلساننا أبدًا. علينا أن نهجمَ على الجرادة بجسمنا كله ونحاول التقاطها بفمنا المفتوح عن آخره. حين أتمكن من الإمساك أخيرًا بالجرادة، أستعمل قدمى الأماميَّة لأدفع بباقى الحشرة نحو فمى.

كان التقاطى للجراد وأكلُه يَفتنُ كارولين ويسلِّيها، وكانت تخبرنى أحيانًا عن الأمكنة التى يختبئ فيها الجراد؛ وأحيانًا أخرى كانت تحذِّر الجرادَ من اقترابى منهم. كنت أحاول دائمًا أن أبدو ماهرًا فى اصطياد الجراد حينما ألاحظ أن كارولين تراقبنى.

وفى إحدى المرات، أدركتْ كارولين كيف كان بإمكانى

Twitter: @alqareah

الجلوسُ ساكنًا في وسط الحوض، محتلًّا مكانًا فوق الصخرة، أراقب حركة الجراد وهو يتحرك في كل اتجاه وقالت: "أنت محظوظٌ جدًّا لأن لديك عينيْن على جانبَيْ رأسك بدلًا من أن تكونا في الأمام على وجهك. لو كان بإمكاني أن أرى مثلك، لما تَمكَّن أحد أبدًا أن يتسلَّل من ورائي ويباغتَني". وبعد لحظةٍ، رأيتُها وهي تدور في غرفتها وبيدها مرآتانِ، وضعتهما على عَقْفَة أنفها ظَهْرًا لظهر، وهتفتْ مندهشةً: "انظر، باستطاعتي أن أرى العالم مثلك تمامًا".

Twitter: @alqareah

11

كُنْتُ أعلمُ أن يومَ النظافةِ قد اقترب حين يمدُّ والدُ كارولين رأسه فوق الحوض، ويسدُّ أنفَه، ثم يأخذ شَمَّةً سريعةً وقصيرةً ويقول: "الرائحة كريهة جدًّا. حان موعد تنظيف كُلِّ الجراد الغارق والمُتحلِّل".

حين أسمع هذه الكلمات، أصبح شديدَ اللَّهفةِ والترقُّبِ. كان كل ما يفعله الأب وكارولين هو وضع الشبكة أمامي لأقفز داخلها في الحال. وبينما يقوم كلاهما بتنظيف حوضي يصبح بيتيَ المؤقَّتَ حوضُ استحمامٍ واسعٌ جدًّا، أبيضُ اللونِ وزَلقُ الجوانب.

كان أحد نشاطاتي المفضلة أن أقفَ في إحدى نهايات حوض الاستحمام وأقفزَ بحماسٍ شديدٍ إلى الجانب الآخر عَبْرَ

Twitter: @alqareah

القاع لأبعد مكان ممكن وبأقصى سرعةٍ. كانت قدمى الخلفية تنزلق وجسمى يميل من جهةٍ إلى الجهة الأخرى. وتسرح أفكارى لأتخيَّل نفسى فى الغابة أقفز إلى ما لا نهاية، بلا حدود، ولا حافَّات، فى أى اتجاه .ألاعبُ نفسى بالوَثْبِ إلى أعلى المُنْحدَر الأبيض لجوانب حوض الاستحمام، ثم أَهْوِى منهارًا نحو المياه الضَّحْلةِ فى قاع الحوض. كانت كارولين تضحك وتقهقه مجلجلةً، ثم تهلِّل لى هاتفةً بابتهاجٍ، تشجِّعنى بقولها بأنها ترانى قويًّا وشجاعًا.

تقول: "يجب أن تكون أميرًا، أو ربما فارسًا ملكيًّا، حتى تتمكَّنَ من القفز لهذا العُلُوِّ، بقدمين فقط... هذا شىءٌ غيرُ عادىّ".

كانت تركع بانتباهٍ ولُطْفٍ إلى جانب حوض الاستحمام تراقبنى وتتحدث معى حتى ينادى عليها والدها بصوت عالٍ كأمرٍ لا مفرَّ منه، قائلًا: "أزِفَ الوقتُ لتنظيف حوض الأسماك. بإمكانكِ اللَّعِبُ مع ق.ن. بعد ذلك".

كانت تتجاهل نداءه وتستمرُّ فى محادثتى.

يصرخ والدُها من جديدٍ: "كارولين، أنا أنتظرُ...".

تُبْعد كارولين أنظارها عن حوض الاستحمام، وتلمح والدها وهو يضع حوضى فوق الطاولة إلى جانب المغسلة ثم يصبُّ فيه عِدَّة دِلاَءٍ من الماء حتى يمتلئَ إلى ما يقارب نصفَه.

Twitter: @alqareah

كان يحرك الصخور ويديرها ويلكزها مستخدمًا نهاية عصًا طويلة، فينطلق من حولها أنقاض ونُفايات تطفو على السطح. راقبتْ كارولين باشمئزازٍ وتقزُّزٍ والدها وهو يغرف ويُخْرِج أجزاءً من أجسامٍ متناثرةٍ من الجراد الغارق والمُتحلِّل.

جمّع والدها القاذورات ووضعها فى دَلْوٍ. أطلقتْ كارولين صرخةً طويلةً حادَّةً عند سماعها لصوتِ انسحاق المادة اللَّزِجَة المهروسة عند ارتطامها بقاع الدَّلْو.

قال أبوها: "هذه هى الشبكة يا كارولين. جاء دورك الآن لتغرفى إلى الخارج بعضًا من هذه الأشياء".

– إنه شىءٌ مقزِّزٌ يا بابا. أريد أن ألعب مع ق.ن.

– لقد وعدتِ يا كارولين بأنكِ ستساعديننى فى تنظيف حوض السمك. جاء دورك الآن لاستخراج النُّفايات. ق.ن. بأحسنِ حالٍ وكما تشاهدين يلاعب نفسه، سعيدًا فى حوض الاستحمام.

– يا بابا أنا أساعدك بالفعل. فأنا أعتنى بضفدعى. أنت تحب تنظيف الحوض ولا تحب اللعب مع ق.ن. أما أنا فأحب اللعب مع ق.ن. ولا أحب تنظيف الحوض. إذًا فليفعل كُلٌّ واحدٍ منا ما يحب. هل توافقنى على هذا؟

تنهَّد والدُها وقال: "عليكِ أن تساعدينى فى المرة القادمة. اتفقنا؟".

Twitter: @alqareah

أجابتْ: "اتفقنا. سنذهب الآن أنا وق.ن. فى رحلةٍ".

كانتْ هذه أفضل ساعات التسلية والترفيه لكارولين – وكذلك لى. كانت تضع قطعةً من القماش المنسوج على شكل مربعات باللونين: الأبيض والأحمر على أرضية الحَمَّام، ثم تضع فوقها الصحون وآنية المائدة وكعكاتٍ من الغُرِيِّبَة. تضع على رأس هذه الترتيبات إناءً شفافًا من الزجاج فوق عدد من الكتب المرصوصة فوق بعضها البعض ليرتفع كما لو أنه تاج. ثم تُجلِس أصدقاءها حول مفرش المائدة. كان هناك «ديلى» وهو لُعبة مَحْشوَّة على شكل مُدرَّع (وهو حيوانٌ ثَدْيِيٌّ مَوْطنُه جنوب أمريكا)، و «كِيرِى» وهو على شكل كُوَالا (وهو حيوان أسترالى من ذوات الجِرَاب) بلونٍ أزرقَ فاتحٍ، وكلب «دالماشيان» لُعبة بأذنينْ لَيِّنتَيْنِ ونُقَطٍ سوداءَ على لون جِلْدِه الأبيض، وحيوانها المفضل الذى تلقِّبُه باسم «برَاوْنِى» وهو دُبٌّ باللون البُنِّى الفاتح مع رَبْطَةِ عُنُقٍ مُنقطَّةٍ باللونيْن: الأزرق والأبيض.

وبعد أن يجلسَ كُلُّ واحدٍ من المَدْعوِّين فى مكانه ويوضع الطعام اللازم، تعلن كارولين أن ضيف الشرف سيحضر بعد قليل، وأن عليهم جميعًا الالتزام بسلوكٍ حَسَنٍ. وتذكِّرهم محذرةً: "أحسنوا التصرف، استقيموا فى أماكنكم، ولا تبدءوا فى الطعام إلَّا بعد أن يتناول ضيف الشرف أول لقمة".

Twitter: @alqareah

ثم تنتشلُنى خارج حوض الاستحمام، وتحملُنى نحو مفرش المائدة، وتضعنى بلطفٍ داخل الإناء الزجاجىِّ الكبير وتقول وهى تطلق قَهْقهَةً: "انظروا إلى فارس مملكة الضفادع. ربما أنه ليس مكتمل الأعضاء، ولكنه يملك عقلًا كاملًا حكيمًا، ويعرف كيف يحكم مملكته. فتَحْتَ هذا الجلد المُبَرْقَشِ يَكْمُنُ ضفدعٌ فى غاية التفرُّد والتميُّز".

كان كُلُّ واحدٍ منهم يبتسم فى سعادةٍ. وكنت أهتزُّ طربًا لكونى فى مركز الاهتمام... الأب، رئيس المشرفين على نظافتى ونظافة مملكتى. كارولين، أميرتى المحبوبة. نظرتُ حولى فى كافَّةِ الاتجاهاتِ كما لو أن مغامرات العالم الخارجىِّ على مدى قفزةٍ منى. تخيَّلتُ نفسى طافيًا فوق اليابسة أنظرُ إلى أسفلَ، وأحداثُ العالم تتفتَّح وتنجلى أمامى.

تنثر كارولين قليلًا من الجرادِ وتبدأ الوليمة.

Twitter: @alqareah

12

أشعرُ بأننى فى قِمَّة السعادة والرضا حين لا أحسُّ بالحَرِّ الشديد ولا بالبرد الشديد، حين يكون بطنى ممتلئًا، وحين لا تزعجنى أصواتٌ غيرُ عاديَّةٍ أو مألوفةٍ، حين لا أشعر بأن جسمى يحيطنى ويكبِّلُنى: حين أكون فقط عيونًا تنظر إلى العالم – عيون بإمكانها أن تغلق وتحجُب أىَّ نورٍ وأىَّ إحساسٍ. عندها أنام فى منتهى السهولة وأبتسمُ ابتسامةً عريضةً وأتجشَّأ وأنعمُ بدفءِ أشعَّة الشمس تغمر ظهرى، وأنا أتشمَّسُ فى استرخاءٍ تامٍّ. فى مثل هذه الأيام، يمرُّ كُلُّ يومٍ ويأتى اليوم الذى يليه دونَ أن ألاحظ تعاقُب الأيام.

أشعر أننى غيرُ سعيدٍ ولا راضٍ حين يتأخرُ الجرادُ يومًا وأشعر بالجوع، وحين تتذبذب الأصوات العالية المزعجة خلال جسمى، وحين يكون الحَرُّ شديدًا أو البرد قارصًا فلا

Twitter: @alqareah

أستطيعُ النومَ، وحين ينكشطُ جسمى لاحتكاكه بحافَّةٍ حادَّةٍ ويَدْمَى، وحين توخز فكرةٌ ما عقلى كما لو أنها شوكةٌ غير منتظرة تحفر فى جلدى. عندها أريد للألم أن يتوقف ويزول. أريد علاجًا شافيًا وعاجلًا. أريد ألا أشعر بشيءٍ أكثرَ من أن جَفْنىّ يتحركان فى نطاق رؤيتى.

ومع هذا، فإن لدغةَ آلام الحياةِ ليستْ بدونِ فائدةٍ، فحين أشعرُ بالأذى أكون مُلْزَمًا بأن افكر.

كان هناك صوتٌ كأصوات الرعد لأقدامٍ بدأت بالصعود على السلالم. لم تخمد إلَّا بوصول كارولين وصديقتها التى تكبُرُها فى العمر «بِثْ» إلى غرفة النوم وهما تتنفسان بثقل. أخذتا تتطلَّعان حولهما فى الغرفة تبحثان عن شيءٍ تفعلانه. حين تكونان معًا تنغمسان فى اللعب كما لو أنه لا يمكن لأىٍّ مخلوقٍ أن يبعدهما عن البهجة والمرح. أحيانًا، كانتا تلعبان لعبة تصميم الملابس وتبتدعان أدواتٍ للتزيُّن من معجون الأسنان، أو قد تصطادان السناجب فتربطان قطعة من الخُبْز بطرف عصًا طويلة تمدانها من زاوية نافذة غرفة النوم. كنت أحب مراقبتهما أثناء اللعب، وإن كنت أنكمش خوفًا من بعض أفعالهما.

اقتربت الفتاتان من حوضى.

Twitter: @alqareah

قالت كارولين: "هل رأيتِ ضفدعى؟ هل تريدين اللعبَ معه؟"

انحنت بِث إلى الأسفل وأبعدت شعرها الطويل الذى يصل إلى كتفيها عن وجهها، ونظرت داخلَ الحوض وقالت: "ما الذى سنفعله مع ضفدع؟"

– يمكننا أن نطعمه جَرادًا. من المُسلِّى جدًّا مراقبته وهو يأكل.

قالت بِثْ وهى تحدِّق بالحوض: "وماذا بعد ذلك؟"

– بعدئذٍ يمكننا أن نضعه فى حوض الاستحمام ونراقبه وهو يقفز فى كل مكان من حوله.

قالت بِثْ وهى تكشِّر بابتسامةٍ شيطانيةٍ: "هممم... هذا يبدو مُسليًّا جدًّا. أين الجرادُ؟"

أشارتْ كارولين إلى قفص الجراد.

فتحتْ بِثْ الغطاء والتقطتْ واحدةً بإبهامها وسبَّابتها، ثم رفَعتِ الغطاءَ العُلْوىَّ للحوض ورمتْ بالحشرة القافزة نحوى لترتطم بظهرى. أخذتْ جرادةً ثانيةً وبصقتْ عليها وهى تقول: "لم يتمكن من الإمساك بالجرادَةِ؛ فهو بحاجةٍ لواحدةٍ أخرى. هذا البُصاق سيجعلُها تلتصق. قالتْ هذا والجرادةُ تَهْوِى لتحطَّ بين عينىَّ مثل الرَّصاصة".

ضحكتِ الفتاتان لما أصابنى.

Twitter: @alqareah

قالت بِثْ: "يبدو أنه ليس جائعًا الآن".

اقترحتْ كارولين: "تعالَىْ نأخذه إلى الحمَّام. سندّعِى أننا سننظِّفُ حوضه، مع إننا لن نُضطرَّ لذلك. فمن المُسلِّى أَنَ تشاهدى إلى أى مدَى يمكنه القفز".

أخذتْ كارولين الشَّبكَة وبدأتْ تجول بها داخل الحوض. تحاول أن تجعلنى أزحف إلى داخلها. ولكنى لم أتحرك. وضعتِ الشبكةَ أمام وجهى ونقرتنى إلى داخلها بإصبعها. رَفعتِ الشبكةَ فوق مستوى رأسها وحملتنى عبر المَمَرِّ نحو الحمام، وأعلنتْ وهى تضحك هاتفةً: "ها قد وصل الملك".

تبعتها بِثْ وهى تكاد تنطوى على نفسها من شدة الضحك. وقالت: "هُس... هُس يا كارولين. لا نريد أن يسمعنا والدُك سأقفل باب الحمام".

وضعت كارولين الشبكة فوق حوض الاستحمام وأسقطتنى فيه. حاولتُ أن أحطَّ على قدمىَّ، قدمىَّ الاثنتين؛ ولكنِّى وقعتُ على جانبى مرتبكًا ومُشوَّشًا. لم تعاملنى كارولين بهذا الشكل من قبل. كنت غاضبًا وحزينًا. أَردتُ أن أصرخ بصوتٍ عالٍ طالبًا النجدة. كنت أريد أن أَلْكُمَ أحدًا بقدمى اليسرى الناقصة. كنتُ أُريدُ أن أبكىَ. أردت أن يصعد والدُها إلى الطَّابَق العلوى ليوقف أفعالها.

مدّتْ كارولين يدها نحو مقبضٍ فضىٍّ فوق حوض

Twitter: @alqareah

الاستحمام. وبينما كانت تدير الكتلة المعدنية، سمعتُ صوتَ صريرٍ وخدشٍ جعلانى أنحنى منكمشًا. بدأ الماء يتدفَّق من الصُّنْبُور، وقالت كارولين: "ستشاهدين كيف يمكنه العوم".

بدأت أقفز حولى مرتعبًا، أحاول أن أبتعد عن الشلال العنيف الذى كان يُرْعِدُ فوق قاع حوض الاستحمام وينصبُّ من فوقى. جَدَّفتُ بكل ما لدىَّ من قُوَّةٍ، من غير أن أفكر إلى أين سأمضى. أحاولُ فقط الابتعاد هاربًا.

قالت بِثْ: "ياااااه.... انظرى إليه كيف يجرى".

هزَّتْ كارولين رأسها موافقةً: "إنه سريع، أنا أعرف... ولكن أظن أن هذه الكمية من الماء كافية".

تزلَّفتْ لها بِثْ قائلةً: "لا تقلقى. دعينا نضيف، فقط، القليل من الماء".

وحين طفوتُ تحت تدفُّق ماء الصُّنْبُور، دفعتنى المياهُ إلى أسفل الحوض إلى أن ارتطمتُ بالقاع. ظللتُ لفترةٍ قصيرةٍ عالقًا فى أسفل الحوض بسبب قوة اندفاع المياه، إلى أن تمكنتُ من التلوِّى إلى جانبى والصعود من جديد. استمررتُ فى محاولة البقاء بالقرب من السطح لابتلاع جرعاتٍ من الهواء. فأنا حيوانٌ بَرّمائىٌّ ولستُ سمكةً. والضفادع مثلى من الممكن أن تغرق.

قالت بِثْ وهى تحرك يدها فى الماء وتراقبنى وأنا أهوى

Twitter: @alqareah

إلى القاع أكثر وأكثر: "ضفدعك بالفعل مضحكٌ ومُسلٍّ جدًّا".

إنها ليست سوى فتاةٍ مزعجةٍ من الناقرين الذين يتلذذون بإيذاء الآخرين. تريد أن ترانى وأنا أتحرك باستمرار كأننى لعبة. ألم تلحظا أننى تعبت وأصابنى الإرهاق؟ لن أستطيع الاستمرار فى السباحة بهذا الشكل. قد يكون هذا مسليًّا بالنسبة لهما، ولكن لو كانتا فى مكانى، ولو للحظةٍ، كانتا ستدركان ما الذى يجرى لى.

ازداد الهَرَج والضحك مع ازدياد صراعى. متى ستتوقفان؟ متى سيسمع الوالد بما يحصل؟ هل يعلم بأن كارولين نسيت كيف تعتنى بى؟ استمررتُ فى التجديف منتظرًا أن يأتى أحدٌ ليضعَ حدًّا لهذا العبث.

مالتْ بِثْ فوق حوض الاستحمام، وأمسكتْ بالمِقْبَض الفِضِّىّ وهى تقول: "أظن يا كارولين أنه بحاجة للمزيد من الماء". بدأ صوت الصرير من جديدٍ وتدفَّق المزيدُ من الماء. لم يَعُدْ باستطاعتى العوم داخل هذا الاضطراب. التففتُ حول نفسى مثل الكرة، وضممتُ قوائمى قريبًا من صدرى.

شعرت بالوَحْدة. كأننى بقعة من الحياة تهوى وتنهار فى تيار ساحق؛ خائفًا من الارتطام على حافَّةٍ حادَّةٍ. حافة قد لا تأتى أبدًا؛ ولكنها فقط تشكل مصدرَ قلقٍ وعذابٍ من احتمال ظهورها والاصطدام بها.

Twitter: @alqareah

لوَّحت بِث بيدها تحت الصُّنْبُورِ وقالت: "الماء بارد". حرَّكتِ المقبض فى الاتجاه المعاكس، وسمعتُ صوتَ صريرٍ آخرَ. أصبحت أصوات الضحك والقهقهة أكثر صخبًا وضجيجًا.

شعرتُ بعدئذٍ بشيءٍ مرعبٍ يغلفنى. شيء أكثر قسوةً وألمًا مما يمكن أن أتصوره. تدفقتِ المياهُ الساخنةُ فوقى. أحاطت بجسمى إبرٌ حادَّةٌ منعتنى من جذب نفسى لأىٍّ اتجاه. كان ينغزُ فى جسمى ألفُ دَبُّوسٍ تخترقُنى وتنفُذ أعمق وأعمق مثل قِطَعٍ متوهِّجةٍ من المَعْدِن.

لم يَعُدْ باستطاعتى العومُ. ولم يعد باستطاعتى ضَمُّ قوائمى قريبًا من بطنى، ولم يعد بإمكانى التجديفُ للبقاء على السطح لاستنشاق الهواء. ما من شيءٍ سيوقفهما. لن يأتى أحد لنجدتى، ولم يعدْ بإمكانى مساعدةُ نفسى. أغمضتُ عينىّ وغطستُ إلى الأسفل نحو القاع. كنت فى حالةٍ من اليأس التامِّ. كان بإمكانى، فقط، أن أطلب أمنيةً... أمنية عديمة الجدوى.

الزم السكون.

تردَّد صدى هذه الكلمات فى ذهنى:

الزم السكون.

وبينما أنا أهْوِى وأنهارُ إلى أسفل الحوض، سمعتُ من جديدٍ صوتَ الضفدع العجوز وهو يقولُ: "قد تجد أحيانًا فى قاع

Twitter: @alqareah

الحفرة لؤلؤة، فحين تنزلق منهارًا داخل نهر هائج ومضطرب وتغطس إلى ما لا نهاية داخل تدفُّق مياهٍ سريعةٍ ومزمجرةٍ، وحين تسبح بالقرب منك الأسماكُ المفترسةُ بأسنانها الحادَّة تدور بعيونها فى كل اتجاه تبحث عن طعام تأكله، وحين تندلع النار على عُشبِ المَرْجِ الذى يحيط بالبركة، وحين لا تجد مكانًا لتفرَّ إليه – حينئذٍ لا يكون أمامك سوى أن تلزم السكون، أن تراقب، وأن تفكِّر بكُلِّ فكرةٍ يمكن أن تحتشدَ فى ذهنك – بعدئذٍ تصرف بمنتهى الثقة والقوة".

بدأ صوت تدفق المياه وضحكات الفتيات يتلاشى وأصبح جسمى بعيدًا عن ذاتى، لم أعُدْ أشعر أنه جزء منى؛ أخرسَ الألمُ جسدى. بزغ فى داخلى تفهُّم ومعرفة لماضٍ بعيدٍ كنت قد نسيته، أوحى لى عن جزءٍ من ماهيتى. شىءٌ لا يمكننى معرفته أبدًا عن طريق التفكير أو المشاهدة ، بل كان علىّ أن أعيش التجربةَ كُلَّها.

وفى أثناء انهيارى نحو السكون التام، رأيتُ حافَّةً أخرى أكثر حِدَّةً وأكثر إنذارًا بالخطر من أعلى قمة جَرْف. إنه بطنى. بطنى الذى يشبه شعلةً من نار. فى ومضة من الإدراك والتفهم رأيت بعين البصيرة شيئًا جَليًّا وواضحًا. قدرة كانت دائمًا موجودة وحاضرة. شىء لاحظته مرارًا ولكننى لم أرَهُ أبدًا ولم أستفسرْ يومًا عن ماهيته. وهكذا مثل قصف رعد غير مُرْتقَب

Twitter: @alqareah

فى سماء فجر هادئ، ومثل ذَرَّةٍ من نورٍ فى سوادِ ليلٍ مظلمٍ، تبيَّن لى أننى مُتفرِّد واستثنائى.

إذا ما نظر إلىّ أحدٌ من أعلى أو من الجانبين، فكل ما سيشاهده ضفدعٌ ذو جلدٍ أخضرَ فاتحٍ مع بُقَعٍ سميكةٍ سوداءَ تتلولَبُ وتتداخل لتساعدنى على الاختباء داخل النباتات والصخور. ولكنى أملك جانبًا آخر لا يظهر للعالم. فمن تحت هذا اللون الأخضر المُموَّه والخادع لجلد ظهرى، يكمن بطن أحمر قُرْمُزىّ بَرَّاق، مُلطَّخ ببقعٍ سوداءَ وكأنها وابلٌ من الكَلَف الشمسىّ، مضغوطٌ باتجاه الأرض ومَخْفىٌّ عن الأنظار. يمكن لأىٍّ شخصٍ يتطلَّع إلى الحوض أن يلحظَ بطنى، ولكنه لن يعرفَ كيف يمكن أن يتحول ليصبح سلاحى. إنذار أُطلقه لأىٍّ مفترسٍ يقترب منى.

هذا الضفدع الأخضر الشيطانى الذى هو أنا، من الممكن أن ينقلب على ظهره، فجأةً، وينفخَ بطنه ليتحوَّلَ إلى كُرَةٍ من اللهب مبهرةٍ ومثيرةٍ للذهول. وحين أفعلُ هذا لا أستطيعُ الهروبَ قافزًا. تكمن قوتى فقط فى التزامى السكونَ. حين أُخبِّئُ ظهرى وأُظْهِر بطنى أصرخ عاليًا لكل من يشاهدنى: ابتعدْ، تراجَعْ إلى الوراء، لا تقتربْ مما يتمدَّد أمام ناظريْك.

كان المُفترسُ الآن فتاةً صغيرةً وصديقتَها.

انقلبتُ على ظهرى أستعين بروحٍ تتَّسم بالجُرْأة والثقة

Twitter: @alqareah

والتصميم. مددتُ قوائمى وابتلعتُ جرعةً من الهواء. بدأ جسمى ينتفخ ويتحول ويتلألأ. استلقيتُ بلا حِرَاك وظهرى على سطح الماء وبطنى إلى أعلى يواجه أنظار كُلِّ من يتطلَّع إليه – بطنى النارِىُّ البرَّاق، المتألِّق والرائع.

قالت كارولين: "انظرى يا بِثْ!". توقَّفَ تدفُّقُ المياه. غطَّت كارولين فمها، وانفرج فم بِثْ مفتوحًا عن آخره. كانتا تقفان بالقرب من بعضهما إلى جانب حوض الاستحمام تحدِّقان.

قالت بِثْ: "هل هذا هو الضفدع ذاته؟ لقد سلقناه. يبدو وكأنه سرطانٌ بَحْرِىٌّ".

بدأتْ كارولين بالبكاء، ثم أمسكتْ بالشبكة وأنزلتْهَا فى الحوض لتنتشل جسمى المُتَيبِّس من فوق سطح الماء. وضعتنى على الطَّاوِلَةِ المُلْحَقة بالمَغْسِلَةِ. وقالت: "أظن أننا...".

وأردفتْ نائحةً: "قتلنا «قطع ناقصة». انظرى إليه. لقد انفجر!"

استلقيتُ على الطاولة بقدمين ممدودتين وبطن أحمر متوهج يتوجه لأعلى، مُتورِّم مثل سطح ثمرة فُطْر مُتغضِّنة. تغيَّر شكلى تغيُّرًا كاملًا.

سألتْ بِثْ: "هل سندخل فى مشاكل؟"

أجابت كارولين: "ومَن يهتمُّ؟ ضفدعى مات!"

Twitter: @alqareah

قـالـتْ بِـثْ: "بـإمـكـانـك الـحـصـول عـلـى واحـدٍ آخـر. فـهـم جميعًا بنفس الشكل".

– لن أجد أبدًا ضفدعًا مثله، أبدًا. هل سأذهب إلى المحل الذى يبيع الحيوانات الأليفة للحصول على ضفدع آخر ثم أقلِّم اثنتيْن من قدميه أو أقصهما ليصبح مثله؟ ما رأيُك يا بِـثْ؟

انطلق صوتُ الوالدِ من الطَّابَق السُّفْلِيّ يستفسرُ عمَّا حدث: "ما الذى جرى؟"

صرخت كارولين منتحبةً، وقالت من بين نشيجٍ متقطعٍ: "ق.ن. مـات".

صعد الوالد السلالم راكضًا نحو غرفة نومها. اختلسَ بحرصٍ نظرةً خاطفةً من وراء باب الحمام ثم دخل. كانت عيون كارولين مليئةً بالدموع. ووقفت بِـثْ إلى جنبٍ، وقد ارتسمتْ على وجهها ابتسامةٌ عصبية.

على الطاولة الملحقة بالمغسلة، كان يستلقى ضفدع بطنه إلى أعلى – بطن من نار – ينفجر متألقًا نحو العالم.

التزم الأَبُ الصمتَ ثم اقترب ببطءٍ ونظر إلىَّ وتساءل: "ما هذا؟" نظر إلى جسمى من زوايا مختلفة محاولًا أن يفهم ماذا حدث.

وسأل وقد بدا عليه الشك والارتباك: "هل هذا ق.ن.؟"

التزمت الفتاتان الصمت ثم هزَّتا رأسيهما فى تَرَدُّدٍ.

Twitter: @alqareah

نظر الوالد إلى ابنته بوجهٍ صارمٍ وقال: "ماذا فعلتما أيتها الفتاتان؟ هذا كائنٌ حَىٌّ يا كارولين".

بدأتْ كارولين فى البكاء من جديدٍ، وقالتْ: "أنا آسفةٌ... لم يكن بِنيَّتِى أن أتسبَّب بالأذى".

"أنتِ آسفة. أهذا كل ما لديكِ؟ لديك الحرية فى اختيار تصرفاتك. كان يمكنك اختيار تصرف آخر... لماذا أقدمتما على هذا الفعل؟ ما الذى كان يدور فى تفكيركما؟". كان ينقل عينيه بين كارولين وبِث، وهو مستمرٌّ فى الاستفهام. ما لبثتِ الفتاتان أن استسلمتا للبكاء، وواصلَ الأَبُ توجيهَ أسئلته وتأنيبه.

تركتُ هذا المشهدَ يستمر لبعض الوقت. كنت أريدُ أن أتأكدَ أنهما لن تنسيا أننى شريك لهما فى الهواء الذى تتنفسانه، وأننى أُقيم مثلهما على ذات الأرض، وبأننى كائنٌ حىٌّ بحاجةٍ لمَنْ يرعاه، وبأن أىَّ إهمالٍ قد يسبِّب نتائجَ وعواقبَ غيرَ حميدة. ولكنى، من ناحية أخرى، أردتُ اكتشافَ شىءٍ آخرَ. أردتُ الإحساس بقوة جسدى. أردتُ أن أعلم ما الذى يكمن مختبئًا فى داخلى. أردتُ أن أدرك وأفهم ما الذى يمكن أن أكون عليه.

توقَّف بشكلٍ فُجائىٍّ كلُّ البكاء والتأنيب. شهق الجميع وتوقفوا. لم أعدْ أسمعُ فى الحَمَّام سوى صوت تنقيطِ متردِّدٍ من ماء الصُّنْبُور.

Twitter: @alqareah

كانت هناك ستٌّ من العيون تنظر مُحدِّقةً إليَّ من أعلى. انكمش بطنى فجأةً وانقلبتُ إلى الناحية الأخرى لأعود من جديد ضفدعًا أخضرَ مُلَطَّخًا. وثبتُ إلى زاوية الحوض، والتفتُّ حولى أبادلهم التحديق. كانت وجوههم شاحبةً كما لو أن شخصًا ما رفسهم فى معدتهم. ذهول. انشداه. سكون. عدم تصديق. صمت مُطْبِق. ثم صوتُ همسةٍ رقيقةٍ: "بابا، أظنُّ أنه حَيٌّ".

لاحظ معنى: ضفدعٌ ذو بطنٍ نارىّ!

Twitter: @alqareah

الجزء الثانى

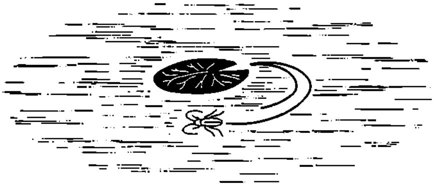

Twitter: @alqareah

1

تمتلئ الحياة بالحافات القاسية. فالحياةُ ما هى إلَّا رحلةٌ رائعةٌ نحو المجهول. إنها طريقٌ مضلِّل وخادع من خلال غابة مظلمة وغامضة وعبور فوق لحاء شجرة مُتفرِّعة الأغصان. إن الحياة تَجْوالٌ وطَوَافٌ. تعرُّجٌ وانحناءاتٌ. طُرُقٌ ومُنْعَطفاتٌ تنحرف وتتلوَّى بدون إشاراتِ تدلُّ على الاتجاهات أو أى تعليمات إرشاد أو تحذير. الحياة هى فراشة تصارع لتحرِّر نفسها من الشرنقة. الحياة هى...

نحن لا نقول ذلك أبدًا – أليس كذلك؟ نحن نقول إن الحياةَ شىء طبيعى مادِّىّ نابض. إنها شىء يمكن أن نمرَّ بتجربته بحواسِّنا ونتحرك من خلاله بأجسادنا. نحاول أن نجعل منها شيئًا حقيقيًّا ملموسًا يمكننا الإمساكُ به والتعرُّفُ عليه. ومن ثَمَّ، نتجادل لوضع صفاتِ مميزةً لها. نحن نتحدث عن الحياة

Twitter: @alqareah

لكى نتمكن أن ننحت لأنفسنا مكانًا بين الإمكانات التى لا تُعدُّ ولا تُحصَى. ولكننا نفشل. فنحن لا نستطيع فى الحقيقة أن نقولَ ما الحياةُ... بدلًا من ذلك فنحن نُترك لنعتمد على الاستعارات والاستعانة بالتشبيه لوصف مرور الزمان.

عشتُ مع كارولين زمنًا كافيًا لأرى ثلاث مرات متعاقبة حدثًا مدهشًا: شاهدتُ تحوُّل أوراق الأشجار إلى أطياف وتموُّجات لامعة من الأصفر والبرتقالى والأحمر، ثم تساقُطها عن الأغصان إلى الأرض مُشكِّلةً دثارًا مُلوَّنًا. كان يكفينى أن أرى كل هذه الروعة لأشعر باللهفة والتَّوْقِ للعيش فى الغابة بين الطبيعة المدهشة. تُرى، كيف سيكون شعورى وأنا أتمدَّدُ على ورقة شجرة طافية فوق البركة، وهى تنجرف مع نَزْوةِ مَهبِّ الريح وتحطُّ على أرض قُرْمُزيَّة؟ أو أن أضغط قدمىّ على ما تَبقَّى من أوراق متساقطة، وأتأرجح على سَقَّالةِ من العُشْب الذى يكمن تحتها؟

كانت مثل هذه الأفكار تمر سريعًا فى خاطرى حين أجد نفسى متنعِّمًا بدفء الشمس ورفاهية حوضى. فأنا أملك الأفضل من كلا العالَمَيْن. بإمكانى أن أرى وأسمع ما يدور فى الخارج فى الغابة، وأنا أنعم بالدفء والراحة فى الداخل. شاهدتُ أشكالًا من الجَلِيدِ تتكون على أوراق الأشجار، ورأيتُ

Twitter: @alqareah

الأرض يكسوها الثلج، واستمتعتُ بمنظر المُتزلِّجين ينزلقون فوق الجليد فى الشتاء، وتحوُّل المياه المتجمِّدة إلى ثلج نصف ذائب. راقبتُ فَقْسَ بيض الحشرات وهى تتحوَّل إلى حشرات تطير فوق البحيرات الضَّحْلة، وتحط أعلى الأشجار ثم تتزاوج قبل انتهاء اليوم. شاهدتُ الفراشاتِ وهى تزحف خارجةً من شرنقتها ترفرف بأجنحتها الرطبة حتى تجفَّ. يحملها النسيم ويحطها فوق الأعشاب الطويلة على حافَّة البركة. رأيتُ الأولاد وهم ينثرون الماء حولهم وعلى بعضهم البعض ويضحكون، ثم يخوضون داخل عيدان القصب أو يطرحون خيوط الصنَّارة ويصطادون أسماكًا صغيرة.

كان هذا منظرًا ساحرًا للغاية يُغْرِينى أحيانًا فأتجاهلُ وجود جرادةٍ تهزُّ هوائيَّاتِها أمام ناظرىَّ.

كما شاهدتُ كارولين وهى تنمو وتتغيَّر. استطالتْ قامتُها، بسرعةٍ، مثل عيدان القصب حول البحيرة، ولكن بثباتٍ وتصميمٍ مثل الأشجار التى أراها عن بُعْد. لم يَعُدْ باستطاعتى النظرُ إلى عينيها وهى تسير حول الغرفة. أصبح من الممكن لى الآن أن أرى حتى منتصف ذراعيها فقط، وأن أتطلَّع إلى نهاياتِ شَعْرِها ينسدلُ فوق الزاوية المائلة لكتفيْها.

بَدَأَتِ الآن تنظف حوضى بنفسها. صار بإمكانها التقاطُ الجَرَادِ المَيِّتِ بأصابعها دون الاستعانة بكفوفٍ بلاستيكيَّة.

Twitter: @alqareah

كانت، فى الماضى، قليلًا ما تحدثنى عن مَدْرستها وأصدقائها، ولكنها الآن أصبحت تُشْرِكُنى فى أفكارها وآرائها عن العالم الخارجىّ.

كانت، أحيانًا، تركع بالقرب منى تنظر إلى خارج النافذة وتسألنى إن كنتُ أحبُّ أن أعيش معها بالقرب من البحيرة. كانت تخطر لها أفكارٌ ساذَجةٌ فتقول: "فى يوم ما سأصحبُك إلى الخارج ونمضى إلى البحيرة حيث يمكنك أن تَرشَّ المياهَ من حولك، وإذا قررتَ البقاءَ هناك سأنزلقُ فى الماء وأسبحُ معك. سنكون معًا. سنشعر بالحرية، فقط أنت وأنا".

كانت حياتى أهْنأ مما يمكن لى أن أتخيَّل. كان من الممكن أن أرى الجمال والقسوة والخداع الخارجىّ، ومع ذلك أستمتعُ بالراحة والرضا الداخلىّ. كان بإمكانى الإحساسُ ببرودة المياه على سطح الصخور الرَّطْبة وأن أتذوقَ عصارةَ الجرادِ الممتلئ الرَّيَّانِ والغَضِّ. كان باستطاعتى تبادُل الحديث مع صديقة رائعة تهتمُّ بى وتُعجب ببراعتى الفائقة. كان هذا أكثَر من أى شىءٍ آخر يمكن أن أطلبه - إلى أن جاء يومٌ، سمعتُ فيه بمحض الصدفة شيئًا هزَّ شعورى بالرضا والأمان.

Twitter: @alqareah

2

"آسيا؟ لماذا تريدُ الذَّهابَ إلى هناك؟" أصرَّتْ كارولين تريد أن تعرف الجواب المُقْنِع. كان والدها يجلس على السرير يتحدث معها، وقد أخذتْ تلفُّ وتدور داخلَ غرفة النوم. قال لها: "إنه أمرٌ لطالما...".

قَاطعَتْهُ قائلةً: "من الذى سيهتمُّ بـ«ق.ن.» فى أثناء غيابك؟ هل يعنى هذا أننا سنتخلَّى عنه؟ إن هذا شيءٌ رهيبٌ، أن نُضطرَّ أن نتخلى عنه. مَن الذى سيرغب فى رعاية ضُفْدَعٍ بقدميْن ناقصتيْن؟" رفعت حاجبيها ونظرت إلى والدها وأردفت: "لا يمكنُك أن تذهبَ... اتفقنا؟"

– يمكنهُ الإقامةُ معك فى منزل والدتك. ستكونون أنتم الثلاثة فى أحسن حال.

ضمَّت ذراعيها وقالتْ: "ومَن الذى سينظِّف حَوْضَه؟"

Twitter: @alqareah

تأوَّه وقد ظهر الألمُ فى نبرة صوته. نهض وقبَّلها بأعلى رأسها، ثُم مضى إلى المكتب وأمسك بالكرة الأرضية وقال: "هل تعلمين يا حبيبتى إلى أينَ سأذهبُ؟ دعينى أُطْلِعُك". لفَّ الكرةَ الأرضيَّةَ، بين يديْه، ثم أشار إليها لتجلسَ بالقرب منه وقال: "انظرى، آسيا فى هذا المكان، فى الجانبِ الآخرَ من الكرة الأرضيَّة. إنها تحتلُّ كل هذه المساحة". لفَّ يديه حول المِنْطَقةِ كُلِّها ثم أشار بإصبعه وقال: "ولكنَّنى سأمضى معظم وقتى فى هذه المنطقة... فى «التِّبِتْ»".

أخذتْ كارولين الكرةَ الأرضيَّةَ من بين يَدَىْ والدها، وقالت: "هممم". حملتها قريبًا من وجهها ولامست سطحها بيدها وقالت: "إنها منطقةٌ وَعْرةٌ جدًّا".

– هناك الكثير من الجبال. البعض منها من أكثر جبال العالَم ارتفاعًا... وهى تستمرُّ فى الارتفاع.

– هل تنمو؟

هز رأسه موافقًا وأكمل: "هناك طَبَقةٌ هائلةٌ من القشرة الأرضيَّة تضغط وتدفع بالجبال إلى أعلى بضعَ بوصاتٍ كُلَّ سَنَةٍ".

"إذًا، فهل سترى الجبال وهى تنمو؟". بدا فى صوتها صرامةٌ مصحوبةٌ ببعضِ السَّذَاجة.

ابتسم وقال: "لا. سأشاهد قِمَّةً من أعلى قِمَمِ الجبال ارتفاعًا. البعض يعتبرونها مركز الأرض".

Twitter: @alqareah

قالت وهى تلتفتُ نحوه فجأةً: "ماذا تعنى بهذا؟"

– هذا ما يعتقدُ به البعض من الهنود. ثَمَّةَ جبلٌ هائلٌ على شكل هرم، البعض منهم يُسَمُّونه الجبل الغالى أو جوهرة الثلج. فهم يعتقدون أنه مركز ومصدر لطاقة الحياة. يصل بين أسفل الأرض وأعلى السماء. توقَّف للحظةٍ لينظر إلى تعبير الذُّهُولِ الذى ارتسم على وجه كارولين.

ثم أردفَ: "سأقومُ برحلةٍ مُعقَّدةٍ حول الجبل مع بعض الأصدقاء". سَأَلَتْهُ: "ماذا تعنى برحلة معقدة؟"

– هذا يعنى أننا سنسيرُ طوالَ اليوم ونحن نحمل أمتعتنا على ظهورنا ونشقُّ طريقنا ببطءٍ ومشقَّةٍ ونخيِّم فى مناطق وعرة فى الليل.

– وَحْدَكُم؟

– لا، لن نكونَ وَحْدَنا. يسافر كُلَّ سنةِ العديدُ من البشر من كل أنحاء العالم ليَسيرُوا حول ذلك الجبلِ. تُعتَبر هذه الرحلة من أكثر الرحلات أهميةً بالنسبة لهم؛ لأنها وسيلة للبحث عن الذات. بالنسبة لى أراها مفيدةً للتعرُّف على عادات وتقاليد الشعوب وأنماطِ مختلفةٍ من التفكير الفَلْسَفِىّ. البعض منهم يعتقد أنهم من بعدها سيصلون للشعور بالرضا والسعادة.

سألتْ كارولين وهى تهزُّ رأسها: "ولكن أنت لا تؤمنُ بهذا – أليس كذلك؟ لِمَ تشعرُ بالحاجة للذَّهاب؟"

Twitter: @alqareah

"لأنه من المُهمِّ أن نفكِّرَ بكُلِّ الأسرار والغموض الذى يُجابِهُنا جميعًا. ليس فقط الجبل، بل هذا الغموض الذى يجذب كل هؤلاء للالتقاء ومحاولة الاتِّصال بشىءٍ خارج الحدود العاديَّة لحياتهم تمامًا".

– هذا يبدو غريبًا عجيبًا يا بابا.

– أفترضُ أنه كذلك – بالنسبة لنا.

– كَمْ يومًا ستتغيب؟

– حوالى الشهر.

– شهر! هذه فترة طويلة للبقاء بعيدًا... والنوم على مرتفعاتٍ جَبَليَّةٍ شديدةِ الوُعُورةِ طوال هذه المدة.

– ستمضى الأيامُ أسرعَ ممَّا تتصوَّرينَ.

أخذتْ كارولين دُبَّها الصغيرَ ذا رَبْطةِ العُنُقِ المُنَقَّطةِ واحتضَنتْهُ وسألتْ والدها: "هل أستطيعُ الذَّهابَ معك؟ فأنا لا أتناولُ الكثيرَ من الطعام، ولدىَّ بالفعل ساقانِ قويَّتانِ".

– أحبُّ أن أَصْحَبَكِ معى يا حبيبتى. ولكن ليس هذه المرَّةِ، رُبَّما فى مَرَّاتٍ قادمةٍ. حين تصبحين أكبرَ سِنًّا.

تقلَّص وجهُ كارولين وارتسم عليه الغضبُ وعدم الرضا وقالت: "ألا تستطيعُ الانتظارَ حتى تصبحَ أنت أكبر سِنًّا؟"

– كلَّا، ليس فى رحلةٍ من هذا النوع. فأنتِ تزدادين قوةً

Twitter: @alqareah

يومًا بعد يوم، ولكنِ بعد سِنٍّ مُعيَّنةٍ تبدأ الساقان فى الضعف ويصيبهما الوَهَنُ.

أصرتْ على رأيها وقالت: "ولكنك لستَ مجبرًا على الذَّهاب".

– نعم، أعلم ذلك. فأنا الذى اخترتُ الذَّهابَ. وأنا محظوظٌ لأن بإمكانى الاختيار. فإن لم أسافرْ سأشعرْ بالأسف لأننى لم أُحْسِنْ استغلالَ هذه الفرصة.

حدَّقتْ غاضبةً وهى تزمُّ شفتيْها وقالتْ: "إنه اختيارٌ أحمق. لِمَ لا تختار البقاء هنا – معى ومع ق.ن.؟". ثم مشتْ بخُطُواتٍ حازمةٍ تدلُّ على التصميم نحو الباب. ألقتْ عليه نظرةً خاطفةً وسارتْ خارجَ الغرفة.

جلس على السرير وهو يَفْرُكُ جبينَه بيده. نظر نحوى مُتعمِّدًا ثم نحو البُحَيْرةِ التى تظهر من وراء النافذة وقال لى: "لا تقلقْ يا ق.ن. كُلُّ شيءٍ سيكونُ بأحسنِ حالٍ".

نظرتُ إلى عينيْه. يبدو ثَمَّة عمقٌ فى داخلهما، كما لو أن بإمكانى السقوط داخلهما، نحو محيطٍ من فِكْرٍ لا نهايةَ له. آسيا، لقد سمعتُ هذا الاسمَ من قبلُ فى حوضى القديم. هذا ما كُتب على اللافتة المُلْصقَة عليه للتعريف بفصيلتى وبمَوْطِنى «بومبينا أورينتاليس... من آسيا» فأنا إذًا أنتمى إلى هناك، بشكلٍ ما... قبل أن أكونَ نُقْطةً سوداءَ داخلَ بُوَيْضةٍ.

حوَّل عينيه نحوَ شىءٍ بعيدٍ. بَدَتا وكأنهما تضيئان كالمنارة تهتديان ببريقٍ خارجٍ من أفكاره. تتبَّعتُ نظراتهِ وهى تتَّجه خارج النافذة نحو البحيرة. كنت أراه فى السابق مجرَّدَ إنسانٍ يتحرك حولَ الغرفة على ساقيْن بلا رُوحٍ. أمَّا الآن، فقد أصبح بإمكانى أن أراه مُهْتمًّا بشىءٍ أبعدَ من الأمن والراحة والأمان الذى يتحقَّق له فى الداخل، فها هو ذا أيضًا يفكر بأن يكون بَرِّيًّا.

شَعَرْتُ بأننى طالما أنعمُ بالسعادة والهناء بالعيش بالقرب من كارولين فى البيت، فلن يتحقق لى أبدًا التعرُّف على مغامرة الوجود فى الخارج. لن أستمتَع بحُرِّيَّة العيش بالقرب من بركة، ولا بالشعور بالراحة وأشعة الشمس الدافئة تنعكس مباشرة على ظهرى. لن يُتاح لى، إطلاقًا، وأنا فى الداخل، الإحساسُ بقِلَّة الراحة الناتج عن الجوع والعطش ثم متعة الاستمتاع حين أتمكَّنُ من تحقيق هذه الرغبات. لن يعترينى أبدًا الشعورُ بالرُّعْبِ والخوفِ من ثعبان. ولا بالإثارة وأنا أهرب من مخالب صقر ينقضُّ غاطسًا ليلتَهمَنى. ما المغامراتُ التى يمكن أن تصادفَ ضفدعًا يعيش داخلَ حَوْضٍ زُجاجِىٍّ مُريحٍ؟ هذا ما ليس لى به علم. أمَّا ما يمكن أن يمتدَّ أمامه فى الخارج، فى الطبيعة، فأىُّ شىءٍ وكُلُّ شىءٍ.

Twitter: @alqareah

خَطرَتْ لى فكرةٌ خطيرةٌ بخطورة مُعْتَدٍ مفترسٍ يتسلَّل نحو عُشٍّ وينسلُّ إلى داخله ليبحث عن شيء يفترسه.

فكَّرتُ وبحثتُ فى كافَّةِ المخاطر وعواقبها، فى الصعوبات وكيفية مُجابَهتها، فى الإثارة والحرية. فإن كان باستطاعتى أن أرحلَ، أن أهاجرَ بجسدى؛ وأن أصْبحَ جزءًا من هذا العالم المزدهر الذى يحيا ويتنفس؛ إن كان بإمكانى العودة إلى مكانٍ سبق وكنتُ فيه وبإمكانى أن أكتشفَ ما يمكنُ أن أكونَ عليه؛ إن كان باستطاعتى أن أكونَ على مسرح الحياة بدلًا من الاكتفاء بالمشاهدة من وراء الزجاج – إذًا فسأفعلُ – سأختارُ أن أكونَ بريًّا.

Twitter: @alqareah

3

"لا يمكنُ تجنُّب السفر والانتقال إلى بيتٍ جديدٍ. فهذا جزءٌ من مسيرة الحياة مثله مثل ذوبان الثلوج التي تغذِّي الأَنهارَ في الربيع". هذه كلماتٌ من أَقوال الضفدع العجوز. حدثَّنِي ووصف لي أنه في كُلِّ لحظةٍ من النهار وخلال كل يومٍ من أيام السنة، ثَمَّةَ أسرابٌ من الطيور تحلِّق في السماء وقطيعٌ من الحيوانات يجري على الأَرض، كلها تسافر عائدةً لزيارة مَوَاطِنِها الأَصلية وبيوتها التي قام الأَسلافُ المنسِيُّونَ بتأسيسها. فالهجرةُ لم تكن يومًا رحلةَ استكشافٍ؛ إنها وبشكلٍ دائمٍ عودةٌ إلى الأَصل. عودةٌ إلى مكانٍ مَنْسِيّ، وبالرغم من ذلك، يمكن تذكُّره حالَ الوصولِ إليه. هناك مغامرةٌ وغموضٌ في هذه الحركة. ولكنْ لو أَنني في الخارج، لو كنتُ بريًّا، إلى أَين سأَرغبُ في العودة؟

Twitter: @alqareah

كانت كارولين تنتقل بين بيتين. كانت تمضى عِدَّة أيام فى منزل والدها ثم تمكثُ فترةً فى منزل أمِّها. كان هذا النمط يتكرر بشكلٍ نظامِىٍّ وطبيعىٍّ ومُتوَاصِل. وهذا ما جعلنى لا أعطيه أىَّ اهتمام أو أهميَّة.

كان والدُها يرعانى أثناء غيابها. وحينما تعود كانتْ تُحيِّينى بسلام حارٍّ وتمنحُنى بعضًا من الجرادِ. ولكن بعد أن عرفتُها بشكلٍ أفضلَ وبدأتُ أفهم معنى التعبيرات التى ترتسم على وجهها، أدركتُ أن هذا الانتقالَ يسبِّب لها الاضطرابَ والقلقَ.

وفى المساء، وقبل أن تستسلمَ للنوم كانتْ، أحيانًا، تتحدَّثُ معى من تحت أغطية سريرها وتسألنى أسئلة عن والدىّ. كانت تريد أن تعلم أين يعيشان وإن كنت أفتقدهما. وهل كانا يعيشان فى بحيرةٍ واحدةٍ أم فى بحيرتين منفصلتين.

كانت مثلُ هذه الأسئلة تُضْحِكُنى؛ ولكنى كنت أكتفى بهَزِّ رأسى مستغربًا عدم إدراكها لحياة الضفادع. فنحن لا نفكر بوالديْنا أبدًا. نحاولُ منذ اللحظة التى نبزغُ فيها من داخل البيضة أن نبتعد أكثر ما يمكننا الابتعاد عنهما. لا نرى فى وجودنا بالقرب منهما أيَّةُ فائدةٍ أو مصلحةٍ، فهما - فى أغلب الأحيان - يحاولان التهامنا. تنتهى مَهمَّةُ الوالديْن بعد الإخصاب، ووجودُهما بالقرب ليس أمرًا سارًّا. فالضفادع فى الأساس أيتام...

Twitter: @alqareah

جَلَستْ فى سريرها وتطلَّعتْ خارج النافذة وأَسرَّت لى: "تُرى، ما الذى يحدث لو هربتُ خارج المنزل وذهبتُ للعيش بالقرب منَ البحيرة؟" أمسكتْ بدُبِّها المُفضَّل وضمَّتُه إلى صدرها وأكملتْ: "هل تظنُّ أن ماما وبابا سيأتيان معًا للبحث عنى؟ هل سيوافقان أن نعيشَ كلنا معًا على حافة البحيرة؟" تَرَقْرقتْ دمعةٌ وانسابتْ على خَدِّها، فيما كانت تخبِّئ رأسَها تحتَ مخدَّتها.

سَمعتُ أصواتَ خُطُواتِ والدها وهى تقتربُ. جلس بالقرب منها على السرير وربَتَ على ظهرها برِقَّةٍ ولُطْفٍ. سألها: "ماذا بِك يا عزيزتى".

جَلَستْ على السرير ومَسحتِ الدَّمعَ عن خَدِّها بيدها وقالت: "لا شىء".

سألها: "هل أنت متأكدة؟"

قالت: "حسنًا... من الصعب أن أعيش مُتنقِّلةً من مكانٍ إلى آخرَ".

– أعلم أن هذا صعبٌ ولكن تذكِّرى دائمًا أننى وأمك نُحبُّك كثيرًا وهذا هو المهم.

– أعلمُ ذلك... هذه ليست هى المشكلة.

– إذًا ما هى؟

– أريد أن أكون فى المكانين فى الوقت ذاته، معك ومع أمى.

Twitter: @alqareah

– أعلمُ ذلك.

– أشعرُ، فى بعض الأحيان، بسعادةٍ فائقةٍ ورضًا ولا أرغب سوى البقاء فى غرفتى هنا، وفى أحيانٍ أخرى، حين أكون مع ماما أشعرُ بأن كل ما أُريدُه هو البقاء معها... لا أعلمُ يا بابا من منكما أحبُّه أكثر.

التزم والدُها الصمتَ وتطلَّع نحوى. طرفتُ له بعينى ببطء.

قال: "إنه سؤال من الصعب الإجابة عنه".

– لا تُجْهِدْ نفسك...

قاطعها قائلًا: "كارولين، حين تكون الأسئلة، فى بعض الأحيان، شديدةَ الصعوبةِ، فالمشكلةُ لا تكون فى العثور على جوابٍ لها، بل فى البحثِ عن سؤالٍ مختلفٍ. سؤال من الممكن إدراكُ المراد منه واستيعابهُ".

أراحتْ ذقنَها على كفِّ يدها وضَغطتْ بأصابعها على خدِّها والتفتتْ نحو والدها.

مشى باتجاه خِزَانةِ الحائط، وأخذ زوجًا من الأحذية من نوع «المُقَسِين»، الذى ليس له كَعْبٌ ومصنوع من جِلْدٍ ناعم، ووضعهما أمامها.

سألَتْهُ: "ماذا تفعل؟"

– أيَّةُ فَرْدةٍ تُحبِّينها أكثر، اليُسْرَى أم اليُمنَى؟

Twitter: @alqareah

– ماذا تعنى يا بابا؟ إنهما مثل بعضهما البعض، لا فرقَ بينهما. قالت هذا وهى تُقطِّب حاجبيْها.

– كلَّا ليس تمامًا. فأنتِ لا تستطيعين ارتداءَ الفردة اليُسْرَى بدلًا من اليُمْنَى. ولا العكس... هل هذا صحيح؟

– أتصوَّر أنه لا يمكننى.

– إذًا ليس عليكِ أن تفكرى أيَّةُ فردة حذاءٍ تفضّلِين. بإمكانك أن تلبسى الفردة اليُمنَى وتقفزى على قَدَمٍ واحدةٍ، أو تفعلى الشىء ذاته بالقدم اليُسْرَى ولكنك – فى الحقيقة – بحاجة لكلتيهما، خاصَّةً، إن كان عليك السير خلال مجموعةٍ من الصخورِ الحادَّةِ. فأنتِ لَسْتِ فى حاجةٍ لاختيار واحدةٍ منهما.

أخذتْ زوجَ الأحذية من والدها وأدخلتهما تحت الأغطية ولبستهما ثم قالت: "سأنام هذه الليلة وأنا أرتدى فردتَىْ حذائى".

قَبَّلها. واستسلمتْ للنومِ.

يمكننى الالتفافُ حول نفسى مثل حشرة القبّان كثيرة القوائم والتى تلتفُّ حول نفسها حين تشعرُ بالخطر، أخبِّئ قدمَيَّ الناقصتين تحت جسمى، أُخفيهما كما يختفى الحلزون داخل قوقعته. لا أترك مجالًا لأقلِّ هَمْسةِ صوتٍ أو أشعَّةِ

Twitter: @alqareah

شمسٍ أن تتخلَّلَ أو تنفُذَ إلى داخلى. أو يمكننى التلويحُ بقدميَّ الناقصتين فى الهواء أعرضهما على أىِّ واحدٍ وكلٍّ واحد دون خوفٍ أو وَجَلٍ... يمكننى وقبل أن أجازف بالظهور أن أتأكدَ بأن ما من عينٍ ترقُبنى وأزحف مُتسلِّلًا، أو يمكننى أن أعلن عن حضورى بإطلاق نقيقٍ عالٍ وأظهر قدمى الناقصة قبل أن تسنحَ الفرصةُ لأحدٍ أن يبادرَنى بالسؤال. تُرى أىُّ الأسلوبين أفضل؟ لو كان الضفدع العجوز حاضرًا كنت سأسأله.

ولكننى الآن وحدى بدون مستشارٍ. يجب أن أقرِّر بنفسى. يبدو أن كِلَا الاختياريْن، إظهارِ الحافَّةِ القاسية لقدميَّ الناقصتين أو إخفائِهما، لن يُفْلِحَ فى إنهاءِ يومى بابتسامةٍ بدلًا من دمعةٍ.

Twitter: @alqareah

4

تتعاقبُ الأسئلةُ فى ذهنى جِيئةً وذَهابًا مثلَ حركةٍ رقيقةٍ مُرْهَفةٍ لأوراق الطحالب البَحْريَّة التى حملها مدٌّ عالٍ إلى الشاطئ، ثم تُركتْ لتجفَّ وتطيرَ وتتبدَّدَ. مَنِ الذى يعيش فى منزل الأمِّ غير كارولين؟ هل بإمكانهم رعايةُ ضُفْدَعٍ؟ أم أنهم من المشاغبين الذين يتسلَّون بالنقر على الزجاج لتحريضى على الوثبِ فى الهواءِ؟ هل سيسخرون من قدمىَّ الناقصتين؟ هل سيلكُزُونَنى بالعِصِىِّ؟ أم أنهم سيحاولون دفعى لأنقلبَ على ظهرى لينظروا إلى بطنى؟ لو كنتُ أعيشُ فى الغابة، لو كنت بَرِّيًّا، لما أزعجتنى مثلُ هذه الأسئلة. حينئذٍ لن يتَّخذَ أحدٌ قراراتٍ غيرَ مرغوبٍ فيها بالنيابةِ عنِّى، لأننى سأكونُ المسئولَ عن اختيار المكان الذى سأنتقلُ إليه والمُدَّةِ التى سأقضيها فيه.

Twitter: @alqareah

جلستْ كارولين على سريرها، وقد ضَمَّتْ ذراعيْها وربَّعتْ ساقيْها، وارتَسمتْ على وجهها نظرةٌ جادةٌ. نادتْ والدَها قائلةً: "تَعالَ يا بابا، أُريدُ أن أتحدَّثَ معك فى بعض الأمور المُهِمَّةِ قبلَ سفرِكَ إلى آسيا".

تابعتْ وقد جلس والدُها بقُرْبِها: "سيحلُّ يومُ عيدِ ميلادِ ماما فى اليوم التالى لسفرك. هل يمكنُ أن نشترىَ لها كعكةً مِنَ الحَلْوَى؟ كعكةً بنَكْهَةِ الليمونِ مُغطَّاةٍ بطبقةٍ من كريمة الزُّبْدَةِ المخفُوقَةِ. كعكة بسيطة وغير مُزيَّنة، حتَّى يمكننى أن أزيِّنَها بنفسى".

قال الأبُ: "بالتأكيد. إنها لَفْتةٌ جميلةٌ منك. ستسعدُ أمُّكِ كثيرًا".

– أعلم ركنًا جيدًا فى الدور السفلى فى منزلها حيث يمكننى أن أخبِّئَ الكعكة، وسأفاجئُها بها حين تعود إلى المنزل.

– لقد فكرتِ بكل شىء. إنه ترتيب ممتاز. سنشترى واحدة فى وقت ما بعد خروجك من المدرسة وسأنقلها إليكِ يوم سفرى.

– هذا حَسَنٌ... لدىَّ رجاءٌ آخَر. أريد منك أن تنقلَ ق.ن. غدًا إلى منزل أمى ليعتاد على الإقامة فى بيته الجديد قبل مغادرتك.

انتصبت كارولين على ساقيها واقتربت من حوضى، ثم

Twitter: @alqareah

قالتْ: "عليك توخِّى الحرص أثناء نقله. هل ترى هذه الصخور الضخمة ها هنا؟"، وأشارت إليها ثم أكملت: "إنها خَطِرةٌ. يمكن أن تؤذيه".

انحنى الوالدُ وأخذ يتطلَّع إلى داخل الحوض متفحصًا، وتساءل: "خطرة؟"

– نعم، فأنت تعلم أن ق.ن. يحب أن يختبئ، وأخاف أن يصادفك الكثير من المطبات والهزات أثناء الانتقال، فإذا ما تحركت إحدى الصخرات من الممكن أن تسحقه كما يحدث أثناء الزلزال.

– سيكون بأحسن حال. فهى ليست سوى رحلة قصيرة...

قاطَعَتْهُ قائلةً: "ولو، ضعه فى وعاء منفصل حين تنوى نقله. وعاء بلا صخور".

انحنى إلى الأمام وضم كارولين وهو يقول: "لا تقلقى يا عزيزتى إنها مسافة قصيرة وسأكون فى منتهى الحرص".

دفعته بعيدًا عنها بلطف وهى تقولُ: "لا أريد ضفدعًا مسطحًا أو مسحوقًا".

ضحك كُلٌّ من الأب وكارولين. وانكمشتُ خوفًا.

قال الأب: "سينتقل ق.ن. ليس فقط فى إناء خاص، بل فى سيارة جديدة أيضًا".

– ماذا؟ أنا أحب سيارتك القديمة.

Twitter: @alqareah

– نقلتُ سيارتى القديمة إلى الورشة لإصلاحها. اصطدمتُ اليوم بسائقة مهملة، لا تحمل رخصة للقيادة. لحُسْنِ الحَظِّ لم يتعرَّضْ أحدٌ للأذى، ولكنَّ الفتاةَ وقعتْ فى بعض المشاكل. وهكذا كما ترين لدىَّ الآن سيارة حمراء جديدة وظريفة.

– همهم... حسنًا... إنه لحظ جيد، ففارس مثل ق.ن. لا يليق له الانتقال إلَّا فى سيارة جديدة.

أجابها فى نبرةٍ مؤكِّدةٍ: "هذا شيءٌ لا جدالَ فيه".

ثم ابتسم وقبَّلَ كارولين فوق رأسها.

شعرتُ بقلق شديد فى هذه الليلة وحَلُمْتُ أحلامًا مضطربة. ما الذى يمكن أن يحصل لى فى بيتى الجديد؟ ظلَّ عقلى يلف ويدور حول نفسه إلى أن صحوتُ على غير انتظار على صوتِ والدِ كارولين.

كان يحمل بين يديه، متباهيًا، إناءً من الزجاج الشفاف عَرَضَهُ علىَّ وهو يقول: "أزِفَ موعدُ انتقالِك. سأضعُك داخل هذا الإناءِ".

وبينما كنتُ أنظر إلى يديه وهى تطوِّق الإناء الزجاجى، أحسستُ فجأةً أن هذه الهجرة الفجائية إلى منزل الأم فكرة سيئة للغاية. كان الإناء باردًا وصغيرًا. لم يكن بإمكانى

Twitter: @alqareah

الاختباء فى أى مكان ولا توجد داخله أيَّةُ نباتات باردة لأجلس عليها ولا ماء لأرشَّ نفسى.

وضع الشَّبَكَةَ داخل حوضى وهو يقول: "آن وقتُ الذَّهابِ".

جلستُ من غير حراك. لم أكن أنوى الجلوسَ فى ذلك الإناء الصغير المقلوب والمنتفخ.

– تَعالَ يا ق.ن. ادخلْ إلى الشبكة.

دفعتُ نفسى بعيدًا نحو الحَصَى. وضع الشبكة مباشرةً أمام وجهى ووضع يده ورائى ونقرنى بإصبعه. وضعنى فى الإناء وأحكم وضع الغطاء فوقه.

وبينما كان يحملنى خارج المنزل، شاهدتُ الوَهَجَ اللَّامِعَ لشمسِ الأصيلِ ينيرُ العُشْبَ والأشجارَ. فى مكان ما على البُعدِ، كانت البركة التى كثيرًا ما شاهدتها من النافذة. لو أن بإمكانى الهروب، لو أنه تعثر وأوقع الإناء سأقفزُ بعيدًا وأتحرَّرُ. دُرْتُ حولَ نفسى فى كل اتِّجاهٍ. أُحاول أن ألقىَ نظرةً خاطفةً على ما يكمن وراء الأشجار، فالعالمُ الخارجىُّ قريبٌ جدًّا منى. كان بِوُدِّى أن أُجرِّبَ الشعور بأن أكون هناك ولو لِبُرْهةٍ قصيرةٍ.

توقف الأبُ قليلًا وتطلَّع إلىَّ وقال: "اهدأ وتوقف عن الوثب"، وأضاف: "كُلُّ شىءٍ سيكونُ على ما يُرَام".

Twitter: @alqareah

حملنى واتَّجه نحو سيارة حمراء لامعة. فتح الباب ووضع الإناء على أَرض السيارة المفروشة بالسَّجَّادِ وراءَ مقعد السائق. أَخذتُ فى الوثوبِ حولَ الجوانبِ الزجاجيَّةِ للإناءِ الشَّفَّافِ إلى أن أنهكتُ وسقطتُ بلا حِرَاكٍ غيرَ مُبَالٍ بشىء.

عاد بعد فترة يحمل حوضى ووضعه إلى جانب الإناء. تطلَّعتُ من خلال الزجاج إلى عالَمِى الصغير والمريح. بَدَا الحَصَى رَطبًا ومُغْرِيًا والماءُ منعشًا والصخورُ الضخمةُ توحى بالحماية والأمان. كنتُ أَودُّ أن أَكونَ فى داخلِه.

قال لى: "لا تقلقْ يا ق.ن.، سأقودُ السيَّارةَ لمسافةٍ قصيرةٍ وستعودُ بَعْدَهَا إلى بَيْتِكَ".

Twitter: @alqareah

5

دارتِ السيَّارةُ دورةً حادَّةً فجائيَّةً قلبتِ الإناءَ على جَنْبِهِ. مال على الأرضِ واصطدم بجوانب حوضى الزجاجى. هويتُ وانقلبتُ فى داخله وارتطمتُ بعنفٍ بزجاجِ الإناء إلى أن أصِبْتُ بالدَّوْخةِ والذهول وفقدتُ الإحساسَ بالمكانِ والزمانِ. كان الإناء يتأرجح جيئةً وذَهابًا مع كل حركة تصدُر عن السيارة. يقذفنى بين جوانبه بغير اكتراث. حاولتُ أن أمدَّ قوائمى وأسندَ نفسى؛ ولكن كان هذا مجهودًا بلا جَدْوى - كنت محاطًا بفراغ. شَدَدْتُ قوائمى بقُوَّةٍ إلى صدرى وتكوَّرْتُ حول نفسى مثل كرة. استسلمتُ للَّفِّ والدورانِ من جَنْبٍ إلى جنبٍ ومن بَطْنٍ إلى ظَهْرٍ أحاولُ أن أتجاهلَ ما يحدث.

وفجأةً شعرت بشىء خشن ومرن على قائمتى الخلفية. فتحتُ عينىَّ وبحرصٍ تطلَّعتُ نحو هذا المُتطفِّل الغريب. بدأ الغطاءُ

Twitter: @alqareah

البلاستيكىُّ فى التزحزح بعيدًا عن حافة الإناء، وبدأت سَجَّادةُ السيارةِ تضغطُ إلى داخلِ الإناء الذى انفتح الآن. مَدَدْتُ ببطء قائمةً من قوائمى ولمستُ الأرضَ. كانت صُلْبَةً ومريحةً.

هِزَّةٌ أخرى وانقلبتُ من جديدٍ على جنبى. عدلتُ نفسى بسرعةٍ وزحفتُ ثانيةً نحو الفتحة. بَدَا لى حيِّزُ الإناءِ وكأنَّه اتَّسعَ بسبب استمرارى فى الدوران. مددتُ قدمى ولامستُ السجادةَ وأحسستُ بمَلْمَسِ نسيجها الكَثِّ والخَشِنِ الذى احتكَّ بجسمى.

هِزَّةٌ تاليةٌ. أصبح الآن بإمكانى وضع قدميَّ الأماميتين فوق أرضية السيارة. كان نسيج السجادة مغريًا وغيرَ عاديٍّ. لامستهُ بِخفَّةٍ بقدمى؛ فدغدغنى. أردت أن أستمتعَ بإحساسِ السجَّادةِ وهى تحتكُّ بظهرى.

هِزَّةٌ ثالثةٌ ثم فجأةً، فرقعة «پلوپ»! انزاح الغطاءُ عن الإناء الزجاجىِّ كُليًّا. تذبذب لفترة مرتعشًا ثم استقرَّ على الأرض منبطحًا. جلستُ على حافة الإناءِ للحظةٍ وتطلعتُ نحو مساحةٍ مفتوحةٍ لم أتوقَّع أبدًا أن أراها. زحفت نحو أرض السيارة وراقبت الإناء وهو يلف ويدور بدون هدف. وفجأةً توقَّفتِ السيارةُ عن الحركةِ وسكنتْ. واستقرَّ الإناءُ على جنبه.

قال الأبُ: "ها قد وصلنا". ثم خرج من السيارة وأغلقَ البابَ. تحركتُ بسرعةٍ باتِّجاهِ الإناءِ. كان بإمكانى أن

Twitter: @alqareah

أزحفَ بمنتهى السهولةِ إلى داخله وأتصرَّفَ كما لو أن شيئًا لم يحدثْ. كان بإمكانى فعل هذا؛ كان بإمكانى الاختيار. تطلَّعتُ إلى حوضى، ها أننذا فى الخارج قادرٌ على السير حول الحافات أنظُرُ وأتفحَّصَ هذا المكانَ الصغيرَ المغلقَ الذى عشتُ فيه لمدةٍ طويلةٍ.

اتسعتْ عيناىَ حينَ خَطَرَ لى خاطرٌ فُجَائِىٌّ غيرُ مُنْتظَرٍ: بإمكانى أيضًا أن أزحفَ بعيدًا وأختبئ.

هذا ليس ما كان يريده كُلٌّ من كارولين ووالدها، ولكننى لم أكن راغبًا فيما يريدون. انتابنى فجأةً شعورٌ بالذَّنْب. ولكن ما الخطأ الذى ارتكبتهُ؟ كان من المفروض أن أكونَ الآن داخلَ الإناء. كان انقلابُه وانفتاحُ الغطاءِ بمَحْضِ الصُّدْفَة. سيتفهَّمانِ الأمرَ. كُلُّ ما هنالك، أننى كنتُ أبحثُ عن وسيلةٍ لأنقذَ نفسى حتَّى لا أهْوِى وأنكفئَ. كنتُ خائفًا. تَملَّكَنِى شعورٌ غامرٌ بالرعبِ، وهذا ما دعانى لأن أختبئَ.

صدح صوتُ كارولين ينادى عن بُعْدٍ: "سأكونُ معك يا بابا فى الحالِ".

كثيرًا ما كان ينتابُنِى القلقُ من احتمال الوقوع على الأرض أو من الشعور بالاضطراب خوفًا أن ينسى أحدُهما إمدادى بالطعام، أو يتملَّكُنِى الرعبُ من فكرةِ خروج السيد ثعبان من قفصه ليزورَنِى.

Twitter: @alqareah

ولكنَّ هذا الخوفَ الذى أحسُّه الآن مختلفٌ. أكثرُ خصوصيةً. أكثر تمييزًا. فهو لا يأتينى من الخارج. لم أكن خائفًا من كارولين أو من والدها. لم أكن خائفًا من أذًى قد يسببه شخص أو شىء ما. كنت خائفًا من نفسى. كنت خائفًا من الاختيار الذى قد أتَّخِذُه.

سمعتُ صوتَ خطواتِ الوالد تسحقُ الحَصَى الذى يغطِّى المَمَرَّ المُوصِّلَ إلى منزلِ الوالدةِ. رفع مقبض الباب الخلفىِّ للسيارةِ.

لو مكثتُ فى مكانى سأكملُ مسيرة حياتى كسابق عهدى أنْعمُ بالأمن والرفاهية. سيرانى الوالدُ على أرضيةِ السيارةِ خارج الإناء. سيشعرُ فى تلك اللحظة بالدهشةِ ثم سيضعُنِى ثانيةً فى حوضى الزُّجَاجىِّ. هذا كل ما سيحصُل. ولن يَعْقُبَ هذا أىُّ شىءٍ ذى أهمية. ولكن إذا اختبأتُ لفترةٍ وجعلتُهم يبحثون عنِّى، حينئذٍ، سيصبحُ بإمكانى التحكُّمُ فى حياتهم. أحسستُ برجفةٍ تعترينى.

مشتْ كارولين باتِّجاه السيارة وألصقتْ رأسها بالنافذةِ الخلفيَّةِ.

قال الوالد: "ق.ن. تحت المقعدِ الخلفىِّ للسيارةِ".

– أين؟

– فى الإناءِ الزجاجىِّ. وضعتهُ فيه حرصًا عليه أثناءَ نَقْلِهِ.

– لكن يا بابا الإناءُ فارغٌ!

Twitter: @alqareah

لفَّ بسرعةٍ وفتحَ البابَ الخلفيَّ وقال: "ماذا حَدَثَ؟"، كان صوتهُ هادئًا ومُتكلَّفًا، وأردفَ: "لا بد وأن الغطاءَ البلاستيكيَّ انزاح عن الإناء".

بدأتْ كارولين بالبحث حول الإناء وهى تقولُ: "أُعلمُ هذا يا بابا ولكن أين ق.ن.؟"

– أنا مُتأكِّدٌ أنه بالسيَّارةِ. يجبُ أن يكونَ موجودًا. لا بد وأنه يختبئ فى مكانٍ ما.

زحفتْ كارولين من جانبٍ إلى الجانب الآخر أمام المقعد الخلفى للسيارة وهى تناديني. وبينما كانت تُجَرْجِرُ رُكْبتَيْها فوقَ نسيجِ السجَّادةِ مَدَّتْ رأسها فوق الحافة ونظرتْ تحتَ المقاعدِ الأماميَّة، وهى تقول: "كيفَ حصلَ هذا؟"

هزَّ الوالدُ كتفيْه مستغربًا، ثم التقطَ الإناءَ الفارغَ والغطاءَ وأخذ يتفحَّصُهما كما لو أن بإمكانهما أن يُقدِّما له دليلًا، ثم قال مُخمِّنًا: "إنه على الأرجح يختبئُ فى زاويةٍ مظلمةٍ. اذهبى واطلبى من والدتك مِصْبَاحيْنِ كَهْرُبائِييْنِ".

كان بإمكانى أن أزحفَ وأظهرَ نفسى ولكن لم يَعُدْ باستطاعتى فِعْلُ ذلك، كما لا يمكنُ لشخصٍ أن يقطفَ تفاحةً ويتذوَّقَها ثم يحاولَ إعادتَها ثانيةً إلى الشجرةِ. لاحظتُ فتحةً فى السجادة حيثُ يتَّصلُ مقعدُ السائقِ بالأرضِ. زحفتُ نحو شِقٍّ صغيرٍ جدًّا ودسستُ نفسى بين مَعْدِنٍ دافئٍ أمْلسَ وجلستُ أنتظرُ.

Twitter: @alqareah

وجَّها أنوارَ المِصباحيْن نحوَ كُلِّ شِقٍّ أو صَدْعٍ تَمكَّنا أن يصلا إليه. الوالدُ من جهة الشمالِ وكارولين من جهة اليمين. استمرَّ شعاعُ النورِ لفترةٍ طويلةٍ يتراقصُ فوقَ الأَرضِ ويتقاطعُ أمامَ وجهى؛ ولكنِّى كنتُ مختبئًا بشكلٍ جيدٍ.

قالتْ كارولين: "على الأرجح، إنه خائفٌ".

قال الأَبُ: "لا تقلقى. لا يوجدُ إلَّا بِضْعةُ أَماكنَ بإمكانه الاختباءُ داخلها. لا بد سنجده. منَ المُؤكَّدِ أنه تحتَ المقعد".

أَجابتْهُ بإلحاحٍ: "بل، رُبَّما أنه قفزَ إلى الخارج حينَ فتحتَ البابَ". أَكَّدَ لها وهو يتطلَّعُ حول محيطِ السيارةِ: "كلَّا، هذا مستحيلٌ يجبُ أن يكونَ فى داخلِ السيارةِ".

وبعد أن استمرًّا فى البحثِ لفترةٍ طويلةٍ؛ جلسَ الأَبُ إلى جانبِ كارولين على المقعدِ الخلفىِّ وأَطفأَ نورَ المِصْباحِ وقال: "سنجدُه. ولكن اقتربَ الآن مَوْعِدُ نَوْمِك وأُمُّكِ فى انتظارِكِ".

– لكن يا بابا يجبُ أن نفعلَ شيئًا ما.

– أنا مُتَّفِقٌ مَعَكِ؛ ولكنَّنا بحاجةٍ لأن نغيِّر الخُطَّةَ. إن لم يكُنْ بإمكاننا العثورُ على ق.ن. علينا أن نجعلَه هو الذى يعثرُ علينا.

– ماذا تعنى؟ ماذا ستفعلُ؟

قال: "لستُ متأكِّدًا بَعْدُ. أحتاجُ لبعضِ الوقتِ لأفكِّرَ فى خُطَّةٍ".

Twitter: @alqareah

- ولكن يا بابا...

- سأفكرُ بشيءٍ ما. أعِدُك بهذا. سأضعُ خُطَّةً لا يمكنُ لأيِّ ضُفْدَعٍ أن يقاومَها.

Twitter: @alqareah

6

قال الوالدُ وهو ينحنى إلى أرض السيارة إلى جانب الباب وينظرُ إلى أسفل مقاعد السيارة ثم يمسكُ من جديدِ الإناءَ الزجاجيَّ يديرهُ بين يَديْهِ وهو يهزُّ رأسَهُ: "أين أنتَ؟ وكيف خرجتَ؟ بَدَا القلقُ واضحًا فى صوته".

أزاح الإناءَ الزجاجيَّ والحوضَ من داخل العربةِ وبدأ البحثَ من جديدٍ مستعينًا بنور المِصْباحِ. أخرجَ دَوَّاساتِ السيارةِ وأوراقًا متفرِّقةً مبعثرةً وخرائطَ للطريقِ وأدواتِ تنظيفِ الزجاجِ الأماميِّ للسيارةِ – كُلّ شيءٍ تمكَّنَ من أن يمسكَه وهو يتذمَّرُ مُدَمْدِمًا طوالَ الوقتِ، مُسبِّبًا أثناءَ البحثِ الكثيرَ منَ الضَّجَّةِ والضوضاءِ. توقَّفَ عن التنقيبِ الدقيقِ. جلسَ وأخذ نَفَسًا عميقًا وهو يقولُ: "تعبتُ من البحثِ. آن وقتُ الخروجِ من مَخْبئِكَ".

Twitter: @alqareah

ما الذى يجعلنى أتصرفُ بهذا الشكل؟ بلا ريبٍ، لم أكن أنوى الزحفَ والظهورَ ليمسكَنِى مثلَ ورقةٍ قديمةٍ ويزجُّ بى من جديدٍ داخلَ الحوض الزجاجىِّ. فالاختباءُ كان يُشْعرِنُى بأهميَّتِى. بالإضافة إلى ذلك، هل نسى الخُطَّةَ التى ذَكَرها؟ الخطة التى قال عنها بأنه لن يمكن لأىٍّ ضفدعٍ أن يقاومَ إغراءها. هذا ما كنتُ أرغبُ فى معرفتهِ؛ هذا ما كنتُ أنتظرهُ متلهفًا.

استمرَّ فى البحث لفترةٍ أطولَ ثم توقَّفَ فجأةً وانتصبَ واقفًا وحدَّثَ نَفْسَه بصوتٍ عالٍ: "نحن بحاجةٍ للقيامِ برحلةٍ قصيرةٍ، بعدها، لا بد وأنك ستظهر".

قاد سيارتَه إلى مكانٍ ما وهو يُصفِّرُ طوالَ المسافة ويتمتمُ بين الفَيْنَةِ والفَيْنَةِ: "سأقبضُ عليك"، ثم أوقفَ السيارةَ وخرج منها وتركنى أتساءل محتارًا، تُرَى ماذا يفعل؟ عاد بعد فترةٍ صغيرةٍ وهو يمسك بيده شيئًا يصدُر منه صوتٌ ضعيفٌ ومألوفٌ. وضعه على المقعد المجاور لمقعده وقال: "هذا ما سيغريك بالظهورِ".

شعرتُ بفضولٍ شديدٍ. أردتُ أن أَلقىَ نظرةً متفحصةً. زحفتُ من تحتِ المقعد لمسافة قصيرة جدًّا وأنا أمدُّ جسدى إلى أطول مَدًى يمكن لضفدع أن يبلغه. حاولتُ أن أشاهدَ ما الذى جعله واثقًا ومرحًا بهذا الشكل. كان علىَّ أن أكبح نفسى حتى لا أبتعد

Twitter: @alqareah

لمسافةٍ أطولَ. لم أكن أريد أن أنساق وراء فُضُولى الذى سيُوقِعُنى ولا ريب فى الأَسْرِ - وهذا ما سيسهل الأمر عليه كثيرًا.

وحين رجعنا إلى بيته، خرج من السيارة وعاد بعد عدة دقائق وهو يحمل بين يديه شيئًا غريبًا جدًّا. وضع على أرض السيارة طَبقًا أحمرَ كبيرًا وقليلَ العُمْقِ مُغَطًّى لما يَقْرُبُ من بوصة بقطعٍ صغيرةٍ من الحَصَى جمعها من أسفلِ حوضى، ومعها بعضٌ من الصخورِ الكبيرةِ من النوعِ الذى أُحبُّ أن أختبئ تحته. نثر حول هذه الصخور بعضًا من النباتات، بما فيها ورقتى المفضلة من زنبق الماء. وُزِّعتْ كُلُّ هذه الأشياء من غير تنسيق وكيفما اتُّفِق، ومع ذلك، لا شك أنها كانت أكثر إغراء من السجَّادةِ الخشنة.

أُقفل باب السيارة وذهب إلى داخل المنزل ثم عاد بشكلين مستطيلين بمقاس طَبَقِ طعامٍ وبسُمْكِ ضفدعين. وفيما كان يضعهما داخل السيارة انبعث منهما بخارٌ متصاعدٌ. وضع أحد الشكلين تحت الطبق الأحمر ووضع الآخر بالقرب من باب السيارة وقال: "ستشعرُ هذه الليلةَ بالدفء".

ما هذا؟ حَمَّامُ بخارٍ لضفدعٍ! كان مُحِقًّا. شىءٌ لا يُقاوَمُ. انبعث بخار دافئ رطب من تحت ورقتى المفضلة من زنبق الماء. منتهى الرفاهية! دعوة لأرقد وسط صخورى التى اعتدتُ عليها وأحجارى المريحة. هذا بالقَطْعِ سيكونُ شيئًا استثنائيًّا ونادرًا.

Twitter: @alqareah

قال بطريقةٍ صبيانيةٍ محاولًا إغرائى: "هناك المزيد".

المزيدُ! وما الذى يمكن لضفدعٍ أن يريده أكثر من ذلك؟

تناول البضاعة الغامضة التى اشتراها من فوق المقعد الأمامى. كان يمسك بيده كيسًا بلاستيكيًّا شفَّافًا. كيس ممتلئ بالجراد يقفزُ ويثبُ ويُصْدِرُ صخبًا شديدًا من النوع الذى يفجر فى داخلى صورة من صور الإثارة جعلت عَيْنىَّ تَبْرُزانِ من مِحْجَريْهما.

وضع الكيسَ بحرصٍ بالقربِ من الطبقِ.

أووه. نعم! استسلمتُ. هذا إغراءٌ لا يمكن مقاومتهُ. أريد أن أزحف خارجًا وأمضى الليل كله نائمًا فى جَنَّةٍ ضُفْدَعيَّةٍ. أردتُ أن أبقى فى هذا المكان إلى الأبد، فى الرُّكْنِ الخلفىِّ لهذه السيارة. أعيشُ فوق هذا الطبق الأحمر بين صخورٍ دافئةٍ وملساءَ وورقة زنبقٍ خضراءَ ونضرَةٍ وكُلِّ هذه الكميَّةِ من القافزات والواثبات... كان علىَّ أن أمنعَ نفسى حتَّى لا أستسلمَ للقفزِ هنا وهناك فى تلكَ اللحظةِ.

انتظرتُ دونَ حِرَاكٍ لزمنٍ طويلٍ. كنتُ أريد أن أتأكَّدَ أنه لن يعود. وأخيرًا جازفتُ وخرجتُ من مخبئى وتسلَّقتُ متجهًا نحوَ الصخور الدافئة. شعرتُ براحةٍ ورفاهيةٍ كبيرةٍ. دَسَسْتُ جسمى داخلَ كُوَّةٍ صغيرةٍ ونسيتُ كُلَّ ما يمكنُ أن يسبِّبَ قلقًا أو همًّا.

Twitter: @alqareah

ومع هذا كانت هناك مشكلةٌ جوهريةٌ، فمع أننى كنتُ أجلسُ مسحورًا ومفتونًا بحركة الجَرادِ المُتَقافِزِ، تراودُنى فكرةُ ابتلاعى لثلاثِ أو أربعِ منها داخل بطنى وأَنا أستريحُ فوق صخور دافئة ملساء وفوقى ورقةٌ ناعمةٌ من زَنْبَقِ الماءِ، إلَّا أنه كان من الضروريِّ الحصولُ على الجَرادِ بطريقةٍ أو بأخرى.

حاولتُ أن أقرضَ الكيسَ ولكنها كانت فكرة سيئة. ليس لى أسنان، لدىَّ فقط ارتفاعٌ من لَثَةٍ ملساءَ. كل ما حققته أننى أسلتُ لُعابى على كيسٍ منزلقٍ بلا طعم. تطلعتُ حولى على الأرضِ أبحث عن شىء مثل خِلَّةٍ أو قلمٍ صغيرٍ يمكننى أن أرفعه بفمى لأهجم به على الكيس فى محاولة أن أخرقه. ولكن أصبحتِ السيارةُ الآن خاليةً من أىٍّ من هذه الأدواتِ. لم أكن أريد أن أضيِّعَ هذه الليلةَ، التى هى من ليالى الجنة، وأنا أبحث داخل سيارةٍ باردةٍ عن شىءٍ على الأرجح لن أجدَهُ.

راودتنى فكرةٌ. ربما كان بإمكانى أن أقوم بهجمة جوية من فوق. حشرتُ نفسى بين الباب وجانب المقعد الخلفى ثم تسلَّقتُ إلى أن وصلتُ إلى أعلى المقعد. زحفتُ نحو الحافَّةِ وتطلَّعتُ إلى أسفلَ نحوَ الأرضِ. تفحَّصتُ ما يَكْمُنُ تحتى، مثلَ مكتشفٍ ينظرُ من أعلى إلى أرضٍ جديدةٍ مُتَّسعةٍ.

ركَّزتُ نفسى مباشرةً فى مكانٍ أعلى الكَنْزِ. وأخذتُ أثِبُ فى مكانى إلى أعلى وأسفل عِدَّةَ مَرَّاتٍ. أسخِّنُ نفسى كما يفعلُ

Twitter: @alqareah

الأَبطالُ الريِّاضيُّون. أَقيسُ المسافةَ التى يمكن أَن أَقفزَ إليها. شَعَرْتُ بسخونةِ دَمِى البارِدِ. وبدأ لسانى يتحركُ إلى أَعلى وإلى أَسفل داخلَ فمى. ركزتُ نظرى على الكيسِ الرَّفيعِ الشفَّافِ الممتلئ بالجرادِ الواثب والذى هو الآن تحتى تمامًا.

بقفزةٍ جَبَّارةٍ وثبتُ طائرًا فى الهواء بطولِ خمسةِ ضفادعَ فوقَ بعضها البعض. بسطتُ أَقدامى أكبرَ قدرٍ ممكنٍ، وتطلَّعتُ من مكانى العالى أُحدِّدُ موضعَ الكيسِ الممتلئ بالجَرادِ. فالجرادُ الغَبِىُّ، بالطبع، لم يكن مدركًا ما الذى سيحصل له. صوَّبتُ نفسى إلى أَسفل مُركِّزًا على الكيس. «بوم!» انفجر الكيسُ. «طاخ!» هويتُ مباشرةً فوقَ جرادة.

قد تكون الحاجةُ أُمَّ الاختراع، ولكن الرغبة هى، قطعًا، أُمُّ الإقدامِ على عملٍ مشاغبٍ. وأى شغب مجيد ورائع أَنجزت. انفتحت جوانب الكيس كلها وهاهى ذى دستتان من الجراد تتقافزُ وتثبُ فى كُلِّ مكانٍ.

كان البعضُ منها يثبُ فوق الصخور وغيرها فوق المقاعد، وعددٌ منها يتقافزُ إلى أَعلى وإلى أَسفل تحت حافة الطبق الأَحمر. تضرب رؤوسها مرارًا وتكرارًا مثل لعبة ذات زنبرك عالقة داخل درج. كانتِ السيارةُ الآن تعجُّ بأَزيزٍ وفوضى من الجرادِ المتلاطم. كان مهرجانًا وسيركًا ضفدعيًّا مصحوبًا بأَكبر كمية من الطعامِ.

Twitter: @alqareah

زحفتُ عائدًا نحو طبق من الصخور، وبسرعة، التقطت بعضًا من الجراد. مشيتُ ببطءٍ مَزْهُوًّا وراء إحدى الجرادات الممتلئة بالعصارة اللذيذة والتقطتُها من فوق الأرض. ثم تَتَبَّعتُ ثلاثًا أخريات تحت مقعد السائق. توجَّه زوجٌ من الجراد السائغ واللذيذ تحت المقعد المجاور لمقعد السائق. لم تمرَّ فترةٌ طويلةٌ حتى كانت نصفُ دَسْتةٍ من الجرادِ وجبتى الشهيَّةَ للعشاءِ.

«آووه» ما هذا الألمُ الشديدُ فى بطنى. كنتُ بالكاد قادرًا على أن أتحرَّكَ. لم أتغذَّ يومًا بمثل هذه الكميَّةِ فى وجبةٍ واحدةٍ – أبدًا. ظَلَّتْ آخرُ اثنتيْن منها عالقتيْن داخل فمى حتَّى اتَّسع لهما مكانٌ فى جهازى الهضمى. كان بطنى ممتلئًا لدرجة لم أستطع معها أن أزحفَ نحوَ الصَّحْنِ الدافئِ الجميلِ. كنت محظوظًا إذ تمكَّنتُ من الزحفِ تحت المقعد. غرقتُ بعدئذٍ فى النوم مُتْخمًا مثلَ ثُعْبانٍ انحشرَ فى بطنه فأرٌ كبيرٌ، بينما هناك فأرٌ آخرُ فى الطريقِ إليه.

فى صباح اليوم التالى خرج الوالدُ من المنزل وفتحَ بابَ السيَّارةِ، وحينما لاحظ الكيسَ البلاستيكىَّ منبسطًا وفارغًا وقف شعرُ رأسهِ من الدهشةِ والغضبِ. نظرَ حول الطَّبَقِ وإلى أسفلهِ وحول المقاعدِ وتحتها. كان بإمكانى القولُ بأنه لم

Twitter: @alqareah

يكن سعيدًا. سمعتهُ وهو يلتقطُ الكيسَ ويهزهُ ويقولُ مغتاظًا: "بلاستيك رخيص".

بلاستيك رخيص! لِمَ لا يقولُ ضُفْدَعٌ ذَكِيٌّ. ابتلعتُ الجرادتيْنِ الأخيرتيْنِ واستسلمتُ من جديدٍ لنومٍ عميقٍ.

Twitter: @alqareah

أضاءتْ أشعَّةُ الشمسِ الواجهةَ الأماميَّةَ للسيارةِ من خلالِ زاويةٍ حادَّةٍ وغمَرتْ ظَهْرِى. كنتُ نائمًا معظمَ اليومِ - أو رُبَّما لِعدَّةِ أيامٍ مَضَتْ - لم أكنْ متأكدًا من المُدَّةِ التى نمتُ خلالها. كنتُ أتساءلُ هل مازال الجَرادُ يثبُ فى داخل السيارةِ أم أنهم هربوا إلى خارجها. ربما قامَ شخصٌ بالبحثِ عنِّى وأنا مستغرقٌ فى سُباتٍ عميقٍ ووجدنى بعد أن قام بتفكيك كُلِّ قطعةٍ فى داخل السيارةِ، ثم اصطحبنى معه فى رحلةٍ على بُعْدِ آلافِ الأميال إلى بلادٍ غريبةٍ ذاتِ طبيعةٍ خاصَّةٍ بأشجارٍ كثيفةِ الخُضْرَةِ. أو ربما أنهما تجاهلانى أو نسيانى أو استعاضا عنِّى بضفدعٍ آخرَ.

سمعتُ أصواتَ جَلَبةِ انسحاق الحَصَى تحتَ الأقدامِ ثم صوتَ انفتاحِ باب السيارةِ، وبعدها صوتَ الوالدِ وهو يقول:

Twitter: @alqareah

"لقد أصبحتَ بالفعلِ مشكلةً كبيرةً بالنسبةِ لى. لم يَعُدْ أمامى سوى يوميْنِ لأجدَك خلالهما".

من الواضحِ أنه لم ينسنى؛ ولكنَّه لم يعدْ كما كان لطيفًا ومتفائلًا. سمعتُ صوتَ حفيفٍ وخَشْخَشةٍ، ثم بدأ وَهَجٌ مِنَ النُّورِ يتراقصُ من جديدٍ حولَ أَرضِ السيَّارةِ.

قال: "لن تحصلَ على المزيد من الجراد، فهناك ما يكفيكَ ويزيدُ. كُلُّ ما ستحصلُ عليه هذه الليلةَ زجاجةٌ من الماءِ الساخنِ".

أَعاد ترتيبَ الصُّخُورَ فوق الطَّبَق وأردفَ: "لو لم تكُنْ ناقصَ القدميْنِ، كنتُ سأمضى فورًا وأشترى ضُفْدعًا بدلًا منك وينتهى الأمرُ".

هتفتُ بينى وبين نفسى: "تحيا القدمانِ الناقصتانِ!".

أقفلَ بابَ السيَّارةِ ومضى.

خطرَ لى أن أنامَ فوقَ الصخورِ الدافئةِ؛ ولكنَّ نبرةَ صوتِ الأبِ لم تَعُدْ باعثةً على الطُّمأنينة. كما أننى مازلتُ ممتلئًا من أكلِ الجرادِ؛ ولذا فزجاجةُ المياهِ الدافئةِ وطَبَقُ الصُّخُورِ لم يعودا كافييْنِ لإغرائى بالتحرُّكِ من مكانى. زحفتُ نحو مَخْبَئِى الضيق تحت المقعد وأغمضتُ عينىَّ وبدأتُ أحلم.

Twitter: @alqareah

سأشعرُ بالرضا والسعادة فى كلٍّ من المنزلين. منزل أم كارولين أو منزل أبيها. سأعتادُ على العيشِ فى بيتٍ آخر، مثل كارولين، حيث سأجدُ الرضا والاطمئنانَ فى كليْهما. ففى أيِّ بيتٍ منهما لن أتَّخذَ سوى قراراتٍ بسيطةً، مثل: هل سآكلُ جرادةً الآن أو بعدَ قليلٍ؟ هل سأتكئُ وأستريحُ فوق ورقة زنبق الماء أم تحت الصخرة؟ مثل هذه الاختيارات لن تسبب لى أقلَّ تَوتُّرٍ أو ذَرَّةً من الندمِ. كل ما علىَّ فِعْلُه الآن هو أن أزحفَ نحو طبق الصخور وأستكينَ تحت ورقةِ زنبقٍ وأنام. وحينما يحضر والدُ كارولين ويجدُنى سنستريحُ كُلُّنا ويعمُّ الفَرَحُ والبهجةُ. سيُعِيدُنى هو وكارولين بعدئذٍ إلى حوضى وهما يشعران بالنصر ويُقيمان احتفالًا. سيمتلئُ قلبُ كارولين بالفرحةِ وستُمْطرُنِى بألفِ سؤالٍ: كيف هربتَ؟ وأين اختفيتَ وماذا فعلتَ؟

لكنَّ هذا القرار يعنى أنى سأتخلَّى عن حُلْم كبيرٍ طالما تَمنَّيتُه وبحثتُ عنه: الحصولُ على الحُرِّيَّةِ. كان يكفى أن أتذوق طعمَ الاختيارِ ولو للحظةٍ. انبعثَ فى داخلى شعورٌ بالانتعاشِ والإثارةِ والرغبةِ فى التحوُّلِ. لم يكن من السهلِ أن أزيلَ نَكْهةَ ذلك الشعورِ وأعودَ للعيشِ كحيوان أليف ولطيف. فأنا الآن أملك شيئًا قد لا أحصل عليه مرةً أخرى. فلو أننى بقيت مختبئًا فى الكُوَّةِ تحت المقعدِ فستتسعُ أمامى إمكانيةُ أن أصبحَ بَرِيًّا.

Twitter: @alqareah

وجدتُ هذا الإحساس مرعبًا ومشوِّشًا للذهنِ. اعترتنى رجفةٌ. كنت أملك القدرة على إيقاف مخاوفى بفعلٍ بسيطٍ جدًّا. كلها خطوة واحدة صغيرة. أردت أن أتحرك ولكنى لم أستطع. أردت أن يعثر علىَّ أحدٌ، ولكنى بقيت مختبئًا. أردت أن يُحضر لى الجرادَ شخصٌ ما، ولكنى رغبت بالاصطياد بنفسى. أردت أن أظل مرفهًا ومستمتعًا بالرعاية، ولكنى فضلت أن أصبح حُرًّا وبريًّا.

سيترتَّبُ على اختيارى التالى نتائجُ فى غايةِ الأهميَّة، بالنسبة لى وللآخرين. فإمَّا أنه سيُدمع عينَىْ فتاة صغيرة، أو أنه سيجعلها تطلق كلمات الارتياح والسعادة.

فى صباح اليوم التالى قاد الأب سيارته لرؤية كارولين. ما إن أوقف سيارته فى المَمَرِّ أمام المنزل حتى هُرِعَتْ لاستقباله، ثم وضعت يديها على باب السيارة وأسندتْ نفسها على النافذة وتساءلتْ: "هل وجدتَهُ؟"

أجاب: "كلَّا، ليس بعد. ولكن لدىَّ شىء مضحك لأُحدِّثَكِ عنه".

- ماذا؟

- انظرى إلى الخلف.

زحفتُ من مخبئى لمسافةٍ قصيرةٍ تكفى لأن أتطلَّع إليها وهى تُدْخِل رأسها داخلَ النافذةِ الخلفيةِ.

Twitter: @alqareah

نظرتْ نحو الطَّبَقِ الممتلئ بالصخور وسألتْ: "هل وضعتَ هذا من أجل ق.ن.؟"

– فكرتُ أنه ربما يريد أن يمضى الليل نائمًا على شيء مألوف إليه. كما أننى وضعت فوقه بعض الصخور والنباتات التى أحضرتها من حوضه، كما تَرَيْن.

نزل من السيارة وفتح الباب الخلفى. انحنت كارولين إلى داخلها وانتقت صخرة من الطبق وأمسكتها بيدها وهى تقول: "أنت مُحقٌّ يا بابا هذا أمرٌ مضحكٌ. إنه مثل بيت متحرك للضفادع". ثم ألقت نظرة متفحصة نحو الداخل وقالت: "ما الذى جاء بهذا الجراد إلى هنا؟"

– فكرت أنَّ ق.ن. قد يشعر بالجوع وأنتِ تعلمين أنه يُحِب الجراد.

قالت مندهشة: "جرادٌ. كم كان عددها؟"

قال: "حوالى عشرين جرادةً، لا أدرى فقد هربت جميعها بطريقة ما من الكيس البلاستيكى".

وقعت الصخرة من يد كارولين إلى الأرض وقالت متعجبة: "هل تعنى بأن ثَمَّة جَرادًا حيًّا يقفز ويثب داخل هذه السيارة؟"

– حسنًا... نعم. ففى السيارة بعض من الركاب الإضافيين؛ ولكن هناك مكانٌ لواحدٍ آخرَ. هذا إذا أردتِ الحصولَ على بعض الآيس كريم.

Twitter: @alqareah

ضحكتْ ووضعتْ كفَّيْها على جانبَىْ وجهها. غَطَّتْ عَينيْها بأصابعها ثم أزاحتها نحو جانبَىْ أنفها وقالت: "هذا شيء مضحك وسخيف". ثم تحولت نبرة صوتها وأصبحت فجأةً أكثرَ جديَّةٍ وقالتْ: "ماذا سيحصل لو لم نجد ق.ن. فى الغد؟"

قال: "لا تقلقى. سنجده".

أصرَّتْ على رأيها وقالتْ: "من الأفضل أن نبدأ بالبحث عنه فى الحال". ثم زَحَفتْ نحو المقعد الخلفىِّ وأخذتْ تبحثُ فى كُلِّ مكانٍ.

كان الوالدُ يراقبُها وقد بَدَا عليه الضِّيقُ وعدمُ الاهتمام، وقال لها: "تعالَىْ، فَلْنذهَبْ ونَشْتَرِ الآيس كريم".

توقفتْ عن البحث وجلستْ على المقعد الخلفىِّ بلا حِرَاكٍ. طوتْ ذراعيْها وربَّعتْ ساقيْها، وهى تقول: "ما زال أمامنا بقيةُ اليومِ ومعظمُ يومِ الغَدِ. سنستمرُّ فى البحث والتفتيش فى وقتٍ لاحقٍ. اتفقنا؟"

– نعم. مازال أمامنا بعضُ الوقت.

تسلَّقتْ إلى المقعدِ الأماميِّ وجلستْ عليه، وقالت بصوتٍ مضطربٍ ومُتقطِّعٍ: "إذا لم نَجِدْهُ يا بابا حتَّى الغدِ، فمعنى ذلك أننا فقدناه إلى الأبد".

Twitter: @alqareah

8

رنَّ جرسٌ على البُعْدِ. وسَرْعانَ ما امتلأ المكان بأصواتِ ضحكاتِ الأولاد والبنات، وبعد لحظةٍ وضعتْ كارولين يديها على باب السيارة، وأطلَّتْ برأسها داخلَ النافذةِ المفتوحةِ وقالتْ: "أهلًا يا بابا".

سألها: "كيفَ كانت المدرسةُ؟"

– لا بأس. ثم مدَّتْ نفسها أكثرَ إلى داخِل السيارة، وتطلَّعتْ إلى ما وراءِ كَتِفِ والدها نحو أرضية السيارة وراء مقعده. وتساءلتْ: "ماذا حدث لطَبَق الحَصَى؟"، ومن غير أن تنتظرَ جوابًا، فتحتِ البابَ الخلفيَّ للسيارة وبدأتْ فى البحثِ، وهى تقولُ: "هل وجدتَ ق.ن.؟"

بدأتْ تتسلَّقُ فوقَ المقعدِ. استدار الوالدُ نحوها وقال: "كلَّا يا حبيبتى، ولكنى اضطررتُ أن أفرغَ السيارةَ من كُلِّ

Twitter: @alqareah

محتوياتها. يجبُ أن أتخلى عن السيارة فى المطار بعد عدة ساعات".

"ولكن يا بابا... "، بدأ صوتها يحتدُّ وتعلو نبرتُه وأخذ فى الارتعاشِ.

قال الأبُ: "هل لاحظتِ العُلْبةَ على المقعد الخلفيِّ؟ إنها كعكة أمِّك. اشتريتُها هذا الصباح".

جلستْ بالقربِ منَ العُلْبةِ ووضعتْ ذراعها عليها وقالت: "كعكة الليمون، أليس كذلك؟"

– نعم.

– ولكن ماذا عن ق.ن.؟ أين هو؟

قال الأبُ متلعثمًا: "لـ... لست متأكدًا".

– أعلم يا بابا جيدًا أنه مازال فى السيارة. ما زال لدينا بعضُ الوقتِ للبحث عنه. سنعيدُ التفتيشَ مرةً أخرى عند وصولنا إلى منزل أمى. ربما أنه محشورٌ فى مكانٍ ما ويحتاجُ لمَنْ يساعدُه على الخروجِ. ربما يحتاجُ للمزيدِ من التشجيعِ. علينا أن نجدَه.

– حسنًا، حسنًا. سنفتشُ عنه مرَّةً أخيرةً ولكن لا تأملِى كثيرًا.

قطَّبتْ كارولين جبينها وعضَّتْ على شفتها السُّفْلَى وبدأت تتفحَّصُ بعينيها أرضيَّةَ السيارة فحصًا دقيقًا بمنتهى الحرص، ثم قالت: "على الأرجح لن يُظهر نفسه إلَّا فى اللحظةِ

Twitter: @alqareah

الأخيرة، أنا أعلمُ أنه فى مكانٍ ما داخل هذه السيارة. ربما... ورفعتْ ببطءٍ غطاءَ علبة الحلوى ونظرتْ فى داخلها.

فى يوم من الأيامِ قصَّ علىَّ الضفدع العجوز حكايةً غريبةً. كنتُ أستمع إليه باهتمامٍ وهدوءٍ دونَ أن أعلِّقَ. فى الظاهر، كانت القصة تحكى ببساطةٍ كيف تحوَّلتْ بعضُ ضفادعِ المروجِ إلى ضفادعَ أشجارٍ، ولكن فى العمقِ، وبين السطور، كانت هناك قصة أخرى ظل مغزاها يجول فى ذهنى. فبين تدفُّقِ كلماتها وتناغمها تكمن حِكْمةٌ بدأتُ الآنَ أدْركُها وأستوعبُ ما تحملُ من معنًى.

رَوَى لى عن بِرْكةٍ كان ينمو على سطح مياهها الصافية والدافئة أوراقُ زَنْبَقِ الماءِ. كانت تستكينُ فى حضنِ مَرْجٍ مُغطًّى بالأعشابِ السميكةِ والطويلةِ وبالأزهار ذات الألوان الزاهية. كانت تحيطُها وتحجُبها وتحميها أشجارٌ عاليةٌ منتصبةٌ وكثيفةٌ. كان كل هذا جميلًا ومفيدًا، خاصَّةً، لمستعمرة من الضفادع. لم تكن البركةُ زاخرةً، فقط، بكل ما يتمنَّاه الضفدع، بل كان المرجُ أيضًا خاليًا من أىِّ نوعٍ من الحيوانات المفترسة. كان بإمكان الضفادع التجوُّلُ والانتقالُ بين الماء والأعشاب الطويلة والغابة بلا قلقٍ أو خوفٍ من أن يصبحوا لقمةً سائغةً لأى كائنٍ من الكائنات.

Twitter: @alqareah

الشيءُ الوحيدُ الذى كان يعكِّرُ عليهم، أحيانًا، صفاء عيشهم شجرة واضحة الضخامة والجمال تنمو على حافَّةِ المَرْجِ. كانت سكنًا ومَأوًى لأعدادٍ هائلةٍ من الجرادِ المتميِّز والممتلئ بالعُصَارةِ. كان الضفادعُ يكتفون بمشاهدةِ أفواجِ الجراد السَّمينِ واللذيذِ تحوم حولَ الأغصان؛ ولكنهم لا يجرؤون على محاولة الاقتراب منهم. فحولَ جذعِ الشجرةِ يرقدُ ويلتفُّ السيد ثعبان. وبما أن بقية المرج كان ممتلئًا بالكثير من الجراد وخاليًا من أيَّةِ ثعابين، فقد آثرَ الضفادعُ السلامةَ، وبكل بساطةٍ، تجاهلوا هذه الشجرةَ بما فيها من هِبَاتٍ سَخيَّةٍ – هذا ما التزمتْ بفعله الضفادع كلها، باستثناء ضفدعٍ واحد.

ظل هذا الضفدع الفُضُولىُّ يلحُّ ويسأل الضفادع الآخرين: هل شاهدتم بأعينكم الثعبانَ وهو يأكلُ ضفدعًا؟ فى الحقيقة، لم يصادفْ أن رأى أىٌّ منهم مثل هذا الهجوم. كان برأيه أن خطر الثعبان ما هو إلَّا قصة ملفقة تتردد وتُذكَر، جيلًا بعد جيلٍ، لتضليل الضفادع ليُتاح لغيرهم من المخلوقات الاستيلاء على الجراد. هزَّ الآخرون رؤوسهم رافضين هذا الرأى، وقالوا له من المستحيل أن تمرَّ من جانب ثعبانٍ دونَ أن يلتهمَك، وأصرُّوا على عدم تجاهُل خطر الاقتراب منه.

ولكنَّ هذا التحذيرَ لم يردعِ الضفدعَ الفُضُولىَّ. ظل يراقبُ الشجرةَ كلَّ يومٍ وحتَّى ساعةٍ متأخرةٍ من الليلِ، يتطلعُ مفكرًا

Twitter: @alqareah

فى وسيلةٍ للحصول على الجراد اللذيذ والكبير. لاحظَ أنه بعد مَغيبِ الشمس بقليلٍ، كان السيدُ ثعبانُ يتسلَّقُ صاعدًا إلى أعلى الأغصان ولا يعود ثانيةً إلى جذعِ الشجرةِ إلا عند بزوغ أوَّلِ نورٍ من أشعَّةِ الشمس.

أقلقتهُ هذه المعلوماتُ القيِّمةُ وجعلته مرتبكًا ومضطربًا، فقد أصبح الآن مُواجَهًا بالإمكانات يدغدغه الأملُ. إن تَسلَّقَ الشجرةَ فسيجازفُ بأنه قد يُؤكَلُ، وإذا لم يتسلَّقْها فسيبقَى أبدًا على ما هو عليه من الجهل وعدم المعرفة.

كلما ازداد تفكيرُ الضفدع الفضوليِّ بحالته هذه، أصبح أكثرَ تَشوُّشًا وقلقًا. كان أكثرَ ما يُخيفُه إحجامُه وتقاعسُه عن القيام بأيِّ فعلٍ. ستمضى الأيامُ ويصبحُ فى آخر الأمر عجوزًا يائسًا، حينئذٍ سيعيدُ التفكيرَ بما أنجز على مدى حياته ويكتشفُ أنه لم يغامرْ بالقيام بأيِّ اختيارٍ على الإطلاق.

وبعد ليلةٍ أمضاها فى أحلام مضطربة ومزعجة عزم على المغامرة. أخبر بقية الضفادع عن خطته. سيتسلق الشجرة خلال الليل حين لا يكون السيد ثعبان كامنًا وملتفًّا حول جذعها. خيَّرهم إن كان أحد منهم يرغب فى المخاطرة والذهاب معه. رفضوا جميعًا رفضًا باتًّا. قالوا له: "استمع إلينا، هناك الكثير من الجراد فى المرج. إذا حاولتَ تسلُّقَ الشجرةَ فلن تنالَ سوى المشاكل".

Twitter: @alqareah

ردَّ الضفدعُ الفضوليُّ: "اختيارُكم هذا فيه خسارةٌ لكم. فبعد أن أتسلَّقَ هذه الشجرةَ وأحتفلَ بأكلِ كُلِّ تلك الجراداتِ اللذيذةِ، على الأرجح لن أعودَ إليكم أبدًا".

وهكذا، وفى إحدى الليالى مضى الضفدعُ الفضوليُّ نحو الشجرة. انتظر حتى زحف السيد ثعبان نحو الأغصان، ثم تسلق جذع الشجرة باحثًا عن الجراد. ما إن وصل إلى أول غصن؛ حتى أخذ فى مراقبة جرادة رائعة الجمال أسالت لعابه كوجبة شهية.

من الناحية الأخرى، كان السيد ثعبان من جانبه يراقب الضفدع الفضولى، وما لبث أن انزلق بسرعة من مَكْمنهِ، وبهدوءٍ اقترب منه وانقض عليه من الخلفِ وابتلعه فى لقمةٍ واحدةٍ.

بدأ باقى الضفادع فى المرج يتساءلون محتارين إن كان الضفدع الفضولى سيعود إليهم. البعض منهم قال بأنه، على الأرجح، تم التهامه. بينما ظن الآخرون بأنه، ربما، يعيشُ عيشةَ رَغَدٍ ورخاءٍ فوق الأغصان، ويحتفلُ كُلَّ يومٍ بوليمةٍ من الجرادِ الريَّان الممتلئ بالعصارة.

واجهتْ إمكانيَّةُ تسلُّقِ الشجرةِ باقى الضفادع. وبعد فترة من الزمان تعبوا من النِّقاش المستمرِّ والنَّقْنَقةِ. وأخذوا يتبادلون الآراء عمَّا يمكن أن يفعلوا وكيف أقنعوا أنفسهم بأن وليمةَ فخمةَ تنتظرهم. كل ما عليهم أن يفعلوه، بمنتهى

Twitter: @alqareah

البساطة، أن يتسلقوا الشجرة خلال الليل حين يكون السيد ثعبان نائمًا يحلم على الأغصانِ العاليةِ.

تسلَّقَ الضفادع الشجرة الواحد تلو الآخر. فى كل مرة كان السيد ثعبان يستيقظ من نومه الخفيف ويتسلل خلسة وراء الضفدع ويأكله. فى آخر الأمر أدرك بقية الضفادع ما يحدث وتوقفوا عن السعى لتسلق الشجرة. أقروا وأعلنوا بأنهم ارتكبوا خَطَأً فاحشًا، وأنهم منذ هذه اللحظة لن يتسلقوا هذه الشجرة بعد الآن أبدًا.

ولكنَّ القصة لم تنتهِ بعد. فمن جانبه كان السيد ثعبان أيضًا مخلوقًا فضوليًّا. فبعد أن توقفت فجأة مَؤونتُه من الضفادع، أراد أن يعلم من أين جاءوا وهل هناك المزيد منها. وهكذا أصبح السيد ثعبان يتركُ يوميًّا الشجرةَ، يبتعد عن مَقرِّه الأصليِّ ويسعى منزلقًا من خلال أعشاب المرج ليصطاد ما شاء له من الضفادع.

لم يَعُدْ منَ الممكن لضفادع المرج أن ينعَموا بدفء الشمس على حريتهم وكما كان يحلو لهم. بدؤوا الآن يخططون بمنتهى الحرص أين سيذهبون، والسرعة التى سيتحركون بها، ومتى يهدؤون ويتوقفون عن الحركة، حتى لا يصبحوا لقمةً سائغةً فى فم السيد ثعبان. فمن الممكن أن يكون مختبئًا فى أىِّ مكانٍ فى انتظار صيدٍ سائغٍ.

Twitter: @alqareah

كان السيد ثعبان يجد بين الفَيْنَةِ والفينةِ ضفدعًا ليأكله، ولكن ما أمتعه وسرَّه أكثر التقاوؤه بغيره من الثعابين الذين يعيشون فى الغابات المحيطة بالمرج. استمتع باللَّعِبِ معهم ومرافقتِهم والزواج من بينهم. وسَرْعانَ ما أصبح هناك الكثيرُ من الثعابين تزحفُ من خلال الأعشاب .

فى أول الأمر، أصبح تفادى كل هذه الثعابين والحيَّاتِ مشكلةً مرعبةً للضفادعِ. ولكن تكفَّلتِ الصقورُ فى السماء بحلِّ المُعْضِلَةِ. فما أسرع ما اكتشفوا مدى سهولة صيد هذه الثعابين والحيات اللامعة الممتلئة باللحم والتى تنسلُّ مُتسلِّلةً فوقَ المرج. كانت أكثرَ إغراءً وأطعمَ مذاقًا من فئران الحقل التى هى عَظْمٌ بلا لَحْمٍ. تضخَّم الصقورُ وازدادوا قوةً وسرعةً فى الانقضاضِ. وجدوا، بسهولةٍ وبشكلٍ دائمٍ، أفراخًا من الثعابين، تقيم على أعالى الأشجار التى تحيط بالمرج. والآن أصبح من الضرورى أن تختبئ الثعابين والحيات مثلها مثل الضفادع.

ومع مرور الزمن، اعتادتْ جميعُ المخلوقات التى تعيش وسط هذا المرج أن تتآلف وتتعايش مع بعضها. يلتزم كل نوع منها مكانهَ الجديدَ. توقفتِ الضفادعُ عن القلقِ والخوفِ من احتلال السيد ثعبان للشجرة، ثم تحوَّلوا تدريجيًّا ليصبحوا

Twitter: @alqareah

ضفادع-متسلِّقين-للأشجار يحتفلون بولائمَ من الجراد الفِضِّيّ الريَّان الذى لم يَتَذوَّقوا مثلَه من قبلُ.

حين انتهى الضفدع العجوز من سرد قصته سألنى عن رأيى فيها. لم أفعل شيئًا سوى أن هززتُ كَتِفيَّ. لم أكن أملك حينذاك أىَّ تفكيرٍ منطقيٍّ أستندُ إليه لأعبِّر عن رأيى. قال: "كما ترى، بالرغم أنه، للوهلة الأولى، قد يبدو العالم الذى يضم ثعبانًا واحدًا وشجرةً واحدةً والكثيرَ من الضفادعِ السعيدةِ عالمًا مريحًا وهانئًا وربما مثاليًّا، ولكنه فى الواقع، كان عالمًا غير مثير أو مُشوِّق. اتخذ الضفدع الفضولى اختيارًا واحدًا بسيطًا - تَسلُّقَ الشجرة. وبالفعل، لقد تم أكلهُ، ولكن اختياره هذا غيَّر كُلَّ شيءٍ - فُضولهُ صنع العالم".

تنحنح الأبُ وقال: "ها قد وصلنا. لمَ لا تذهبين لإخفاء قَالَبِ الحلوى فى الدورِ السُّفْلِيِّ، ثم نعيدُ للمرةِ الأخيرةِ البحثَ عن ق.ن."

- ابدأ أنت بالبحث يا بابا. سأتولَّى أمرَ قالب الحلوى وأعودُ على الفورِ.

أقفلتْ كارولين غطاءَ العُلْبةِ وحملتْهَا إلى الداخلِ.

وما إن عادتْ حتى بدآ فى تحريك مقاعد السيارة إلى الأمام وإلى الخلفِ، ثم أخرجا الدوَّاسات وأخذا يتفحَّصان ويفتِّشان

Twitter: @alqareah

كُلَّ شِقٍّ صغيرٍ فى السيارة بأصابعهما. كانتْ كارولين تبحثُ بانفعالٍ وحماسٍ شديدين، وهى تقول: "أعلمُ أننا سنجدُه يا بابا. يجبُ أن نجدَه. ابحثْ أنتَ فى الجزءِ الأماميِّ من السيارة وسأبحثُ أنا فى الخلف".

كانتْ كارولين دقيقةً ودءوبة، وأمَّا الأبُ فقد التزمَ الصمتَ وبدا كأنه يتظاهرُ بالقيامِ بحركاتٍ تنمُّ على أنه يقومُ بالبحثِ والتنقيبِ.

سُمع صوتُ سيارةٍ أخرى على المَمرِّ أمام المنزل. قالت كارولين: "هاهى ذى ماما وصلت". توقَّفتْ هى ووالدُها عن البحث واستقاما خارجَ السيارة.

– آن الأوان يا حبيبتى أن أتوجَّه إلى المطارِ.

أقفلتْ كارولين عينيها وفتحتهما ببطء، وبدأتْ فى البكاء وهى تقولُ: "اختفى. أليس كذلك؟"

زحفتُ نحوَ حافَّةِ الباب المفتوح. كان بإمكانى أن أرى العُشْبَ الأخضرَ والسماءَ الزرقاءَ والأشجارَ الباسِقةَ والشُّجَيْراتِ القصيرةَ. كان من الممكن أيضًا أن أرى الأبَ وهو يحتضنُ كارولين وجسمها يستكين إلى جسمه، وينتفض بنشيجٍ تعبِّر من خلاله عن حبِّها لى وحزنها لافتقادى.

قالتْ من بين شهقاتها: "لن أراه بعدَ اليوم. رحلَ إلى الأبدِ ولن يعودَ".

Twitter: @alqareah

حملها الأبُ بين ذراعيه. دفنتْ رأسها فى عنقِه. كان من الممكن أن أوقفَ كُلَّ هذا فى وَثْبةٍ واحدةٍ ولكنى لم أتمكن. كنتُ قد فقدتُ براءتى.

قال الأبُ: "استمعى لى يا كارولين. لا أعلمُ ما الذى حصل له أو أين هو الآن. لا أحدَ يعلم ما الإمكاناتُ التى يمكن أن يخبِّئَها المستقبلُ لضفدعٍ بقدمين ناقصتين وبطن أحمر كالنار. عندما أعيد هذه السيارة إلى مكتب التأجير لن أبلغَ أحدًا بأن فى داخلها دستتين من الجراد وضفدعًا مُخْتبئًا. هناك احتمال أنه قد يموت، ولكن هناك أيضًا عالم من الإمكانات التى لا يمكنُنا إدراكُها. كُلُّ شىءٍ جائزٌ. مَنْ يعلمُ إلى أين سيمضى الشخصُ الذى سيستأجر السيارة من بعدنا. يمكن لـ«ق.ن.» أن يتحيَّنَ فرصةَ عدم وجود من يراقبهُ وينزلقَ متسلِّلًا إلى الخارجِ؛ حيث سيمضى بقيَّةَ حياته فى مغامراتٍ رائعةٍ لا يمكنُ أن تتخيليها. يمكن للضفدع ذى القِطَع الناقصة والبطن الأحمر أن يفعلَ أىَّ شىءٍ".

– ومن الممكن أيضًا أن يموتَ!

طأطأ الأب رأسه وقال: "أعلم".

ضَمَّا بعضهما بقوةٍ، وبدا جسداهما كما لو أنهما أصبحا جسدًا واحدًا. وبعد مرور لحظةٍ طويلةٍ أبعد الأبُ برقَّةٍ يديْهِ وتراجعَ مبتعدًا، وهو يقولُ: "أزِفَ الوقتُ. علىَّ أن أذهبَ".

Twitter: @alqareah

زحفتُ ثانيةً تحت المقعدِ. كنتُ قد اتخذتُ قرارى وبإصرار.

– مع السَّلامةِ يا بابا.

– مع السَّلامةِ يا كارولين. أرجو من الله أن نلتقىَ على خيرٍ.

– أحبكَ.

– وأنا أيضًا أُحبكِ يا حبيبتى.

– ارجعْ بسرعةٍ.

أقفل الأبُ بابَ السيارة.

لفحتْ وجهى نسمةُ هواءٍ. كانتْ هذه المرةُ الأخيرةُ التى شاهدتُ فيها كارولين.

Twitter: @alqareah

9

الحياةُ مضحكةٌ – على الأقل هـذا رأيى فى حيـاتى. ليست هزليةً بـالشكل الذى يدعو إلى القهقهةِ، ولكن بطريقةٍ أخرى غـريبة، كـالشـعور الـذى أحسُّـه حـيـن أرغبُ بشدَّةٍ فى جـرادة، وفجأةً، تظهـرُ واحـدةٌ منـهـا أمـامـى. حـيـن أفـكـر بكـل اللَّفِّ والدَّوَرانِ لأحداثٍ نتجت بعد انقسام الخلية التى تخلَّق منـهـا ضفدعٌ بقدمين. وهـا هـو الآن يـختبئ وحيدًا وخـائفًا أسفل مقعد سيارة حمراءَ مؤجَّرة بـأربعةِ أبوابٍ. إنه شىءٌ مضحكٌ ولكنه لا يُضْحكُنى. بل على العكس أشعرُ بـألمٍ يعصر عقلى. فكرت كثيرًا ومليًّا لمَ أنا بقدمين فقط؟ ولم أستطع أن أفهم. قدمـان. أربع أقدام. مـا الفرق؟ يبدو لى الآن كل هذا سخيفًا وسـاذَجًا.

يتدفَّقُ فيضٌ غـامرٌ آخرُ من الأفكار ويـحملنى على شَفَا الموجة لأغرقَ فى خيالٍ جامحٍ. أتـخيلُ أننى زحفتُ خـارجًا من

Twitter: @alqareah

الماء نحو صخرةٍ بارزةٍ من الجرانيت. فوق الصورة المعكوسة على مياه البركةِ الضَّحْلةِ رأيتُ نهرًا جليديًّا يذوب نقطةً بعدَ نقطةِ. هناك على البعد، ثَمَّة جبلٌ بارزٌ قاحلٌ وراسخٌ يُناطِحُ السماءَ. بدأتِ الغيومُ تلتفُّ ببطءٍ تحوم حول قمته كالدوَّامةِ، ثم تُسرِعُ هابطةً مثل انهيارٍ من الهواءِ المشبَّعِ بالرطوبةِ. تتكسَّرُ الحافاتُ الحادَّةُ من كتل الصخور التى خلفَّها النهر الجليدى ومن السهول الثلجية. تتصادم فى حشدٍ من الفوضى مُصْدِرةً صوتًا عاليًا يشبه صوت تحطُّم الزجاج وبعثرته. تنحدر ساقطةً لتنتشرَ فوق مياه البركةِ التى تبدأ فى التموُّجِ ثم تضطربُ مهتاجةً، وسَرْعانَ ما تتطايرُ قطراتٌ من الماءِ وتتحوَّل إلى جَليِد.

جلستُ بدون حِرَاكٍ أراقبُ اقترابَ الانهيار الجليدىِّ. كان الهواءُ يغلِّفُنى. كما كان جسمى غارقًا بقطَع الوحل والمياه. فى لسعة هذا الألم، تراءت لى نهايتى. أدركتُ الآن، ولأول مرةٍ، أننى بلغتُ منتصفَ العمر. هذا الجزء المتفرِّد من حياتى الذى لم يَعُدْ بإمكانى الهروبُ منه. بداية، وسط ونهاية. هذا لا ينطبق فقط على أحداث القصص والحكايات؛ هذه هى القصةُ الحقيقيَّةُ الواقعيَّةُ لأىِّ كائنٍ حَىٍّ، إنها قصة حياتى.

أشعرُ بالرَّجْفةِ والارتعاشِ حين أفكرُ كَمْ أنا وحيد. لم أعد مرتبطًا بأىِّ شىءٍ أو بأىِّ إنسانٍ. لن أكونَ تحت رعاية أحدٍ

Twitter: @alqareah

بعد اليوم، ليس لى بيتٌ لأعودَ إليه، ولا مكانٌ لأبحثَ عنه. بدَّلَ الكَرْبُ من طبيعتى. بدأ جِلْدِى القديمُ فى الانسلاخِ. ربما أنكَ لن تتعرَّف علىَّ بعد الآن.

هذه السيارةُ هى زنزانتى لذنبٍ لم أقترفه.

Twitter: @alqareah

الجزء الثالث

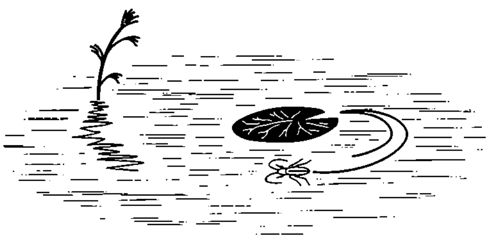

Twitter: @alqareah

1

- بَـدَا أهلُك غيرَ واثقين من أنك ستحضرين اليوم إلى مكتبى.

تراجـعَ السـيد لِيـڤـانـتْ فـى جِلْسـتِـه مُتَّـكِـئًا علـى مقعـدهِ المبطن الوثير ودوَّن شيئًـا فى دفتر ملاحظاته. خَفَّضَ صوتـهَ وهو يستـأنفُ حديثه: "قـالوا لى مـا فعلتِ".

رَدَّتْ كليـر كـأن مـا ذكره أمر عـاديٌّ ودونَ أن تُبْدِى حراكًا: "حقًّا".

- إنهمـا فى غـاية القلق عليك - ولهمـا كُلُّ الحَقِّ. فهمـا يظنَّـانِ أنـه مـنَ الأفضـلِ أن تتـحدَّثـى مـع شـخصِ مسئولِ بـخصوص هذا الأمر.

هـزَّتْ كليـر كتفيها غيـرَ مبـاليـةٍ. تطلَّعتْ حـولـهـا تَجُـول بنظرهـا فى مكتبِ السيد ليڤـانت، تتفحَّصُ أرفف الكتب التى

Twitter: @alqareah

تمتد من الأرضِ إلى السقفِ. لاحظت تبايُنَ ألوان أغلفة الكتب واختلافَ طُرُق تجليدِها. تمعَّنتْ فى زخرفة أحرف الكلمات التى تزيِّن الجانب الظاهر منها. تساءلت تُرَى، ما الأفكارُ المُدوَّنةُ فى داخل هذه الأغلفة.

أغلق السيد ليڤانت مُفكِّرته ووضعها فوق المكتب وسألها: "كلير، هل تسمعيننى؟"

حوَّلتِ اهتمامها ونظراتها نحو بعض اللوحات التى انتشرت وعُلِّقتْ على جدران مكتبه. لم تكن ملفتةً للنظرِ؛ كلها لوحات لوجوه أشخاصٍ مرسومةٍ بأسلوبٍ خاصٍّ بالقلمِ الرَّصاصِ. تأكدتْ بساطتُها بالإطار البسيط والرخيص الذى أحاطها.

انحرفتْ بؤرة تركيزها بعدئذٍ إلى خارج الغرفة. لاحظتْ، من خلال النوافذ الطويلة التى تقع وراء مكتبه، طائرًا صغيرًا يحطُّ على شجرةٍ فى الخارجِ. وتعجَّبتْ فيما بينها وبين نفسها: "كَمْ هو بسيطٌ أن يعيشَ مخلوقٌ ما مثل هذا الطائر منساقًا فقط بغريزته".

أدار السيد ليڤانت مقعده ليواجهَ كلير محاولًا أن يحجبَ المنظرَ خارج الغرفة وقال: "أنا مهتمٌّ بما فعلتِ. هل فعلتِ هذا لجذب الاهتمام؟"

ردَّتْ كلير بصوتٍ مُقْتضَبٍ وحَادٍّ: "اهتمام!"

Twitter: @alqareah

التفتتْ إليه على نحوٍ فَظٍّ وانطلقتْ فجأةً مسترسلةً فى الكلام: "إنه استنتاج فَظٌّ وغير صحيح. لا، بالطبع لا. فآخر ما أرغبُ فيه أن أجذبَ الاهتمامَ إليَّ. كل ما فى الأمر أننى لم أكن أفكر حين عُدْتُ إلى المنزلِ. ولسوء الحظ كان والدى موجودًا بالمنزل. فى المرة القادمة، سأبذل جَهْدِى كى لا يكتشفَ أمرى أحدٌ".

– هل تحدثت عن...

قاطَعتْهُ قائلةً: "ها أنا أتحدث معك الآن".

اعترضها السيد ليڤانت قائلًا: "كنت أنوى أن أقول إنه قد يساعدك الحديث فى الأمر مع شخصٍ ما".

– يساعدُنى على ماذا؟ لست بحاجةٍ لأيَّةِ مساعدةٍ. فأنا فى أحسن حالٍ. سوَّت كلير جلستها على مقعدها وضمت ذراعيْها عن قَصْدٍ وبتأنٍّ.

قال السيد ليڤانت: "أنا مهتمٌّ لأن أعرفَ كيف كان شعورُك. فأنا شخصيًّا لا أستطيعُ تخيُّلَه".

فوجئتْ كلير بصراحتهِ وردَّتْ: "لم يكن شعورًا مريحًا إن كان هذا ما تريد أن تعرفه. إنه مؤلم".

سألها: "جدًّا؟"

قالتْ: "نعم، نحتاج أحيانًا أن نؤذى أنفسنا – بشدَّةٍ – إلى أن نفقدَ الإحساس بأىِّ شيءٍ، بعدئذٍ، من الممكن أن نعيدَ تجميع القطَع المتناثرة لكى ندرك فى آخر الأمر ما الذى كانت تعنيه".

Twitter: @alqareah

رفع السيد ليڤانت حاجبيه وعاد إلى مفكرته ودوَّن فيها بسرعةٍ ملاحظةً ما، ثم تطلَّع إليها وقال: "هل أنت مُدْرِكَةٌ مدى الذُّعرِ الذى قد يسبِّبُه مغزى هذا الكلام، خاصَّة لوالديْك؟"

– ما فعلتهُ لم يكن له أىُّ معنًى. اتفقنا؟ ولكن كل واحد منكم قد بالغ فى رد الفعل. فالأمرُ ليس كما لو أننى حاولتُ قتل نفسى.

– كل ما فى الأمر أننى أحاول أن أفهم لماذا أقدمتِ على هذا العمل؟ لستِ بحاجةٍ لتقديم جواب طويل. فقط قولى لى شيئًا. أىَّ شىءٍ. فهذا سيوضح الموقف.

" وما الذى يجعلنى «أرغبُ فى توضيحِ الموقف؟» كان ما أقدمتُ عليه من أكثر المواقف التى أمتعتنى وجعلتنى أشعر بحريتى". انحنتْ قليلًا إلى الإمام، ونظرتْ مباشرةً فى عينى السيد ليڤانت وأردفتْ: "وربما سأعيد الكَرَّةَ مرَّةً أخرى".

تنهَّدَ وقال: "يا كلير..".

أسندتْ ظهرها ثانيةً إلى مقعدها وقالت: "إضافةً إلى ذلك، فأنت الذى أوحيت إلىّ بالفكرة". توقفتْ كلير لوهلةٍ عن الحديث لترى إن كان سيردُّ عليها، ثم أكملتْ: "هل تذكرُ الكتابَ الذى أعطيته لى؟ كان كل ما فعلتُه مكتوبًا فيه".

هزَّ السيد ليڤانت رأسه مستغرقًا فى التأمل والتفكير وقال: "أنتِ تقرئين الأعمالَ الأدبيَّة بشكلٍ جادٍّ. وهذا شىءٌ جيدٌ. علىَّ أن أكونَ أكثرَ حرصًا فى انتقاء ما أُعطيك لتقرئيه".

Twitter: @alqareah

تبادلا نظرات ذات فَحْوَى ثم أبعدتْ كلير تحديقها وهى تهزُّ كتفيها بلا مبالاةٍ وقالتْ: "لم أعدْ أريد الحديثَ عن هذا الكتاب بعد الآن؛ فها نحن نتقابل لما يزيد على شهر، وبالكاد استطعتَ أن تساعدنى فى دراستى. دَعْنا الآن نركِّز على ذلك".

فتح السيد ليڤانت درج مكتبه وأخذ قلمًا مختلفًا وقال: "أنا بالفعل أساعدُكِ فى الدراسة، ولكن ما الفائدةُ فى التعليم إن كنتِ لا تعرفين ماذا ستفعلين به؟" عاد للكتابة فى مُفكِّرَتِه وهو يتطلَّعُ إليها بين الفَيْنَةِ والفَيْنَةِ ويستمرُّ فى الحديثِ معها: "أنتِ تلميذة متميزة ولديك كافةُ القدرات التى تحتاجين إليها لتنجحى فى المدرسة، ولكنَّكِ بحاجةٍ لأن يكون لديكِ قَدْرٌ من الفضول، وقَدْرٌ من الشَّغَفِ، شىء تُولِينَهُ اهتمامَكِ. هذا هو كل المطلوب".

– لأفعل ماذا؟

– لتتوقَّفى عن الجلوس هنا فى مكتبى والحديث معى كُلَّ أسبوع.

نهض من مقعده ومشى نحو النافذة التى تقع وراء مكتبه، وأشار نحوَ الخارج وقال: "هل تَرَيْنَ ذلك الجِذْعَ الضخمَ الباقى من تلك الشجرةِ المقطوعةِ... على حافَّةِ المَرْج؟"

أومأتْ كلير برأسها وهزَّت كتفيها استهجانًا.

أكمل حديثه بصوت أصبح الآن رسميًّا ومنهجيًّا وقال بلَكْنَةِ أستاذٍ يُعلِّم ويَعِظُ: "هل ترين هذه الأغصانَ الصغيرةَ

Twitter: @alqareah

التى تنبت عليه؟ إنها رقيقة وقصيرة. لا يزيدُ طول الواحد منها عن خمس عشرة قدمًا على الأكثر. ولن تزدادَ طولًا بصورةٍ كبيرةٍ. من المفروضِ لهذا الصِّنْفِ من الأشجار أن ينموَ ليصبحَ طولهُ أكثرَ من مائةِ قَدَم؛ ولكنها لن تصل أبدًا إلى النضج والطول المُفترَض. هذه ليستْ حالةً خاصَّةً بهذا الجذع فقط، بل هى عِلَّةٌ أصابتْ جميعَ الأشجار التى تنتمى إلى هذا النوعِ فى كُلِّ أنحاء هذه القارَّةِ". ومسح بيده على شكلِ قَوْسٍ بعرض كتفيه، ثم التفتَ نحو كلير وقال: "هل تعلمينَ ما الذى حصل؟"

نظرتْ إليه نظرةً تدلُّ على عدم اهتمامها، ثم هزَّتْ رأسها بالنفى.

– ماتتْ جميعُها. كُلُّ شجرةٍ منها. كان هناك الملايين من هذه الأشجار التى كانت تُشكِّل مظلةً من الزهور البيضاء تحيط بالجبال فى أوائل الصيف. كانت أشجارًا ضخمةً جدًّا ومنتصبةً تُنْتِجُ أخشابًا رائعةَ الصلابة تُستخدَمُ فى بناءِ المنازل، وكان يتدلَّى من أغصانها أطنانٌ من الكستناءِ المُغذِّى – طعام لذيذ لكل من الإنسان والحيوان، ولكنَّ كُلَّ هذا أصبح من الماضى: لم يتبقَّ أثَرٌ لا للأخشابِ ولا لثمارِ الكستناء ذات اللون البُنِّى الغامق، والتى كانت تُخزَّنُ من أجلِ استعمالها فى الشتاءِ. هذه الأغصان القصيرة التى تشاهدينها والتى بدأت الآن فقط فى

Twitter: @alqareah

النمو على أمل أن تصبح شجرة عملاقة، ولكنَّها ستموتُ بسرعةٍ قبل أن تبلغَ عِدَّةَ سنواتٍ من العمر.

سألتْ كلير وقد انتابتها حالةٌ من الحَيْرةِ والاندهاش: "لماذا؟ ماذا حدث؟"

– دخلتْ من آسيا عن طريق الخطأ آفةٌ زراعيةٌ مؤذيةٌ؛ نوع من الفُطْرِ الذى يقتل بشكل خاص هذا النوعَ من الأشجارِ التى جاءت فى الأصل من تلك القارَّةِ. فخلال الخمسين سنةَ الأخيرة، ماتت كل أشجار الكستناء الضخمة والناضجة. وحتى الآن ما زالت تنمو الأغصانُ الجديدةُ على العديد من جذوع الأشجار المجدوعة، ولكنها سَرْعانَ ما سترضخُ للإصابةِ بهذه الأنواع من الفطر المُتفشِّية وتموتُ قبل أن تنضجَ وتصلَ إلى العمرِ الذى يُمكِّنُها من طَرْحِ بذورها. كل ما تَبقَّى منها فروعُ أشجارٍ عاجزةٍ.

سَألَتْهُ: "ألا يوجد أىُّ علاج؟"

– يحاولُ علماءُ الأحياء أن يبحثوا عن وسائل تساعدُ على مقاومة هذه الآفةِ. ولكن فى الوقتِ الحاضرِ كل ما نراه من أشجارٍ ناضجةٍ وسليمةٍ من هذا النوع، مِنَ الذى يستطيعُ مقاومةَ هذا الفُطْر، هى أشجارٌ تم استيرادُها حديثًا من آسيا.

عاد إلى مقعده وقال: "كما ترين يا كلير، فأحيانًا يمكن لشيءٍ صغيرٍ جدًا وتافهٍ أن يتسبَّب فى عواقبَ كبيرةٍ وغير منتظرة. آملُ أن تكونى قد فهمتِ ما أعنى. ما فعلتِ قد لا يبدو

Twitter: @alqareah

مُهمًّا فى الوقت الحاضر، ولكن قد يكون بدايةً لشيءٍ أكثرَ خطورةً. هذا ما أقلقَ أهلَكِ، وهذا ما يجعلُنى مُهتمًّا وقلقًا".

خيَّم على الغرفة سكونٌ صامتٌ وتَوتُّرٌ.

استرسلَ السيد ليڤانت: "ما فعلتِ يمكن أن يقودَكِ إلى سبيلٍ ومنهجٍ فى الحياةِ تصعبُ العودةُ منه. ستبدئين فى الانزلاق دون أن تدركى إلى أن تبلغى القاعَ".

تطلَّعتْ كلير خارجَ النافذة، ثم عادتْ بأنظارها نحوَ السيد ليڤانت.

قال السيدُ ليڤانت: "أُريدُ فقط أن أعلمَ شيئًا عن الأفكار التى كانت تدورُ فى رأسك. هذا كُلُّ ما فى الأمر".

أطلقتْ كلير زفرةً تَهكُّميَّةً وهى تقولُ: "هل تريد حقًّا أن تعلمَ بماذا أفكِّرُ؟"

أومأ السيد «ليڤانتْ» برأسه وقال: "بالطبع".

قالتْ كلير بإيجازٍ وبنبرةٍ حادَّةٍ: "حسنًا، فنحن نستمعُ ونهتمُّ، فقط، بقصة الشجرةِ لأنها ضخمة جدًّا. فهى تَبْرُزُ من الأرضِ على شكلِ لافتةِ إنذارٍ كبيرةٍ تقول: "هذا المكان لى"، وبعد أن تموتَ تتركُ وراءها جِذْعًا كبيرًا راسخًا فى الأرضِ يعلن عن وجودها. ولكن ماذا عن الآفات؟ ألَمْ يَكُنْ هذا من حُسْن حَظِّها؟ وها هى ذى الآن يمكنها الانتشارُ فى كُلِّ رقعةٍ من العالمِ. وماذا عن كل الأشجار والنباتات الأخرى، تلك

Twitter: @alqareah

التى احتلَّتِ المساحاتِ والأمكنةَ التى تركَتْها أشجارُ الكستناءُ العملاقةُ؟ فالأمر كُلُّه يعتمدُ على الزاوية التى نرى من خلالِها الأشياءَ، أليس كذلك؟"

انحنتْ كلير إلى الأمام وواجهتِ السيِّد ليڤانت بصراحة: "إنها المَرَّةُ الأولى التى أتَّخِذُ فيها قرارًا. قرارٌ حقيقىٌّ، وها أنَا أراك الآن قلقًا ومهتمًّا. جاء اهتمامكم متأخرًا، كان لديكم فيما مضى كُلُّ الأسبابِ التى تستدعى القلق. لِمَ لَمْ يقلقْ أىٌّ واحدٍ منكم طوالَ الوقت الذى لم أقْدِمْ فيه على أَىِّ اختيارٍ؟"

ابتسم السيد ليڤانت وتناول مُفكِّرتَه وقال: "حسنًا، هذا كل ما كنتُ أريدُ معرفتَه".

Twitter: @alqareah

2

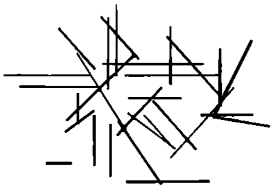

فى أثناء النهار، وحين تدفئ الشمسُ الهواءَ داخلَ السيارة، كان الضفدع النارى يزحفُ وهو يشعرُ بالوَهَنِ حول السجَّادةِ الجافَّةِ والقاسيةِ. يتطلَّعُ باحثًا عن بقايا الجراد. كان الجرادُ يُحْسِنُ الاختباءَ فى كلِ ركنٍ من السيارةِ، ولذا فكان كثيرًا ما يمضى النهار بطوله دون أن يتمكن من العثور على جرادةٍ واحدةٍ شاردةٍ. وأما فى الليل، فكان الهواءُ البارِدُ يمنعه من القيام بأيَّةِ حركةٍ. ولذا، كان يعودُ إلى رُكْنهِ المعتادِ تحت المقعد قانطًا مكتئبًا، وفى أغلب الأحيان جائعًا. كان يضمُّ قوائَمه بشدَّةٍ إلى بطنه ويغمضُ عينيْه ويتخيَّلُ.

وفى إحدى الليالى حَلَمَ بأنه يعيش فى بركةِ ماءٍ صافيةٍ ودافئةٍ يرشُّ المياهَ على نفسه. كان كلما ازداد مَرَحُه وهَرَجُه، تغيَّر الماءُ لسائلٍ هُلامِيٍّ تشتدُّ كثافته. تباطأَتْ حركةُ مفاصله

Twitter: @alqareah

إلى أن أصبحَ يكادُ لا يقدرُ على الحركةِ. ثم تكاثف الهواءُ حولَه من شِدَّةِ البردِ. خفَّتْ حركةُ طيرانِ الحشراتِ، وفجأةً تساقطتْ على الأرض. حين صحا من النوم فى اليومِ التالى كان جِلْدُه باردًا وجافًّا. لم يكن حُلْمُه بعيدًا تمامًا عن الواقع. مات ما تَبقَّى من الجراد فى السيارة فى صقيع الليل.

توقَّفَ الضفدعُ النَّارِىُّ بعد ذلك عن البحث واستكشاف ما فى السيارة. بدأ يتَّجهُ بأفكارهِ إلى الداخلِ. أخذ يعيدُ التفكيرَ ساعةً بعد أخرى، يتذكَّرُ حوضَه الزُّجاجىَّ المريحَ الذى يمتلئ بالجراد الفِضِّىِّ الرَّيَّانِ، وصوتَ فتاتهِ الصغيرةِ كارولين وهى تداعِبهُ. كان يتذكَّرُ رغبتَه آنذاك لمعرفةٍ، ولو للحظةٍ، كيف سيكونُ حالهُ لو عاش فى بركةٍ بريَّةٍ يشعرُ بجوارها بنبضِ حياةٍ تمتلئ بالمجهول. ثم كان يتطلَّعُ حولهَ فى أرجاءِ السيارةِ ويلومُ نفسَه على حماقته وغبائه.

وفى آخرِ الأمرِ، فَقَدَ اهتمامَه بأفكار اليقظة وأصبح النومُ والأحلامُ الخياليَّةُ أكثرَ الأجزاءِ إثارةً فى حياته.

تذبذبَ صوتُ رَجُلٍ فى داخل السيارة وهو يقول: "أفٍّ، هناك رائحةٌ كريهةٌ، رائحةُ تَعفُّنٍ، فى السيارة".

تزعزع ذو البطن النارىِّ لدى سماعه الصوتَ الصاخبَ، وفتح عينيه ببطءٍ ونظر من خلال عالمٍ ضَبابِىٍّ. لم يستطع

Twitter: @alqareah

أن يخمِّنَ كم مضى عليه وهو فى سُبَاتِهِ العميقِ. حَكَّ وجهَه بقائمتيْهِ الأماميتيْن، محاولًا أن يُعيدَ تكيُّفَ نفسهِ ويتذكَّرَ أين هو. ومَضَتْ عيناه ببطءٍ عدِّةَ مرَّاتٍ، ثم زحف من مخبئه ليحصلَ على رؤيةٍ أفضلَ.

كان يجلس وراء مِقْوَدِ السيارة رجلٌ ضخمٌ يلبسُ قميصًا مُقلَّمًا يصرخُ ويلوِّح بيديه. غضَّنَ أنفه وأخذ عِدَّةَ شَمَّاتٍ قصيرةٍ متتابعة، ثم أنزل زجاجَ السيارةِ وصرخ قائلًا: "ثَمَّةَ شيءٌ ميتٌ هنا". أخذ يبحثُ حوله وهو يهزُّ رأسَه ويضربُ على لوحة أجهزة القياس بإحدى يديه الضخمتيْن. ثم خرج من السيارةِ وأقفل الباب وراءه بقوةٍ.

وصل، فى ساعةٍ متأخرةٍ من ذات اليوم، رجلان يلبَسُ كُلٌّ منهما سروالًا فَضْفاضًا لوقاية الملابس وقميصًا أبيضَ. كانا يحملان أدواتِ نظافةٍ متنوعةً. فتح أحدهما جميع الأبواب وبدأ فى رش رذاذٍ مزيلٍ للرائحةِ الكريهةِ عن تنجيد المقاعد. حمل العامل الآخر بين يديه خرطوم المِكْنسَةِ الكهربائيَّةِ وركع داخلَ السيارة يشفطُ كُلَّ شيءٍ يمكنُ أن يجدَه على أرضيةِ السيارةِ. جلس ذو البطنِ النارىِّ فى مخبئه المعتاد قلقًا ولكنه آمنٌ يُمْعنُ التفكيرَ بما عليه أن يفعلَ، وكذلك بما يمكن أن يفعلاه إذا صَدَف وعثرا عليه.

قال الرجلُ الذى يحملُ المِكْنسَةَ: "انظر، جَرَادٌ مَيِّتٌ مبعثرٌ فى كُلِّ مكانٍ من السيارةِ".

Twitter: @alqareah

قال الآخر: "هممم. يفعل الناس أمورًا غريبة في هذه السيارات المؤجَّرة".

بدأ الرجلُ الذي يمسكُ الخرطومَ في العَدِّ: "واحدة، اثنتان، ثلاث جراداتٍ...".

– انظر يوجد هنا المزيد.

كان يشفطُ كُلَّ جرادةٍ يعدُّها: "خمسة، ستة...".

– ها هنا أكثر وأكثر.

ساقهم داخلَ الأنبوبِ وهو يتابعُ العَدَّ: "سبعة، ثمانية...".

كان هذا بالنسبةِ لهما لعبةً مسليةً. لم يرغب ذو البطن الناري أن يشاركَ في اللَّعبِ رغمًا عنه. كان يشكُّ في أنهما سيرغبان بضفدع أو أنهما سيُحْسِنان معاملتَهُ. ولذا ظلَّ ساكنًا بلا حراكٍ يتخيَّل أنهما سيصفان بمرحٍ كيف شفطا إلى داخل أنبوب المكنسة كائنًا أخضرَ صغيرًا بقدمين.

ومع ذلك، فقد انقلبتْ عمليةُ التنظيف إلى حَدَثٍ سعيدٍ. فمن خلال امتلائهما بالحماس والمرح للبحث عن الجرادِ وغسلِ السيارةِ، أهملا قفلَ نافذةَ سائقِ السيارة بالكامل. تسرَّبتِ المياهُ وبلَّلَتِ السجَّادةَ. تدحرج ذو البطنِ الناريِّ على مَعِدَته وجنبيْه ممتصًا السائلَ الباردَ والوَسَخَ من خلال جِلْدِه. كان الماء شيئًا طالما تمتَّع بوجوده بغزارةٍ فيما مضى، والآن بدا بالنسبةِ له مثلَ منحةٍ من السماءِ أحيتْ وجدَّدتْ إحساسَهُ بالاحتمالاتِ الممكنة وأمدَّتهُ بالتفاؤلِ.

Twitter: @alqareah

أمضى الأيامَ القليلةَ التاليةَ يستكشفُ السيارةَ بحرصٍ. وجد مواقعَ جديدةً للاختباء وتأمَّلَ مُفكرًا بميِّزاتِ كُلِّ ركنٍ منها. كان ثَمَّةَ مَكانٌ، بالقربِ من بابِ المقعد الأماميِّ وعلى الجانب الآخر من مقعد السائق، يمكنُ من خلاله مراقبةُ السائقِ، كما يهيِّئُ له إمكانيةَ القفزِ بسهولةٍ إلى خارجِ السيارةِ.

وبعد أن شعرَ بالرضا لعثورهِ على كل الأماكنِ الجيدةِ للاختباءِ في أرضيَّةِ السيارةِ، بدأ في البحث عن وسيلةٍ ما تساعدُه ليتسلَّقَ ويصلَ إلى النوافذِ ليتطلَّعَ إلى الخارجِ. أخذ يتخيَّلُ بأنه قد يجدُ بِرْكةً جميلةً أو مَرْجًا وافرَ الخُضْرةِ على البُعْدِ. وهكذا سيتمكَّنُ من القفزِ إلى خارجِ السيارةِ حين يُفتح بابُها؛ لعلَّه يشقُّ لنفسه طريقًا نحو مَأْوًى جديدٍ.

ولكنَّ إلقاءَ نظرةٍ استكشافيَّةٍ إلى خارجِ السيارةِ كان صعبًا جدًّا. بعد محاولاتٍ كثيرةٍ فاشلةٍ وجد أخيرًا وسيلةً ليدسَّ نفسه بين الباب والمقعد. شبَّ إلى أعلى، نحو الإفريز في أسفل النافذة، ثم زحف نحوَ لوحةِ السيارة. ولكنَّ شعورَه بالنصرِ لوصوله لمثلِ هذا الموقعِ الاستكشافيِّ الجيد لم يَدُمْ طويلًا. فالمشهدُ لم يكن مشجِّعًا. قابله بَحْرٌ قاسٍ مزعجٌ وباردٌ من السيارات المعدنية والإسفلت الأسود الذي بدا أنه يمتدُّ إلى ما لا نهاية وفي كافَّةِ الاتجاهاتِ.

Twitter: @alqareah

ومع أن المشهد كان مُحْبطًا، إلا أن السلوكَ الغريبَ للناسِ وهم يتجوَّلونَ بين هذه المساحاتِ كان مُسلِّيًا. فإن كانوا من المغادرين، فهم يفتحون كل أبواب السيارة ويُنْزِلُونَ متاعَهم إلى الأرضِ، ثم ينتظرون بنفاد صبرٍ وصولَ حافلةٍ تنقلهم بعيدًا. أما إن كانوا من الواصلين، فسيطلبون ممن يوصِّلهم أن يُنْزِلَهم إلى جانبِ السيارةِ التى سيستأجرونها ثم يكوِّمون كُلَّ متاعِهم داخلها. أحيانًا، فى اضطرابِ الوصول والمغادرة كان البعضُ منهم ينسى حقيبةَ سفرٍ على الرصيفِ.

فى يومٍ من الأيامِ، أوقع أحدهم كتابًا مزخرفًا بطريقة مُعقَّدةٍ كان يحمله بين كومةٍ من الأوراقِ. راقبَ الضفدعُ النارىُّ كيف كان العشراتُ من الناسِ يمرُّون بالقربِ من الكتابِ ولا يلحظونه أو يتجاهلونه. أصبح الكتابُ جزءًا مألوفًا اعتاد عليه المارَّةُ من الناسِ وكأنه جزء من إسفلت الطريق والامتداد المعدنى للسيارات. كان مرميًّا مثلَ ورقةٍ وحيدةٍ منعزلةٍ فوق بركةٍ صافيةٍ. راقبَ الضفدعُ النارىُّ الرياحَ وهى تقلِّب صفحاتِ الكتاب، والمطرَ المنهمرَ يلطِّخ غلافه، والشمسَ تُبهِتُ جِلْدَته. تعاطف الضفدعُ معه وتفهَّمَ مشاعرَه، وهو يراه مُتحمِّلًا لهذا الجَوِّ السيئ منبوذًا وحيدًا لا يثيرُ أىَّ اهتمامٍ.

على غير انتظارٍ، سارتْ فتاةٌ شابةٌ نحو الكتاب ثم توقَّفتْ. انحنتْ والتقطَتْه. تحسَّستْ غلافه بلطفٍ بيديها وأخذتْ تُقلِّبُ

Twitter: @alqareah

محتوياته. تتوقفُ عند صفحاتٍ مُعيَّنهِ لتقرأها. وقفتْ لفترةٍ طويلةٍ دون حراكٍ، كالمسحورةِ، تقلبُ الصفحاتِ ببطءٍ كما لو أنها نسيتْ إلى أين كانت ذاهبةً، ثم فتحتْ حقيبتها ووضعتِ الكتابَ بداخلها وأخذَتْهُ معها.

Twitter: @alqareah

3

حين كانتْ بالمدرسة الابتدائية، تم ضبطُ كلير وهي تذيبُ أقلامَ شمع التلوين فوق جهاز التدفئة. طلبتْ منها المُدرِّسةُ أن تجلس على مكتبها وتختار عملًا أفضل تعمله. أمعنتْ كلير التفكيرَ بما فعلتْ. فكرتْ كيف أن القلمَ الصَّلْبَ الأزرقَ قد تحوَّل بعد فترةٍ قصيرةٍ إلى سائل. وكيف كان الشمعُ يزداد ذوبانًا كلما ضغطته بقوةٍ أكبرَ فوق جهاز التدفئة. فكرتْ في الجدول الصغير الذي تكوَّن من الشمع المنصهر والذي كان ينسابُ هزيلًا متساقطًا على الوجه الأماميِّ للمُشعِّ الحراريِّ. يتتبَّعُ الفجواتِ في سباكةِ الحديدِ إلى أن يصلَ إلى أسفلَ. وكيف كان يتدلَّى مثل قطرات نَدَى الصباح فوق أوراق النبات.

فكرتْ كيف شكَّلَ قلمُ الشمعِ الأصفرِ خطًّا يتحرك مرتَّجًا إلى جانبِ اللون الأزرق يتقاطعان وهما في طريقهما إلى أسفل،

Twitter: @alqareah

ويشكِّلان شرائطَ مُخضرَّةً نَضِرةً وهما يمتزجان. تذكرتْ تلك القطراتِ وهى تختلطُ معًا ثم تنزلُ على أرضِ الفصل وتُشكِّلُ بركةً جليديَّةً مُشعَّةً من الجَلِيدِ الأخضر الزُّمُردِىِّ. حاولتْ أن تفكرَ فى اختيارِ أفضلَ، ولكنها لم تجدْ.

حينما كانت بالمدرسةِ الإعدادية، أخذت كلير سِوَارًا من المحلِّ التجارىِّ القريب من منزلها. لاحظ والدُها السِّوارَ على مِعْصَمِها وسألها: "من أين جئتِ بهذا؟" فى أول الأمر قالتْ إنه هديةٌ قدَّمتْها لها صديقتُها فى المدرسةِ؛ ولكنه حين واجهها بأدلَّةٍ لا يمكِنُ إنكارُها اعترفتْ له. فى اليوم ذاته، سار والدُها وهو يشعرُ بالخجلِ والمهانة وراءها وهى تمضى نحو الموظَّفِ بالمحلِّ لإعادة السِّوار.

فى الليلة ذاتها، طلب منها والدُها أن تعيدَ التفكيرَ فى العملِ الذى اختارت فعله والعواقب التى نتجت عنه. هل كان الأمر يستحق هذا الشعور بالمهانةِ؟ جلست كلير فى غرفتها تفكر كم بَدَا السوار جميلًا على رُسْغِها. ثقيلٌ وصَلْبٌ يحيطُ بمعصمها. أنيقٌ وعصرىٌّ. تذكرت الحُلِىَّ الصغيرةَ التى تتدلَّى حول السوار والتى كانت تتأرجح أثناء سيرها. ليس مثل أى سوار من البلاستيك الرخيص. علَّقتْ صديقاتُها فى المدرسة بإعجابٍ على إتقان صُنْعه وجماله، وأردن الحصولَ على مثله. وذكر أحد الشباب أنه يبدو رائعًا بالفعل. حاولتْ أن تفكر باختيارٍ أفضلَ، ولكنها لم تجدْ.

Twitter: @alqareah

حين كانتْ بالمدرسةِ الثانوية. تساءلت كلير: هل من العدلِ أن يُحاكَم الإنسانُ على ذنوبٍ ارتكبها إن لم يكن حُرًّا؟ بدأتْ تقرأ عن جرائمَ مرعبةٍ حُكم لصالح من ارتكبوها بالبراءة، ليس لأن هناك أيَّ شكٍّ فى اقترافهم لهذه الجرائم، ولكن لأن هيئة المُحلَّفينَ أقرَّتْ بأنهم كانوا تحت سيطرة وتَحكُّم قُوًى خارجةٍ عن إرادتهم. يَبْرَعُ المحامون فى خَلْق خُطَطٍ مُتْقنَةٍ ومدروسة ليثبتوا أن مُوكِّليهم كانوا قد فقدوا القدرة على تمييز الصواب من الخطأ، فى اللحظةِ التى قاموا فيها باقترافِ الجريمة. ويُثْبِتُون أنهم لم يكونوا أحرارًا، يدَّعُونَ بأنهم لم يكونوا قادرين على التحكُّم فى إرادتهم، ولذا فمن المفروض عدمُ معاقبتهم على ما ارتكبوا من ذنوبٍ.

ماذا لو أننا دَعَوْنا فريقًا منَ المحامين ومجموعةً من المُحلَّفِينَ ليقوموا بالحكمِ على اختياراتنا اليوميَّة، مثل: اختيارِنا للطعامِ واختيارنا للأصدقاء واختيارنا لأن نتلاعبَ بوقتنا؟ هل سيخبروننا بأنه كان لنا مُطْلَقُ الحُريَّةِ فى اختياراتنا ولذا فنحن نُعْتَبر مُذْنبين؟ هل هذه الأفعال التى نقوم بها لا يمكن تفاديها؛ إذًا فنحن نُعتبر أبرياء؟ ضعْ قِطَعًا من اللحم أمام كلبٍ جائع – كُلُّنا نعلم ما سيفعلُ.

أرادتْ كلير أن يكون ثَمَّةَ تَجَمُّعٌ لهيئةٍ من المحلفين تحكم على كل عملٍ يقوم به الإنسان على مدى الحياة، لتكتشف

Twitter: @alqareah

ماذا تعنى حرية الاختيار، ولتجدَ أن الناسَ قد يكونون مذنبين ولو أنهم نالوا التقدير الجيد على أعمالهم – وليس العكس. فالتلميذ الذى درس بجدٍّ لأيام طويلةٍ ليحصل على درجاتٍ عاليةٍ، كان قد قام باختيارٍ مختلفٍ تمامًا عن التلميذ الذى لم يدرس أبدًا وحصل على الدرجات ذاتها بضربة حَظٍّ. إن الإنجازَ الذى ننالُه من غير إرادةٍ أو نِيَّةٍ هو فقط وليد الصُّدْفةِ، ولا يُعدُّ إنجازًا. أليس كذلك؟ فبدلًا من إجراء محاكمات لإثبات الذنب على اقتراف عمل خاطئ، لمَ لا نُجْرِى محاكماتِ لإثبات الذنب عندما يحققُ شخصٌ ما إنجازًا دون بذل الجهد لتحقيقه.

قرأتْ كلير عن أبٍ طلب من ابنه أن لا يكون الأولَ فى فصله، وأن لا يسعى ليصبحَ الأكثر تميُّزًا، بل يكتفى بأن يكون ترتيبُه الثالثَ على الفصل. وهو أسلوبٌ فى التفكير أثار اهتمامها. فبالفعل، إن حصولك على المركز الأول هو فقط إنجازٌ علمىٌّ بحتٌ. يمكن للإنسان الآلىِّ العبقرىِّ بلوغَه، غير أن احتلالَك للمرتبة الثالثة إنجازٌ نفسىٌّ، يتطلَّب منك إدراكًا وتفهُّمًا لما يدفعُ الناسَ ويحرِّضهُم على عملِ شىءٍ ما.

فى عامِها الأول بالمدرسة الثانوية، لم تَعُدْ «جَزَرَةُ» الحصولِ على علاماتٍ جيدةٍ هى الدافع الذى يحرِّضُها ويحثُّها على الدراسة. فهى لم تعد تريد أن يتمَّ تصنيفُها وفرزُها كأنها

Twitter: @alqareah

علبة لبن. لا تريد أن يقيِّمها أشخاصٌ هى نفسها تقيِّمُهم بدرجاتٍ دونَ النجاح. وفى حين كان والداها وأساتذتها يجاهدون للعثور على أجوبةٍ مقنعةٍ لتدهور كفاءاتها وتدنِّى علاماتِها فى المدرسةِ، ويبحثون عن سببٍ لزيادةِ تَكتُّمها فى الحديثِ، وجُنُوحها للقتالِ والثورة – ثبَّطت كلير عزيمتهم جميعًا، وذلك، إما بالصمت المُطْبق أو بالردِّ بإجاباتٍ مقتضبةٍ وغامضةٍ توحى بالاستخفافِ والسُّخْريَةِ...

اقترحتِ المُدرِّسةُ أن تبدأ بالالتقاء أسبوعيًّا بأحد المستشارين الذين يعملون فى المدرسة. كانوا يأملون أن تُحسِّنَ هذه المقابلاتُ من تحصيلها الدراسيِّ المتردى، كما أنه قد يهيِّئ لها مكانًا لتناقشَ من خلاله أيَّةَ مشكلة اجتماعيَّة تعانى منها. نصحتِ المُدرسةُ وزكَّتْ أن يكون مستشارَها الأستاذُ ليڤانت، مدرِّس اللغة الإنجليزية فى المدرسة .

وصلت كلير متأخرةً فى لقائها الأول مع السيد ليڤانت.

سألها الأستاذ ما أكثرُ شيءٍ تحتاج فيه للمساعدةِ.

أجابته: "كَسْرُ الأشياء" .

"هذا شيء جيد كبداية ولكن، لا تحاولى تجريبه فى مكتبى" . ضحك السيد ليڤانت ضحكةً قلبيَّةً.

أشاحتْ كلير عينيها وقالت: "هل ترى هذا مُسلِّيًا ومضحكًا؟"

Twitter: @alqareah

تغيَّر أسلوبهُ فى التعبير فجأةً، وتوقفت ضحكتهُ بسرعةٍ وقال: "هل تعلمين يا كلير، أنا مثلُك تمامًا، لا أجد هذا ممتعًا. فأنا لا أرى أنه من الضرورىِّ أو المفيد أن أكونَ مُفكِّرَتكِ الشخصيَّةِ والمسئولَ عن تذكيرك بكُلِّ اختبار مُقرَّرٍ عليكِ. هل تريدين معرفةَ رأيى الحقيقىِّ؟"

أشارتْ كلير بيدها إشارةً تدلُّ على عدم الاهتمام.

استأنفَ السيدُ ليڤانت: "اطَّلعتُ على سِجلِّكِ الدراسىِّ. منذ بدءِ دراستكِ الابتدائيَّةِ حتى الإعداديَّةِ، كما تحدَّثتُ مع بعضٍ من أساتذتك..."

– إنك فُضُولىٌّ للغاية...

– أظنُّ أنك تستمتعين بالعلم كثيرًا، ولكنك لست مهتمةً بتداعياته وبنتائجه الجانبيَّة مثل: الدرجات، المستقبل المهنىّ، الوظيفة المميَّزة.

قالت كلير وهى تنظرُ بعيدًا، وقد بدتْ فى نظرتها لمحةُ تسليمٍ بصحَّةِ ما يقولُ: "رُبَّما".

– هذا تفكيرٌ مقبولٌ. فالكثيرُ من الناسِ لا تجذبهم فى حياتهم مثلُ هذه الإغراءاتِ. أظن أن ثَمَّةَ أشياءَ كثيرةً ترغبين فى معرفتها بشدَّةٍ، وبعُمْقٍ. أعتقدُ أنك تملكين أفكارًا كبيرةً وعظيمةً، ولكنها قليلًا ما تُدرَجُ فى المناهجِ الدراسيَّةِ فى المدرسةِ. أودُّ لو أستكشفُ البعضَ منها معكِ. يمكنُ أن أكونَ مخطئًا. سنرى...

هزَّتْ كتفيْها بغيرِ اكتراثٍ.

Twitter: @alqareah

قال السيد ليڤانت وهو يشيرُ بيديْه بحركةٍ مباشرةٍ: "على فكرة يا كلير، أريدُ أن أعلِّمَك كيف تكسرين الأشياءَ، ومن أصعب الأشياء وأشدِّها صلابةً ومقاومةً للكسرِ ما هو غيرُ ملموسٍ – مثل، عادةٍ سيِّئة. فى الأسبوعِ القادمِ دعينا نبدأ بكسر عادتكِ فى الوصولِ متأخرةً عن الموعدِ".

Twitter: @alqareah

4

- اتركني، ابتعدْ عنِّي... سأفعلُ هذا بنفسي... انزلقتْ دمعةٌ من وَجْنَةِ كلير نحوَ الترابِ المُكوَّمِ إلى جانب رُكْبَتيْها.

قال الأبُ وهو يضعُ يده على كتفها: "أنا آسفٌ".

أبعدتْ يدَه بعيدًا وقالتْ: "آسف! أهذا كُلُّ ما يمكنُك قولُه؟"

- لم يكن لي إرادةٌ فيما حصل، إنها حادثةٌ. قال هذا وهو يحاول أن يقنعَ نفسهَ أكثرَ من إقناعِ ابنتهِ. كانت السيَّارةُ قد انقضَّتْ عليه من الأمامِ. اندفع «رَافْلِسْ» من عزم الاصطدام ليحطَّ على لوحةِ أجهزةِ القياسِ في سيارته. صوتُ احتكاك المعدن على المعدن ما زال يرنُّ في أذنيْه، كما انطبع في ذاكرته صورةُ وجه كلير المفزوع وهي ترفعُ الكلبَ الفاقد للحياة من حضنها.

Twitter: @alqareah

قالت: "سأدفنهُ بنفسي. كُلُّ ما أريدُ أن تبتعدَ عنِّي. فلقد كان كلبى وليس كلبَك".

قال الأبُ وهو يركعُ بجوارها على الأرض ليساعدها فى الحَفْرِ وإزاحةِ التراب: "أعلمُ أنَّكِ حزينةٌ ومضطربةٌ".

ارتعش صوتُها وهى تقولُ: "كُلُّ ما أريدُه... أن تتركَنى... وحدى".

أخذ غَرْفَةً أخرى من التراب. حدَّقتْ فى وجهه. فتح يديْه وتركَ الترابَ ينسابُ من بين أصابعه، ثم قال: "يمكنُنا أن نتبادلَ الحديثَ مساءً. اتفقنا؟" ثم استدار على عَقِبيْهِ وهو يراقبُ الحِدَّةَ على وجه ابنته وهى تمسك بيدها مالجًا لتحفر به قبرًا فى الأرض. ذكّره الترابُ الذى يملأ يديها وخَطٌّ الوحل الذى ارتسم على خَدِّها بما فعلته منذ عدة أسابيع مضت.

سألها: "هل ستكونين على ما يُرام؟"

تجاهلت سؤاله واستمرَّتْ فى الحفرِ.

قال: "سأعودُ بعد قليلٍ. سأذهبُ لاستئجار سيارةٍ أخرى إلى أن يتمَّ تصليح سيارتى".

سحبتْ يديها من فوقِ الأرض فى غضبٍ، والتفتتْ نحوَ والدِها وقالت: "سيارة أخرى؟ بكل هذه البساطة!"

قال: "أنا بحاجةٍ للوصولِ إلى عملى بوسيلةٍ ما".

Twitter: @alqareah

انتصبتْ واقفةً فجأةً وواجهتْ والدَها وكأنها تتحدَّاه للدخولِ فى معركةٍ، وقالت: "من الممكن أن يتمَّ إصلاحُ سيارتك وتسوية وملء أىِّ انبعاج وطلاء كُلِّ كشطٍ. كُلُّ شىءٍ سيعودُ إلى ما كان عليه، ولن يعرفَ أىُّ شخصٍ ما حدث - ولكن فى الواقع هناك شىءٌ **بالفعل** حدث". أشاحت وجهها بعيدًا عنه. وضعت علبة من الورقِ المُقوَّى داخل الحفرة على الأرضِ وقالت: "اذهب، واحصل على سيارتك الجديدة".

تردَّدَ والدُها للحظةٍ ثم غادر.

جلس الضفدعُ النارىُّ عاطلًا وهامدًا على حافَّةِ اللوحة الأمامية للسيارة. وعلى حينِ كان يتطلَّعُ إلى المنظر الشامل من المعدن الأملس الملون والزجاج الذى يحيطهُ من كُلِّ اتجاهٍ ويستمتعُ بدفء الشمس على جلده؛ أخذ يفُكِّرُ بالرفاهيةِ والراحة التى لم يَعُدْ لهما من وجودٍ الآن إلا كذكريات.

وبينما هو جالسٌ فاترَ الهِمَّةِ لاحظ على البُعْدِ شكلًا لرجلٍ يلبس قميصًا أبيض يحاول أن يشقَّ طريقه، ويمشى فى خَطٍّ مُتعرِّجٍ بين مَمَرَّاتِ السيارات المرصوصة. وَضَحتْ مع كُلِّ لفتة صورةُ الشخص القادم، إلى أن تَبيَّنَ فجأةً أنها لرجلٍ بالغٍ يقفُ إلى جانب السيارة، يتلمسُ بارتباكٍ موقعَ قفْلِ باب السيارة. قفز ذو البطن النارىِّ نحو المقعد المجاور لمقعد السائق. وثبَ

Twitter: @alqareah

وَثبْةً مفاجئةً لأعلى، ثم انقلبَ وحطَّ على الأرض. انطلق مسرعًا نحو كُوَّتهِ فى الوقتِ ذاته الذى انفتح فيه بابُ السيارة.

جلس الرجلُ ببطءٍ على مقعد السائق ووضع كفَّيْه على المِقْوَد، ثم حوَّل جانبَيْهِ إلى أن وَصَلتْ يداهُ إلى أسفله وتقابلَ مِرْفقَاه بزاويةٍ حادةٍ. زفر زفرةً من أنفه باعتدالٍ وقياسٍ محسوبٍ، وهو يَقفلُ عينيه ويخفضُ وجهه. ثم أخذ نفسًا عميقًا ونظر إلى الخارج من خلال الزجاج وأدار محرك السيارة.

شعر ذو البطن النارىِّ بالحماس والإثارة لما يمكنُ أن يترتَّبَ على حركة السيارة وانطلاقها من إمكانات. زحف خارجًا من مَكْمنِه لمسافةٍ تتيحُ له رؤيةً أفضلَ للشخص الذى قد يحرِّره فى وقتٍ قريبٍ. كان وجه الرجل مطمئنًا يدلُّ على أنه يهتمُّ ويتأمَّلُ. ومع هذا، فقد كان يبدو شاردًا ومشغولَ البال. إحدى فردتَىْ حذائهِ لم تكن مربوطةً وكان يرتدى جوربين مختلفين. كما كان هناك ترابٌ على موقع الرُّكبْتَيْنِ فى سرواله ولُطَخٌ على قميصه الأبيض. لم يكن من السهل التنبُّؤُ ما يمكن أن يعنى ضفدعٌ لهذا الإنسان - مفاجأةٌ سعيدةٌ أم عبءٌ ثقيلٌ مثيرٌ للاشمئزاز والقرف.

أنزل الرجل زجاج النوافذ كلها. تبدَّلتِ الرائحةُ الكريهةُ التى كانت تنبعثُ من السيارةِ بهواءٍ منعشٍ هائجٍ نقل معه بضعَ حشراتٍ. اندفعتْ ذبابةٌ نحوَ الزجاجِ الخلفىِّ للسيارةِ

Twitter: @alqareah

وأخذت تترنَّح دائخةً ثم وقعتْ على المقعد الخلفىِّ وبعدئذٍ إلى الأرض. راقبها ذو البطنِ النارىِّ وهى تلف حوله فى كُلِّ مكانٍ بدون هدفٍ.

شدَّ عضلات قوائمه. صاحَبَ عددٌ من الحشراتِ الأخرى الذبابةَ فى الأزيزِ. سيفكر لاحقًا فى الخطوة التالية ولكن أمامه الآن المغامرةُ سانحةٌ واللقمةُ سائغةٌ، على مرمى البصر، للحصول على طعام هو بأشدِّ الحاجة إليه. خرج من تحت المقعد والتقط حشرةً. استمرَّ فى الصيد إلى أن شعر بالامتلاءِ والرضا والنُّعاسِ، ثم زحف عائدًا إلى مخبئه وغطَّ فى نومٍ عميقٍ.

أيقظ إغلاق الباب بعنفٍ ذا البطنِ النارىِّ. فتح عينيه. كانت السيارة الآن خاليةً. استمع إلى صوت خطوات الرجل وهى تتخافتُ متباعدةً.

كان مذاق الحشراتِ لذيذًا جدًّا منحته شعورًا بالرضا والشِّبَع. على ما يبدو، فإن العيشَ فى سيارةٍ ليس مشكلةً كبيرةً كما كان يحسبُ.

تسلَّقَ صاعدًا نحو اللوحة الأماميَّة وتطلَّع حوله. وقفتِ السيارةُ على مَمَرٍّ أمامَ بيتٍ أبيضَ يتألَّف من دَوْرَيْن. رُصتْ على شرفة الدور السُّفْلِىّ بعضُ الكراسىّ إلى جانب نافذة

Twitter: @alqareah

كبيرة جدًّا تطل على مَمْشًى مرصوفٍ ببلاطٍ من الآجُرِّ يقود إلى المدخل الرئيسيِّ للمنزل، كما يتصلُ برصيفٍ جانبيٍّ. شعر بالراحة حين رأى تشكيلةً متناسقةً من العُشْبِ المُورِقِ المُغْرِى، والأشجار المُظلِّلة، والشُّجَيْراتِ الكثيفة.

كانتْ تقف خارج المنزل فتاةٌ طويلةٌ تنظر إلى السيارة. شَعْرُها طويلٌ ومُسْترسِلٌ على كتفيها من الأمام والخلف.

علقتْ إبهاميها فى جيبَىْ بنطالها المُتغضِّن والمصبوغ بلونٍ أسمرَ ضاربٍ إلى الصُّفْرَةِ. كانتْ عيناها حادَّتَيْن تتفحَّصان وتحدِّقانِ بدقةٍ إلى داخل السيارة، كما لو أن بداخلها شيئًا تريده.

شعرَ ذو البطنِ النارِىِّ بالقلق واللهفة الشديدة للتعرُّف إلى الفتاة، ربما أنها رأته. هذا ما يتبين من طريقة تحديقها... لا بد أنها تحس أن ثَمَّةَ شيئًا غيرَ عاديٍّ فى هذه السيارة. كتم ذو البطن النارى أنفاسه وانتظر مترقبًا. لو أنها تقتربُ وتفتحُ الباب ربما...

فجأةً، استدارتْ مبتعدةً عن السيارة ومضتْ نحو المنزل.

جلس ذو البطن النارى يراقب العالم الخارجى إلى أن بدّلتِ الظُّلْمةُ الألوانَ البرَّاقةَ للعالم إلى أشكالٍ مكتومةٍ من اللون الرَّمادِىِّ. حينئذٍ عاد إلى مخبئه تحت المقعد. أمضى ليلةً مليئةً

Twitter: @alqareah

بالأحلام الخرافية التى لا تُصدَّق. أحلام غنية وجديدة من نوعها. لا تمتُّ بصِلَةٍ للأحلام القديمة الدنيوية عن الماضى القريب. حلم بأنه تم العثور عليه ووُضِعَ فى صالة عرض للحيوانات الأليفة حيث أصبح كائنًا شهيرًا وموضوع بحثٍ ومناقشة إذ تبيَّنَ، بالصدفة المحضة، أنه رمزٌ للحَظِّ السعيد. حلم بأنه يقفز إلى الغابة، إلى العالم الخارجى حيث نبتتْ له أجنحةٌ وطار عاليًا نحو الأشجار يتطلَّع من عليائه إلى البرك والبحيرات والغابات. حَلَمَ أنه تحوَّل إلى فارسٍ مَلَكىٍّ يستمعُ إلى صوته العالمُ بأسْرِه.

Twitter: @alqareah

5

لمع صدى صوت أقدام كلير وهى تخبط الأرضيةَ الخشبيةَ المُلَمَّعةَ بالشمعِ. ما أسرعَ ما ستتعالى الأصواتُ ويصخبُ هذا الرُّواقُ بضجيجِ تلاميذ الدراسة الثانوية! أما الآن، فالصوت الوحيد هو خبطاتُ حذائها. توقفتْ أمام باب مكتب السيد ليڤانت. فُتح الباب قبل أن تقرعه.

قال السيد ليڤانت: "سمعتكِ وأنتِ قادمةٌ. مازلنا بحاجةٍ لكسر عادتكِ السيئةِ فى الوصولِ متأخرةً عن الموعد".

نظرتْ كلير إلى ساعتها وقالت: "لم أتأخرْ سوى بضعِ دقائقَ. أرى أننى وصلت فى الوقت المُحدَّد".

قال السيد ليڤانت: "ليس هناك شىءٌ اسمهُ الوقتُ المُحدَّد، فأنتِ تصلين إمَّا بعد الوقت المحدد أو مبكرًا عنه. الوقت المحدد ما هو إلا مِسْحةٌ من عقرب الثوانى على وجه

Twitter: @alqareah

الساعة. إن كنت لا ترغبين بالوصول متأخرةً، فالاختيارُ الآخرُ الوحيدُ هو الوصول مُبكِّرةً".

ثم أشارَ إليها بالجلوس.

أدارتْ عينيها فى مَلَلٍ وتخطّته وهى تقول: "أيٌّ كان".

سأل السيد ليڤانت: "كيف كانت الدراسةُ فى الأسبوع الماضى؟"

– لا بأسَ بها.

تساءل وهو يلفُّ على كُرْسِيِّه الذى يدورُ على حاملٍ ويلتقطُ بعض الأوراق من فوقِ مكتبه: "أحقًّا؟ تحدثتُ مع بعض أساتذتك. تغيبتِ عن بعض الفصول. أخبرونى أن واجباتك لم تكن مكتملة. يبدو أن درجاتك تظلُّ تنحدر – متجهةً نحو الحرف التالى من الحروف الأبجدية".

جلستْ كلير على مقعدها وشدَّتْ عنقها من جانبٍ إلى الجانب الآخر وقالت: "فى الحقيقة لا تُهمُّنى المدرسةُ كثيرًا".

التقط ملف أوراق كلير وبدأ فى تفحُّصِها، ثم قال: "نعم، قلتِ لى ذلك من قبل. هذا ما توصَّلنا إليه الأسبوعَ الماضى. دعينى أرى... أريدُ أن أكوِّن فكرةً جيدةً، صورة نتناقشُ من خلالها لنقرِّر ماذا سنفعل".

دوَّن عدة ملاحظاتٍ، ثم رفع رأسه وقال: "هل لديكِ أيَّة أسئلةٍ؟"

Twitter: @alqareah

– كلَّا.

– حسنًا، لديَّ البعضُ منها... حدِّثيني عن أَصدقائك؟ عن علاقتك بهم؟

– في أحسن حال.

– في أَحسن حال. أَهذا كُلُّ ما لديكِ؟

– هذا كُلُّ ما لديَّ.

– عمَّ تتحدثون؟

تنهَّدتْ كلير وأَلقت لمحةً إلى ساعتها وقالت: "لديَّ بعضُ الواجباتِ التي أَودُّ فعلًا الانتهاءَ منها. يجبُ أَن أَقدِّمها اليوم. لا أُريدُ أَن تنقصَ علاماتي أَكثر مما هي عليه. أُريد أَن أَقومَ بعملٍ مثمرٍ".

– هذا شيءٌ جيدٌ. بإمكانكِ إكمالُ واجبك بعد الانتهاءِ من هذا اللقاء.

أَصلحتْ كلير من جِلْستِها ووجَّهتْ أَنظارَها إلى خارج النافذة وقالتْ: "حسنًا، كما تريد".

– احكِ لي قليلًا عن أَصدقائك. هل هذا ممكن؟

تساءلت: "عن أَصدقائي؟"

– نعم. أَصدقائك؟

– همممم... إنهم يعلِّقون على ملابسي.

بدا على السيد ليڤانت بعضُ الارتباك وقال: "أَرجو المعذرةَ... ملابسُكِ؟"

– أنت الذى سألتنى عمَّ يتحدثون... يتحدثون عن أننى ألبس الثياب ذاتها يومين متتالييْن.

– وما شعورُك بالنسبةِ لهذا؟

– كما لو أننى لا أريدُ الاستماع إليهم. فأنا فى الواقع لا أريد أن أنقل ثيابى جيئةً وذهابًا كل مرة بين منزلين كما لو أننى مهاجرة. يبدو لى أحيانًا أنه من الأسهل ارتداءُ الثياب ذاتها. ولكنهم لا يريدون إدراك هذا الأمر أو حتى إعارته أىَّ اهتمامٍ أو تفكيرٍ.

– والداك منفصلان. أليس كذلك؟

– نعم وأنت تعلمُ ذلك. فأنا متأكدةٌ أن ذلك مُدوَّنٌ فى سِجِلِّى المَدْرسىِّ.

– هل تريدين ذكر أىِّ شىءٍ حولَ هذا الوضع؟

– الانتقالُ من بيتٍ إلى بيتٍ شىءٌ أفعله وحَسْب ولا أُعيرُه أىَّ اهتمام أو تفكير... هل يمكنُنا الحديثُ عن شىءٍ آخرَ؟

– لا بد أنه أمر صعب أغلب الوقت.

– مزعجٌ وغيرُ عَمَلىّ، هذا كُلُّ ما فى الأمر. أحيانًا أنسى شيئًا فى هذا المكان أو فى ذاك أو تفوتُنى مكالمةٌ هاتفيَّةٌ. ولكن من الممكن أن تحصُل مثل هذه الأشياء أينما عشتُ.

– لا بد أن هذا الوضعَ يتركُ شعورًا ما فى نفسك؟

ردتْ كلير وقد بدت فى نبرة صوتها لمسةٌ من السخرية: "نعم، فأنا أشعر بأنه أمر مفيد جدًّا. فأنا أحصل على إجازتين بدلًا من

Twitter: @alqareah

واحدة، وأحظى بهديتين في عيد ميلادي. وإن أردتُ فعلَ شيءٍ ما أو أن أذهبَ إلى مكانٍ ما فأمامي دائمًا فرصتان لسماع : «**نعم**»".

سألها: "ولكن هذا الانفصال، ألَا يثيرُ غضبَكِ أبدًا؟"

هزتْ كلير رأسها بالنفي وقالتْ: "لا يترك لديَّ شعورًا بأيِّ شيءٍ. اعتدتُ عليه. كما تعتادُ الحيواناتُ المهاجرةُ على الهجرةِ، إنني أنتقل بينهما، هذا كل ما في الأمر".

– هل يتحدث أصدقاؤك عن هذا الأمر؟

تراجعتْ كلير في مقعدها وشبكت ذراعيْها وقالت: "أتصوَّرُ أنهم يفعلون – ولكنِّي **بالفعل لا أهتمُّ**".

– أحقًّا؟

– حقًّا، فهو ليس إفشاءَ لسرٍّ عظيم، لا أحدَ يحب أن تلوكَه الألسُنُ. ولكن هذا يحصل. إذًا منَ الأفضل ألَّا أعيرَهم اهتمامًا وأتخطَّى المشكلةَ.

– يا كلير، سؤالي هو...

بدَّلت كلير بشكلٍ فجائيٍّ من جلستها واستوتْ على المقعد وقالتْ: "سأخبرُكَ بما أريدُ فعلًا أن أعرفه عن أصدقائي وعن نفسي".

أنزلَ القلمَ من يده وقال: "نعم".

– ما أُريدُ أن أعرفَه، حقيقةً، لماذا أنساقُ وأستمعُ إلى لَغْوِهم ومزاحهم الثقيل؟ لماذا أرى نفسي مُضطرَّةً أن أسيرَ

Twitter: @alqareah

وراءهم أتنصَّتُ وأستمعُ إلى أحاديثهم وأحاولُ معرفةَ ما يقولون؟ فكلما ازدادتْ إيماءتهم تعبيرًا، وكلما عَلَتْ أصواتُ جلجلةِ ضحكاتهم؛ أحسستُ بالرغبةِ فى معرفة المزيد.

– ربما...

قالت معترضةً: "يمكننى بكُلِّ بساطةِ السيرُ مبتعدةً عنهم، ولكنى لا أفعلُ، ولا أستطيعُ. هل تعرفُ لماذا؟"

فتح يديْه على سَعَتِهما منتظرًا أن تجيب عن تساؤلها.

– لأنى أريدُ أن أعرف لماذا تخفِّض السيارات من سرعتها عند حدوث حادثةٍ – حتى لو كانت تسيرُ على الجانب المقابل من الشارع؟ لماذا يذهبُ الناس لمشاهدة أفلام الرعب وهم يعلمون أن أحلامهم ستمتلئ بالكوابيس؟ لماذا ألتفتُ إلى الوراء وأحدِّقُ حين أقابلُ ولدًا لطيفًا فى الشارع؟ إن كان لشىء ما حافَّةٌ حادَّةٌ، ما الذى يدعونى للمسها؟

التقطَ السيد ليڤانت قلمَه ومُفكِّرتَه من جديدٍ، ومن غير أن يتطلَّعَ إلى كلير بدأ يقولُ: "من المهم أن ترفعى من إحساسك بقيمتك الشخصية وتبحثى عمَّا يمنَحكِ شعورًا بالسعادة؛ كى تستطيعى التصدِّى لتحدِّيات الحياة. فحين نستطيعُ أن نُنمِّىَ ونوسِّعَ احترامنا لأنفسنا وللآخرين، ونرضى بأن نتحمَّلَ مسئولية أفعالنا، وحين نشعرُ بقيمتنا ونُعزِّز اعتبارَنا لذاتنا؛ حينئذٍ لن ترمىَ بنا كلمةٌ مؤذيةٌ خارج السياق الصحيح".

Twitter: @alqareah

تأوَّهتْ كلير مستنكرةً وهى تلهثُ، وقالت: "سمعتُ مثل هذه الأقوال فى السابق، ردَّدها علىَّ أستاذٌ استشاريٌّ آخر فى المدرسة. إنها نُسْخةٌ مأخوذةٌ من كتابٍ عن المعالجة الذاتيَّة لنفوس المراهقين. أنتم جميعًا تبحثون عن شيءٍ مُعيَّنٍ، وتنظرون إليه من وجهة النظر ذاتها، وتجدون الحلَّ نفسَه - دون الأخذ فى الاعتبار مَنِ الذى يجلس أمامكم على الكرسيِّ. فأنتَ تتصرَّفُ مثل ممثِّلٍ لا يُجِيدُ سوى نصٍّ واحدٍ. فلو لم يكن بإمكانى أن أكونَ أىَّ شخصٍ، فأنتَ ستجعلُنى أبدو كأننى أىُّ شخصٍ. هذا أفضلُ ما يمكنُك فعلُه. هذا كل ما يمكنك فعله".

فتح السيد ليفانت دفتر ملاحظاته وقال: "يا كلير... آملُ أن هذا ليس كُلَّ ما بإمكانى فعله. إنه شىءٌ جيدٌ أن أسمعك تتحدثين بهذا الشكل، بانفعالٍ وسُخْطٍ على العالم. ولكنى ألمسُ فى صوتك شكًّا وعدمَ ثقةٍ أكثرَ ممَّا تدركين. فأحيانًا، حين يستسلم الناس للغضب فهذا يشير أيضًا إلى أنهم خائفون".

فكرتْ كلير بعُمْقٍ للحظةٍ ثم أجابتْ: "هل تعلم ما الذى يُخِيفُنى؟" تأنَّتْ كلير فى كلامها وهى تميلُ إلى الأمام، ثم أردفتْ: "الخطُّ الأصفرُ الذى يفصل بين السيارات المسرعة فى الطريق. هل يدرك السائقون أبدًا الاختيار الذى أمامهم،

Twitter: @alqareah

كيف أن لَفَّةً قويَّةً واحدةً على مِقْوَدِ السيارة كافيةٌ لتغيير كُلِّ شيءٍ؟ أشعرُ بالرعبِ من الاختيارات التى يملكها الناس، ومن الاختيارات التى أملكُها. سأحصلُ على ترخيصٍ للقيادةِ قريبًا، وسيواجهُنِى حينئذٍ هذا الخطُّ الأصفرُ".

ابتسم السيد ليڤانت محاولًا أن يقلِّلَ من التأثير الدرامىِّ المفرط لكلماتها، وقال: "يبدو أنه من الأفضلِ عدم حصولك على رخصةِ القيادة. هل هناك شىءٌ آخرُ يُخيفُكِ؟"

أخذتْ كلير نفسًا عميقًا وقالتْ فى أسلوبٍ هادئٍ غيرِ انفعالىٍّ: "الرصيفُ"

تساءل: "الرصيف؟ هل تَعْنينَ اقترابَ السياراتِ من رصيفِ المُشاة؟"

– كلَّا، أنا أعنى حافَّةَ الرَّصيفِ. حين أقفُ عليه أتصوَّرُ كما لو أنه حافَّةٌ لجرفٍ شاهقٍ ينحدرُ نحوَ وَادٍ سحيقٍ.

– ولكنَّ هذا غيرُ صحيحٍ... أليس كذلك؟

– بالطبع لا. فأنا أستطيعُ أن أقفزَ وأنزلقَ وأرقصَ على طول حافة الرَّصيفِ ولا أقعُ أبدًا. ولكن حين أقف على حافة الجَرْفِ، لا أستطيع أن أتحرك. أين الاختلافُ؟ الاحتمالاتُ هى فقط التى تختلف. لا يمكن أن أشعر أبدًا بالثقةِ والأمان وأنا على حافة الجرف مثل التى أُحسُّها وأنا فوق حَافَّةِ الرصيف. أشعرُ بالرعب ممَّا يمكن أن أفعلَ. فحينَ أدركُ أن خطوةً واحدةً

Twitter: @alqareah

يمكن أن تغيِّر حياتى بالكامل، يتملَّكُنى شعورٌ بالخوف والقلق من أننى لن أتمكَّن أبدًا من اتِّخاذ أيَّة خطوة لأىٍّ مكانٍ. الفرقُ الوحيدُ بين حافَّةِ الرصيفِ والجرف هو فى طريقة تفكيرى فيهما.

تساءل السيد ليڤانت: "هل يعتريكِ هذا الشعورُ كثيرًا؟"

أشاحت برأسها إلى الوراء وأسقطتْ فَكَّها وصرختْ بعنفٍ وهى تنكفئُ إلى الأمام: "أَلَا تفهمُ؟ أنا لا أشعرُ بأىِّ شىءٍ حياله، تعبتُ من كثرة ما سُئلتُ السؤالَ ذاتَه. أنا أفكِّرُ فيه فقط – هذا كل ما أفعلُ. نعم، أقرُّ بأن لدىَّ مشكلةً – إذا كان هذا ما تحبُّ أن تسميه. فأنا أريدُ أن أعلمَ ماذا يبقى حين يذهبُ كل أثرٍ للنباتات والحيوانات والناس؟ ماذا يبقى حين يُزال كل أثر يتركه اللون، والحجم، والشكل، والمَلْمَس، والرائحة؟ ماذا يبقى حين تُنزع الانفعالاتُ والعواطفُ والأفكارُ الخياليَّةُ؟ حين يختفى ويتلاشى ويُنزع ويُزال من حياتنا كلُّ شىءٍ يمكن أن تطلق عليه اسمًا. ما الذى يبقى؟ ما الذى يبقى منى؟"

بدأ صوتها فى الارتعاش ويداها فى الاهتزاز.

– لماذا تبدينَ مضطربةً بهذا الشكل الآن يا كلير؟

– لأننى أشعرُ بأنه سيُغمَى علىَّ. أشعرُ بالغَثَيانِ.

شعرتْ كلير كما لو أن حبلًا بدأ يلتفُّ ويعصرُ مَعِدَتها، ثم

Twitter: @alqareah

يرتفعُ ويمتدُّ إلى أعلى نحو صدرها، ويضغطُ على حَلْقِها، وبأن جسمَها مُمدَّدٌ نحو العالم. مالتْ إلى الأمام وأغمضتْ عينيْها.

بدأتْ صورةٌ متكررةٌ تدورُ وتلفُّ داخلَ رأسها. رؤيةٌ غير متبلورة لا شكلَ لها، تنتشرُ من خلال سَهْلٍ واسعٍ مثل سائلٍ كثيفٍ لَزِجٍ ينصبُّ فوق سهلٍ مُغطًّى بالحصَى الحادِّ.

تحاولُ أن تطاردَ هذه الرؤيةَ وتُمسِكَ بها، ثم تهربُ منها. وفيما هى تحاولُ الإمساكَ بها والسيطرةَ عليها، تسربتِ الفكرةُ الغامضةُ من بين يديها وانتشرتْ نحو صحراءَ شاسعةٍ رمليةٍ تمتدُّ إلى حافَّةِ الأفقِ. كانت هناك أرضٌ خواءٌ قاحلةٌ من الصمتِ والسكون. أخذتْ تبحثُ حولها تتحقَّقُ، تحاولُ أن تعثرَ فى هذا المنظرِ الطبيعىِّ الخالى عن أىِّ شىءٍ تراه، أو يمكن لها أن تتعرَّف عليه أو أن تمسكه. فى الوقت الذى بدأتْ تتفهَّمُ السببَ للقلقِ والاضطراب والتكدُّر فى حياتها، انكسرتْ، فجأةً، رتابةُ هذه الأرض الجَدْباءِ التى تحيطها. تَراءَى لها شىءٌ يقفزُ ويثبُ ثم اختفى وراء الأفقِ، تاركًا لا شىء. فقط، بصمةٌ على رمالِ الصَّحراءِ.

Twitter: @alqareah

6

ارتاعَ ذو البطن النارى حينما سمع صوتًا داخل السيارة. فَرَكَ عينيْه ليمسحَ عنهما ما تبقَّى من آثار النوم، وليؤكِّدَ لنفسهِ أنه مستيقظٌ. ابتلع ريقَهُ مرَّاتٍ متتاليةً متذكرًا طعمَ آخرِ الجراداتِ القليلةِ والأخيرة التى كانت فى السيارة، ثم زحف خارجًا من مخبئه.

كانت تجلسُ على مقعدِ القيادةِ امرأةٌ شابَّةٌ. بدتْ بحجمها الذى ملأ المقعد كامرأةٍ بالغةٍ، ولكنَّ تقاطيعَ وجهها وهيئتها كانت تحمل الكثير ممَّا يدلُّ على أنها مازالت فتاةً شابَّةً. كان وجهها الأملس الناعم الشاب خاليًا من تَغضُّناتِ العمر أو منحنيات التعبير. لم يكن من السهل القول إن كانت سعيدة أم حزينة، غاضبة أم راضية.

دَفَعتْ بشعرها فوق قميصها الأبيض ذى الياقة العالية،

Twitter: @alqareah

ثم مدَّتْ يديها لتمسكَ بمِقْوَدِ السيارةِ. كان فَمُها مُطْبقًا بإحكام ورأسها ثابتًا ومُسْتقيمًا. تطلَّعتْ من خلال الزجاج الأماميّ للسيارة بإمعانٍ كما لو أنها تحاولُ أن تتبين شيئًا مُخبًّأ على البُعد.

كسرتْ حالةَ الذُّهُولِ التى كانتْ تتملَّكُها وبدأتْ تمضغُ العِلْكَةَ بعصبيَّةٍ وبسرعةٍ. بَدَتْ أسنانُها كأنها تَضْطكُّ من شِدَّةِ هذه الحركةِ... مسحتْ بيدها حبَّاتِ العرقِ التى تقطَّرْت على جَبِينها. تفحَّصتْ يديها وتذَوقتْ طعمَ مِلْحِ عَرَقِها، ومسحتهما بسروالها جيئةً وذهابًا، جيئةً وذهابًا، كما لو أنها تنظِّفُهما وتزيحُ عنهما الترابَ والعَرقَ والذَّنْبَ .

التقطتْ من حِجْرِها مجموعةً من المفاتيح، وأخذتْ تهزُّها بينَ يديْها، ثم ادخلتْ أحدها فى فتحة الإشعال. ثم فَتحتْ، فجأةً، النافذةَ وقذفتْ بالعلكةِ إلى الخارجِ وأدارتِ المُحرِّكَ. ترنَّحتِ السيارةُ وتراجعتْ على شكل قوسٍ إلى الخلف نحوَ الشارعِ الخالى. تعطَّلتِ السيارةُ وتوقَّف المُحرِّك عدة مرات، ولكن الفتاة لم تستسلم. أدارت المحرك مرات متتالية. تطلعت كلير نحو البيتِ وتَمتمتْ: "سأفعلُ ما نويتُ عليه ولن أتراجعَ".

أطلقتِ العَجَلاتُ صوتًا صاخبًا وارتجَّتِ السيارةُ وهى تتقدَّمُ إلى الأمامِ بحركاتٍ عنيفةٍ مُفاجئةٍ، ثم بدأتْ فى التحرُّك.

انسحبَ ذو البطنِ النارىِّ إلى أسفل المقعد منزويًا، ولم يَبْقَ بارزًا منه سوى عيْنَيْه. لم يَرَ فى حياتهِ شخصًا مضطربًا بهذا

Twitter: @alqareah

الشكل. بَدَتْ كلير مرعبةً وقاسيةً. لا يريدُ أن تقذفَهُ من النافذةِ إلى خارج السيارة كما رَمَتِ العِلْكةَ.

مدَّتْ يدها نحو المقعدِ الخلفيِّ، والتقطتْ حقيبةَ يدٍ كبيرةً من الجِلْدِ ووضعَتْها على المقعد المجاور لها. أخرجتْ منها لُعَبْةً مَحْشُوَّةً على شكلِ دُبٍّ وهى تقولُ: "يمكنُك أن تكونَ ضيفَ الشَّرَفِ يا «باتونن»".

أصلحتْ وضعَ الوشاح الأزرق المُنقَّط الذى يحيطُ بعنق الدُّبِّ. وتحسَّستْ بإبهامها عينيه الملساويْن الصَّفراويْن اللتين تتوسَّطهما حَدَقتانِ سوداوانِ ثاقبتانِ. ثنت قَدمَى الدُّبِّ فى وضعٍ يبدو فيه جالسًا، ثم وضعته فوق لوحة أجهزة القياس على يمين مِقْوَدِ السيارة.

أسندتْ رأسه وأذنيه، اللتيْن تبدوانِ على شكل نصف قمر، على الواجهةِ الزجاجيَّةِ الأماميَّةِ للسيارةِ. كان باطنُ قدميْهِ البُنِّيُّ الغامقُ بارزًا إلى الأمام كأنهما زوجٌ آخر من العيون.

قالتِ الفتاة: "أرجو أن تكونَ مستريحًا. لا أعلمُ ما المسافةُ التى سنقطعُها فى هذه السيارةِ. سنبحثُ لنا عن بِرْكَةٍ أخرى نذهبُ إليها".

تقاطعَ الطريقُ الذى كانت تسلُكُه مع شوارعِ المدينة ومع العديد من نقط التقاطع وإشارات المرور الضوئية، ليصلَ

Twitter: @alqareah

إلى طريقٍ سريعٍ عُلْوِيٍّ يتَّسعُ لأَربعة خطوط للسرعة؛ محاطًا بالأعشاب والأشجار الكثيفة. بدأتِ السماءُ البعيدةُ الدافئةُ والزرقاءُ تضىء مع شروقِ الشمسِ. انتشرتْ فى أَرجاءِ السيارةِ نسائمُ متواصلةٌ رطبةٌ أثارتْ روائحَ نفَّاذةً داخلها.

كانتْ كلير، من وقتٍ لآخر، تتطلَّع إلى دُبِّها القابعِ على لوحة أجهزة القياس؛ يجلسُ مثلَ شىءٍ جالبٍ للحظِّ أو ربما مثل تعويذةٍ أو طِلَّسْمٍ. كانت تتحدث إليه من فترةٍ إلى أخرى. تنطلق كلماتها مسرعةً تتدفق ثم تتوقَّف، كما لو أن هناك نهرًا هائجًا من الأفكار ألجمته أخشابٌ طافيةٌ لن تلبثَ أن تتراجعَ وتنزاحَ.

قالتْ تخاطبُ الدُّبَّ كما لو أنه قد يردُّ عليها: "هل تذكر يا «باتونن» رحلاتنا فى الغابة؟ كنتُ ألبسُكَ بدلةً من قماشٍ منسوجٍ على شكلِ مربعات وآخذُكَ فى جولةٍ فى عربتك الصغيرة. كنا نتوقف تحت شجرة القَيْقَبِ، أفرش تحتها على الأرض مفرشًا بمربعات بيضاء وحمراء. أضع عليه بعض الفُوَط والصحون وأدوات المائدة وتشكيلة من الطعام. نمضى اليوم بطوله خارج البيت. وها نحنُ الآن نقومُ برحلةٍ أخرى ولكنها مختلفة؛ كل ما فى الأمر أنها أكثرُ جرأةً وبها الكثيرُ من المغامرةِ."

Twitter: @alqareah

واصلتْ حديثها: "لم تسمعِ اليومَ صوتَ نُباحِ «رَافْلِسْ» أليسَ كذلك؟" توقفتْ عن الحديث لبُرْهةٍ، أُصبح صوتُها مكتومًا ومتوترًا: "لقد رحل إلى الأبد فى خلال لحظة. بابا يقول إنها حادثة... حسنًا، إذًا من الممكن أن أفترضَ أن استيلائى على هذه السيارةِ حادثةٌ أيضًا".

أطبقتْ على أسنانها وبدأ الغضبُ يُفْسِدُ نبرةَ صَوْتِها. أمسكتْ بمقودِ السيارة بقوَّةٍ؛ مما جعلَ العروقَ والأوردةَ تبرزُ واضحةً على يديها. بدأتْ يداها ترتعشان، وترقرقتِ الدموعُ على وجنتيها ومنها إلى قميصها. أخفضتْ رأسَها ومَسحتْ عَينيْها.

مالتِ السيارةُ فجأةً نحوَ الشمالِ، وانطلقَ من إطاراتِ العَجَلاتِ صوتٌ حادٌّ مزعجٌ وانقلبَ الدُّبُّ على جَنْبِهِ. أمسكتْ بسرعةٍ مقودَ السيارةِ، وأعادتِ الدُّبَّ إلى مكانهِ وهى تقولُ له: "أنا آسفةٌ، فأنت الوحيدُ الذى أستطيعُ التحدُّثَ معه".

تسلَّقَ ذو البطنِ النارىِّ مختلسًا نحو المَقْعدِ المجاورِ لمقعدِ الفتاة، واستكانَ وراء حقيبتها. كان يريدُ أن يرى صورةً جانبيةً لها، رُبَّما ستتكشَّفُ له نواياها وطباعُها إذا ما نظرَ إلى حِدَّةِ حركاتِ ذراعيْها، وإيماءاتِ يديها، والتعبيرِ عن الانفعالِ الذى يرتسمُ على وجهها، والاهتمامِ والانتباهِ والكياسةِ الواضحيْنِ فى عينيها.

كانتْ تبدو غاضبةً جدًّا، كما لو أنها قد تصرخُ بأعلى صوتها لرؤيةِ ضفدعٍ وتلقيه على الفور إلى الخارج ثم تدوسُه

Twitter: @alqareah

بالسيارةِ. تَطلَّعَ إلى البابِ القريبِ منه، وحسبَ عددَ القفزاتِ التى تَلْزمُه ليصلَ إلى الخارجِ: خطوتان، ربما ثلاثة. بإمكانه القيامُ بها بسرعةٍ، بسرعةٍ فائقةٍ. ربما لن تنتبهَ لوجودِه .

هزتِ الفتاةُ رأسها وقالتْ باشمئزازٍ: "أرقام!" كان صوتُها يقطرُ بالسخريةِ، بعد أن لاحظتْ ضوءَ الإنذار يومضُ على لوحةِ أجهزةِ القياسِ واستطردتْ: "يبدو أن والدى تركنا بلا وَقُودٍ" .

تطلَّعتْ إلى «باتونن» وفركت جبينها وقالت: "كَمْ أكرهُ هذا! ستتبدَّلُ كُلُّ الخُطَطِ الكبيرةِ التى وضعتُها بشىءٍ سخيفٍ مثل هذا. سينتهى الأمرُ بأن أجدَ نفسى جانحةً على جانب الطريق على بُعْدِ بضعةِ أميالٍ منَ المكانِ الذى ابتدأتُ منه. كَمْ هو أمرٌ سخيفٌ وغير محتمل أن تفرغَ السيارةُ من الوقود! أليس كذلك يا «باتونن»؟ علىَّ أن أكونَ أكثرَ حرصًا فى مثلِ هذه الأمورِ" .

أدخلتْ يدها اليُمنَى فى حقيبتها وتحسَّستْ داخلها بأصابعها. شعر ذو البطن النارى بأن الحقيبةَ تضغطُ على جسمه؛ انكمش على نفسه تحتها وضمَّ قوائمَه بالقربِ من جسمه.

قالت الفتاةُ: "ها قد وجدتُ بعض النقود" . سحبَتْ مجموعةً من اللفائف المالية واستطردتْ: "أظن أن علينا أن نُطعمَ السيارةَ. سنأخذُ نحن أيضًا وجبةً خفيفةً" .

حينَ وصلتْ إلى المَخْرجِ التالى، أوقفتِ السيارةَ عند محطَّةِ

Twitter: @alqareah

للوَقُودِ تتَّصلُ بمحلٍّ تجارِيٍّ. اقتربَ منها شابٌّ طويلٌ ووسيمٌ وسألها بصوتٍ سَلِسٍ ومُهذَّبٍ: "هل يمكنُ أن أقدِّمَ لكِ أيَّةَ مساعدةٍ يا سيِّدَتِي؟" مالَ نحوَ السيارةِ وابتسمَ.

احمرَّ وجهُها وتلعثمتْ قائلةً: "هه... لم يسبقْ أن ناداني أحدٌ يا سيدتي"، بدّلتْ من جِلْسَتِها وبادَلْتهُ النظرَ وقالتْ: "نَادِنِي فقط كلير. ما أرغبُ فيه بالفعلِ... حسنًا... ما أنا بحاجةٍ إليه في الحقيقةِ... هو أن تساعدَنِي في العثورِ على كَلْبِي".

– هل ضاعَ منكِ؟

"شيءٌ من هذا القَبِيل. إنها قصةٌ طويلةٌ". ابتسمتْ له وهي تفكِّرُ كَمْ يبدو هذا الشابُّ قويًّا وواثقًا من نفسه. فهو ليسَ أبدًا من طِرَازِ الأشخاص الذين يستولون على سيارةٍ ويَهْرُبُونَ من المنزلِ. لا. فهو مُؤدَّب ومُهذَّب وَحَسنُ السلوك. يهتمُّ جدًّا بأن يكونَ لائقًا ومهندمًا، كما أنه مستعدٌّ للقيامِ بأيِّ شيءٍ لمساعدةِ الناس.

استدارتْ مبتعدةً عنه وهي تقولُ: "فقط املأْ الخزانَ بالوقودِ العادِيِّ. سأعودُ في الحال". مضتْ نحوَ المَحلِّ التجاريِّ، وهي تلتفتُ إلى الوراءِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ وتبتسمُ.

وفي الحمَّامِ، استندتْ على قاعدةِ الحوضِ الأبيض بكلتا يديْها ونظرتْ في المرآةِ. أدارتْ وجهها من جهةٍ إلى الأخرى لتتفحَّصَ خُلُوَّهُ من أيِّ عيوبٍ قد تحرجُها، أو أيِّ تعبيرٍ قد

Twitter: @alqareah

يكشفُ عن جريمتها. شاهدتْ دمعةً وهى تنزلقُ عن خَدِّها إلى زاويةِ فَمِها. تذوقتْ طَعْمَ مِلْحِ الحُزْنِ ومَسحتِ الباقى عن وجهها. عادتْ إلى السيارةِ وبيدها كوبٌ من القهوةِ، وزجاجةٌ من المياه الغازيَّةِ، وعُلْبةٌ من حَلْوَى «الدُّونَاتْ».

قال الشابُّ: "ملأتُ الخزانَ عن آخرِه. أرجو أن تجدى كلبَكِ".

قالتْ : "شكرًا".

فتحَ لها بابَ السيارةِ وجلستْ كلير داخلَها. لاحظَ الشابُّ زوجًا من العيونِ يبرزُ من تحت حقيبةِ يدها، وقالَ لها: "أرى أنَّ مَعَك صُحْبةً..."

أجابتْ: "هذا «باتونن» رفيقى فى السفر وهو، فى الواقع، أفضلُ من أىِّ كلبٍ. فهو لا يحتاجُ أن أسيرَ معه إلى الخارجِ لقضاءِ حاجتِهِ أو أىَّ شىءٍ آخرَ من هذا القَبيل".

فغرَ الشابُّ فَمَهُ فاتحًا فَكَّيْهِ كما لو أن هناك كلمةً عاصيةً محشورةً وراءَ حَلْقِهِ. نظرَ ذو البطنِ النارىِّ إليه مباشرةً وغمزَ بعينيْه ببطءٍ، ثم انسلَّ مبتعدًا عن الأنظارِ.

هزَّ الشاب كتفيْهِ وهو يقولُ: "أتمنَّى لكِ رحلةً سعيدةً. أرجو أن تجدى ما تبحثينَ عنه".

أخذتْ كلير قضمةً من حَلْوَى «الدُّونَاتْ» وتوجَّهت نحوَ الطريقِ العُلْوىِّ السريعِ.

Twitter: @alqareah

7

أشار السيدُ ليڤانت إلى كلير لتجلسَ، وهو يقول: "كيفَ حالُكِ هذا الصَّباح؟"

قالتْ وهى تستقرُّ على كرسىٍّ وثيرٍ مُزَوَّدٍ بوسادةٍ سميكةٍ، وتريحُ خَدَّها على راحةِ كَفِّها: "لا أشعرُ بالبردِ الشديد ولا بالحَرِّ الشديد".

تلمَّسَ السيدُ ليڤانت باحثًا عن شىءٍ على مكتبه، وقال مُدَمْدمًا بَيْنَه وبين نفسه: "شعورٌ معتدلٌ، هذا شىءٌ حَسَنٌ. الحياةُ فى الغالب معتدلةٌ". التقطَ قلمًا وتفحَّصَ حَرْفَهُ بحرصٍ، وأردفَ: "هذا هو القلمُ الذى كنتُ أبحثُ عنه... إذًا فأنت فى حالٍ جَيِّدةٍ اليومَ؟"

قالتْ: "تمامًا... فى أحسنِ حالٍ".

سوَّتْ كلير أعلى بنطالها بيديها محاولةً أن تملِّسَ التغضُّنَ الواضحَ عليه، وقالتْ: "يبدو أنه لا لزومَ بعد اليوم للقائنا

Twitter: @alqareah

الأسبوعىِّ؛ ولذا يمكنُك الحصولُ على بعض الملاحظاتِ وننتقلُ بعدئذٍ للحديثِ عن الواجباتِ المنزليَّة".

– أرجو أن تكونَ لقاءاتُنا أكثرَ فائدةً وأهميةً، وألَّا تقتصرَ فقط على بعضِ الإرشاداتِ للقيامِ بواجباتكِ المنزليَّة.

– بدأتُ، بدأتُ أفكِّرُ فى الهروبِ. فأنا أضعُ الآن خُطَطًا عن المكانِ الذى سأذهبُ إليه.

رفعَ السيدُ ليڤانت نظره عن مُفكِّرته، وقال: "يا كلير... سَتُدْخلينَ نَفْسكِ فى مشاكلَ كثيرةٍ إذا تماديتِ فى مثلِ هذا المزاح".

– أنا لا أمزح.

رفعَ حاجبيْهِ وألقىَ نظرةً خاطفةً على مُفكِّرتِه، وقال: "دعينى أرى. أريدُ فقط أن أعيدَ النظرَ فى الملاحظات التى دَوَّنْتُها".

التقطَ مُفكِّرتَه وأخذَ يقلِّبُ فيها قليلًا إلى اليمينِ وإلى اليسارِ، بعدئذٍ، فتحَ دُرْجًا فى مكتبهِ وأخذَ منه قلمًا مختلفًا، وقال لها: "ها نحن إذًا...".

– هل فَكَّرتِ ماذا ستفعلينَ السنةَ القادمةَ بعدَ التخرُّجِ؟

همهمتْ كلير ساخرةً: "هل تعلمُ عددَ المرَّاتِ التى سألنى فيها والدایَ هذا السؤالَ؟ لا أعرفُ ماذا سأفعلُ".

– ما الذى يثيرُ اهتمامَكِ؟

Twitter: @alqareah

- لا أعرفُ.

- أهذا كل ما يمكنُكِ قولهُ؟ أنك لا تعرفين.

"نعم". تراجعتْ كلير فى مَقْعدِها وطَوتْ ذراعيْها.

- حسنًا، يجبُ أن يكونَ لديكِ المزيدُ.

- كلَّا. هذا كُلُّ ما عِنْدِى. فأنا لا أعلمُ.

- حسنًا... لنفترضْ أنكِ كنتِ شخصًا آخرَ، حينئذٍ ما الذى تريدين عملَه؟

- هذا سؤالٌ مختلفٌ تمامًا.

"إذًا..."، قالَ السيد ليڤانت محاولًا أن يشجِّعها على الاسترسالِ فى الكلام.

قالتْ تُقلِّده ساخرةً منه: "إذًا... لقد أردتُ منذُ زمنٍ طويلٍ أن أكونَ أىَّ شخصٍ آخرَ".

تساءل السيد ليڤانت: "شخصٌ آخرٌ. مِثْلُ مَنْ؟"

- ليس شخصًا معينًا.

- أحقًّا؟ ليسَ شخصًا مشهورًا مثلًا أو غنيًّا، أو شخصًا مشغولًا بالقيام بمغامرةٍ مثيرةٍ؟ شىءٌ من هذا القَبِيلِ؟

- فلنتوقَّفْ عن الحديثِ فى هذا الموضوع.

- تحدَّثِى معى قليلًا، فقط، من بابِ المزاح والتسلية. سبقَ وذكرتِ أنكِ تُرِيدينَ أن تكونى شخصًا آخرَ. حسنًا، أُريدُ أن أعرفَ المزيدَ عنه. لا تقلقى، فلا يوجدُ جوابٌ صحيحٌ وجوابٌ خطأٌ.

Twitter: @alqareah

ردَّتْ كلير بصوتٍ حادٍّ وعنيفٍ: "أَعلمُ هذا. هل تريدُ أن تعرفَ مَنِ الذى أَريدُ أن أكونَه؟" توقَّفتْ عن الحديثِ لبرهةٍ وأراحتْ يديها فى حُضْنِها، منتظرةً، كى تستحوذَ على اهتمامهِ بالكاملِ: "أريدُ أن أكونَ أىَّ شخصٍ".

ردَّدَ كلمتَها بنبرةِ سؤالٍ: "أىَّ شخصٍ؟"

– نعم، أىُّ واحدٍ. ولَدٌ فى الشارعِ، أستاذٌ فى المدرسةِ، فلاحٌ آسيوىٌّ، رُبَّما حتَّى حيوان. مثل كلبٍ أو طائرٍ، أو رُبَّما ضُفْدعٍ.

– أنتِ لا تعنينَ بالفعل أىَّ واحدٍ.

– أنتَ لا تفهمُنى. حينَ أقولُ أىَّ شخصٍ، فهذا ما أعنيه. أىّ شخصٍ، هكذا كَيْفَما اتُّفقَ وبشكلٍ عشوائِىٍّ. التقطْ أىَّ واحدٍ من بينِ حشدٍ منَ الناسِ... هذا من أريدُ أن أكونَه.

ظلَّ صامتًا لفترةٍ، ثم قالَ: "ربما، هذا ممكنٌ، لو كنتِ ستمضينَ بقيَّةَ عُمْرِكِ فى السجنِ، حينئذٍ، قد يكونُ من الأفضلِ لك أن تكونى أىَّ شخصٍ آخرَ. ولكنَّكِ لستِ فى هذا الوضعِ، فأنتِ حُرَّةٌ".

– إذًا فأنا محكومٌ علىَّ أن أكونَ حُرَّةً. هل هذا ما تعنيه؟ يبدو أننا متفاهمان.

أنزلَ قلمَه من يدِه، وقال: "وضِّحِى لى هذا أكثر، فأنا لم أستوعبْ ما عَنيتِ بكلامِك هذا".

– تريدُ أن تعلمَ ما أعنى؟ سأفسِّرُ لكَ. أريدُ أن أكونَ أىَّ

شخصٍ، فقطْ للحظةٍ قصيرةٍ، لفترةٍ أستطيعُ من خلالِها أن أرى العالمَ من وجهةِ نظرِ شخصٍ آخرَ. أريدُ أن أعلمَ إن كانتِ الألوانُ تبدو له هي ذاتها كما أراها. إن كُنَّا نحن الاثنين نشعرُ بالألم ذاته. إذا كانتْ معاني الكلماتِ هي نفسها. أريدُ أن أعرفَ كَمْ من حياتي ما هو إلَّا حُلْمٌ أعيشُ من خلالِه. ربما أن هناك، خارجَ عقلي ثَمَّةَ حقيقة أخرى، مختلفة تمامًا عن حياتي وأسلوبِ تفكيري. شيءٌ لم يمرَّ بتجربتهِ سوى الآخرينَ. لو كان بإمكاني أن أكونَ شخصًا آخر، ولو للحظةٍ، سأتمكَّنُ حينئذٍ من فَهْمِ الكثير.

قال: "هذه فكرةٌ تسترعي الاهتمامَ؛ ولكن هل تجيبُ عن كافَّةِ أسئلتِك؟"

قالت كلير: "كلَّا، لن تجيبَ. فأنا أيضًا أريدُ أن أعيشَ في مكانٍ آخر – في أيِّ مكانٍ، في أيِّ زمانٍ. أريدُ أن أعرف إن كان أسلوبُ تفكيري، ومُعْتقدَاتي، وأفعالي وسلوكي كُلُّ هذا ما هو إلا عباءةٌ اجتماعيَّةٌ تضغطُ عليَّ وتقودُ حياتي. إن استطعتُ أَنْ أعيشَ في مكانٍ آخرَ، في زمانٍ آخرَ، حينئذٍ يمكنُني أن أزيحَ بعيدًا كُلَّ الخداعِ والزَّيْفِ الذي فُرِضَ عليَّ، وأكتشف ما يبقى مني".

واصل السيدُ ليڤانت كتابتَه في دفترِ ملاحظاتِه، وهو يقولُ: "وَاصِلِي حديثَكِ. لا يوجدُ لديَّ ما أقولُه".

– بالطبع لا يوجدُ لديك.

Twitter: @alqareah

رفعَ عينيْهِ عن مُفكِّرتِه وقالَ فى لهجة تأنيبٍ: "كلير".

قالتْ: "مررتُ منذُ يوميْنِ بتجربةٍ أزعجتنى. هل تريدُ الاستماعَ لما جرى؟"

أشارَ إليها لتستمرَّ فى حديثها؛ قائلًا: "مِنْ فَضْلِكِ".

– كنتُ أقودُ عَجَلَتِى فى شارعٍ مزدحم. توقفتُ عندَ إشارةِ المرورِ. كان هناك بالونٌ ضخمٌ أخضرُ يتقافز فى وسط الشارع بين السيارات. وفيما كنتُ أفكِّرُ كَمْ يبدو منظرُه مضحكًا ومسلِّيًا فى زحمة السيرِ، رأيتُ حافلةً تدوسُ عليه وتُفجِّره. ارتمى البالونُ على الإسفلتِ منبسطًا، بلا حياةٍ، ميتًا. انفجرتُ باكيةً. ركنتُ عَجَلتِى إلى جانبِ الشارع، ثم جلستُ إلى جانبِ حافة الرَّصيفِ وأخذتُ أنتحبُ. تصوَّر كنتُ أبكى على بالون.

وضعَ السيدُ ليڤانت دفترَ مُذكِّراتِه إلى جانبِ مكتبه وهو يتساءلُ: "بسبب بالون؟ ما الذى جعلكِ تنزعجين بهذا الشكل؟"

– لأن البالونَ يمثِّل حياتى؛ وحياتَك. فنحن جميعًا وُلِدْنَا داخلَ وعاءٍ. وعاءٌ تَشارَكَ فى بنائه كُلُّ شخصٍ سِوَانا. فهم يقولونَ لنا إنَّ علينا الذَّهابَ إلى المدرسةِ و الحصولَ على علاماتٍ جيدةٍ. يطلبون منا أن نلبسَ مِثْلَهُم، ونتصرَّفَ مثلهم، و نبحثَ عن عملٍ، ونتَّخِذَ مهنةً، ونشترى منزلًا.

سألها: "هل هذا شىءٌ سيِّئٌ".

Twitter: @alqareah

- نعيشُ فى سعادةٍ ورضًا إلى أن يتسبَّبَ شىءٌ ما فى إحساسنا بالانزعاجِ والألمِ، إلى أن نكتشفَ أن هذا الوعاءَ ليس دائمًا بل مؤقتًا، عندها ندركُ أن ثَمَّةَ نهايةً لكلٍّ حياةٍ. ففى الواقع، معظم ما أنا عليه اعتباطىّ وعَرَضىّ. أهدافى وطموحاتى ليست مِلْكِى... إنهما مِلكُ أىِّ شخصٍ آخرَ.. إذًا مَنْ أنا؟... وماذا أكونُ؟

سألها السيدُ ليڤانت، وهو يحرِّكُ قلمَه بسرعةٍ فوقَ دفترِ ملاحظاته: "ماذا تَظُنِّينَ أنتِ؟"

- أظنُّ أنَّ غيرى منَ الناسِ هم من قاموا بتكوينى. هم من يُخطِّطونَ لى كل ما أفعلُه، بدءًا من طريقى المِهَنىِّ حتَّى ملابسى التى أَلْبَسُها. يَرْسُمونَ لى كلَّ شىءٍ، بدءًا من كيفَ يجبُ أن أتصرَّفَ وحتى متى سأنامُ. فَعالَمِى يصنعُه أشخاصٌ من أمثالِكَ يا سيدُ ليڤانت، ناسٌ يقولونَ لى ما يجبُ أن يكونَ عليه سُلُوكِى.

- ولكن يا كلير، هذا جزءٌ من التَّعايُشِ مع غيرِك منَ الناسِ. فلنفترضْ أن بإمكانِكِ العيشُ كناسكةٍ تعيشُ فى كهفٍ وتهربُ من المجتمعِ كُلِّه.

- حتَّى هذا لن يُجْدِىَ، فالعيشُ فى كهفٍ لن يحلَّ المشكلةَ ولن يجيبَ عن تساؤلى: أىُّ جزءٍ منى سيبقَى كما هو، سواءٌ أعشتُ فى كهفٍ أو فى ضاحيةٍ مع أهلى؟ إن كنتُ لستُ سوى

Twitter: @alqareah

مُنتِجٍ قام بإنتاجه العالم الذى وُلِدتُ فيه، فأنا إذًا لا شىءَ.

واستطردتْ كلير: "كلٌّ منَ الأصدقاءِ والمدرِّسينَ والأهلِ والأقرباءِ يقدِّمونَ لى النصائحَ. يقولون إن علىَّ أن أتأقلم، وأن أعيدَ التفكيرَ وأن أنضبطَ. أن أكافحَ وأنجحَ. أن أتدبَّرَ أمْرِى. أن أَهْرُبَ. أن أجدَ اتِّجاهًا جديدًا. أن أفعلَ شيئًا - أىَّ شىءٍ. يقولون: ستجدينَ غايةً ومعنًى. انظرى إلى داخلكِ. اكتشفى ما تريدين بالفعلِ، ما قُدِّرَ لكِ أن تفعليه، ما أقصى إمكاناتك. ابحثى عن شىءٍ تُحبِّينَهُ وتتميَّزينَ فيه. تَفهَّمِى نقاطَ القوةِ لديكِ واعرفى قُدْرَاتِكِ. اكتشفى ذاتَك... لا يمكنُنى سوى الالتزام بالصَّمْتِ أمامَ اقتراحاتِهم. إذا ما انفجرَ الوعاءُ الذى يغلِّفُ حياتى فسيجدونَنِى فارغةً".

Twitter: @alqareah

8

شاهد ذو البطن النارىِّ كلير وهى تلتهمُ قطعةَ «الدُّوناتْ» فى قضمةٍ واحدةٍ تسترعى انتباهَ أىِّ ضُفْدعٍ. قالتْ كلير موجهةً الحديثَ لدُبِّها: "هل تعلمُ يا «باتونز» أُحبُّ أكلَ «الدُّوناتِ» وارتشافَ القهوة، خاصةً، وأنا أقودُ السيارةَ. فهذا يعطينى الإحساسَ بأننى شخصٌ فى غايةِ الأهمية، كما لو أننى ذاهبةٌ إلى اجتماعِ عملٍ. فلو كان عندى تليفونٌ محمولٌ كنتُ سأتكلمُ مع شخصٍ ما وأقولُ له أننى مضطرَّةٌ للوقوفِ عدَّةِ مرَّاتٍ فى الطريقِ، ولذا سأتأخَّرُ قليلًا عن الموعد".

رشفتْ قليلًا مِنَ القهوةِ ثم أخذتْ تتلمَّسُ أزرارَ الراديو. تتجاوزُ أجزاء من كلماتِ وجُمل الأغانى. تبحثُ عن صوتٍ يجذبها. سمعتْ صوتَ بوقٍ صاخبٍ من خارجِ السيارة، ورأت سائقًا غاضبًا يومئ لها لتبتعدَ. تدفَّقَ صوتهُ الأجشُّ والمزعجُ،

Twitter: @alqareah

ثم تَخَافتَ بعد أن قادَ سيارته وتجاوزها مبتعدًا. استقامَتْ كلير واستعدلتِ السيارةَ بحركةٍ مفاجئةٍ مُرتجِة. اندلقتِ القهوةُ من الكوبِ وأغرقتْ ثيابَها. ظهرتْ لُطْخَةٌ مثل بِرْكةٍ من الماءِ المُحمَّلِ بالطينِ وانتشرتْ فوقَ بِنْطالِها.

أنزلتْ كوبَ القهوةِ وأمسكتْ بسرعةٍ بمقودِ السيارةِ بيديها الاثنتيْن، وهي تقول: "هذا شيءٌ هائلٌ!" ثم انحرفتْ بالسيارةِ. صرختْ مَذْعُورةً وهي تستعدلُها من جديدٍ. ارتفعَ صوتُ أزيزٍ عالٍ وتشويشٍ من مُكبِّراتِ الصوتِ. أنزلتْ يدها وأطفأتِ الرَّاديو.

"عظيم"، وضعتْ كوبَ القهوةِ بسرعةٍ وطوقتْ مقْودَ السيارةِ بيديها. انحرفتِ السيارةُ وأصدرتْ صوتَ احتكاكٍ عاليًا... كان الراديو يُصْدِرُ أصواتَ تَشَوُّشٍ مزعجةً فأغلقته.

نظرتْ إلى أسفلَ نحوَ بِنطالها وقالتْ: "ها هي ذي بقعةٌ أخرى". حاولتْ أن تمسحَ السائلَ المسكوبَ بفوطةٍ مطويَّةٍ بلا جدوى.

وَلَجتِ الشمسُ من خلالِ الغيوم بمنتهى الانسيابيةِ والسرعةِ؛ حتى إن الظلالَ كانتْ مُجرَّد إيحاءٍ دونَ أن تنتشرَ على الأرضِ. انسلَّ هواءٌ دافئٌ فوق النباتات والشُّجَيْرَاتِ مُطْلَقًا بخفَّةٍ إلى أعلى، جزيئاتٍ في منتهى الصِّغَرِ من الأتربة واللِّقاح

Twitter: @alqareah

يمزجهما معًا مثلَ تركيبةٍ خيميائيٍّ يخلطُ مزيجًا من الروائحِ التى انتشرتْ وفاحَ عبيرُ رائحتها الذكيَّةِ فوق المساحاتِ الطبيعيَّةِ.

عَلِق جرادٌ صغيرٌ فى مَجْرَى الهواءِ الرَّقيقِ المُتحرِّكِ، وقد أضاعَ اتجاهَهُ وهوى مضطربًا داخلَ السيارةِ وحطَّ مرتبكًا على أرضها.

كان «رَافْلسْ» الكائنَ الوحيدَ فى حياةِ كلير الذى لم تتبدَّلْ مشاعره. كان موجودًا دائمًا وأبدًا لاستقبالها بحماسٍ وإثارة، حتَّى ولو خَطتْ بالخطأ فوقَه، أو نسيتْ أن تطعمَهُ، أو لم تصطحبْهُ فى نُزْهةٍ. لم يمنعْ كلبَها أىُّ تقصيرٍ أو انتهاكِ أو خطأٍ من إظهارِ حُبِّه لها والتعبير عنه. ها هو ذا الآن، قد رحل.

حبستْ نفسها بعدَ الحادثة فى غرفتها وبكت لفترةٍ طويلة، آملةً أن الدموعَ قد تعيدُ الحياةَ لكلبها، متخيِّلةً أنها قد تجدُه يركضُ حول الفناء ينبح ويجلب الأشياء لها. وأن تصحوَ من النومِ لتكتشفَ أن كل ذلك ليس صحيحًا، وما هو إلَّا حلم مزعج.

تجاهلتْ والدَها وهو يقرعُ بابَ غرفتِها. دفنتْ رأسَها فى مخدَّتِها واستمرتْ فى البكاءِ. لا تريدهُ أن يرى حقيقةَ حُزْنِها واكتئابِها. أصرَّ على الدخولِ. فتحتْ له الباب أخيرًا وواجَهتُه. بررَّتْ لنفسها أخلاقيًّا رد فعلها الغاضب. لا حاجةَ لمحاكمتهِ:

Twitter: @alqareah

فوالدُها بلا شكٍّ مُذنبٌ. قالتْ له أنه لا يهتم وأنه السبب فى كل مشاكلها. فهو فى الواقع، لم يهتمَّ يومًا بمشاعرها. قالتْ له الكثيرَ وهى الآنَ تشعرُ بالنَّدمِ على أشياءَ كثيرةٍ تَفوَّهتْ بها.

حين كانتْ كلير فى الثامنةِ من العُمْرِ، كان لديها دائمًا إحساسٌ يقينىٌّ أَنَّ كُلَّ شىءٍ سينتهى على خيرٍ. كُل صعوبة وكل موقفٍ مُحْرجٍ يمكن أن يُحلَّ ويصلَ إلى نهايةٍ سعيدةٍ، وأن كلَّ ما يلزمُها هو بعضٌ من الخيالِ. فمن الممكن أن تجرحَ ركبتَها وهى تتسلَّقُ تَلًّا، أو تخدشَ كوعَها وهى تتزلَّق فى الشارع بحذاءِ التزلُّقِ، أو ترقدَ على السَّريرِ لإصابتها بِوَعْكةِ بَرْدٍ؛ ولكنَّ الحياةَ كانت دائمًا تتحسَّنُ وتسيرُ للأفضلِ. ولكنها الآن، لم يعدْ يتملَّكُها مثلُ هذا الشعورِ. فكثيرًا ما تنقلبُ الأمورُ للأسوأ. أشياءُ خاصَّةٌ تنكسرُ أو تضيعُ، قد يموتُ حيوانٌ أليفٌ أو شخصٌ عزيزٌ. لا يمكن أن نَحُولَ دون استمرارِ مَجْرَى الحياة. أحيانًا تؤلمُنا وخَزْةُ الشَّوْكَةِ بحِدَّةٍ، فلا نستطيعُ الاستمرارَ.

فى صباحِ اليومِ التالى للحادثةِ، استيقظتْ كلير لتُواجَهُ بالصَّمْتِ. لا وجودَ لكلبٍ يُصبِّح عليها ويُحيِّيها، ولن تسيرَ معه حولَ المنازل المجاورة. لم يَعُدْ هناك من هو بحاجةٍ لرعايتِها. مضتْ إلى خارجِ المنزلِ لتتمشَّى وَحْدَها. أرادتْ أن تختفىَ فى البِرْكَةِ التى تقعُ على البُعْدِ من منزلها. فهناك ستتأرجحُ

Twitter: @alqareah

أفكارُهـا بين العـالَم الصَّعبِ الذى لا يمكنُ تَجنُّبهُ وتغييره، وعالَمِ أحلامها حيثُ كُلُّ شيءٍ مُمكنٌ ومُتاحٌ. هنا، على ضفافِ البركةِ، شهدتْ سلاسةَ الحياةِ من خلالِ نُمُوِّ النباتات، وخروج ذبابـة مايـو إلى الحيـاةِ، وتبدُّل الفصول. هنا، على الحافَّةِ بين الماءِ واليابَسةِ، فى هذا المكان الذى كثيرًا ما بحثَ عنه الفنانُ وصَوَّره، حيثُ يمكنُ لها أن تجلسَ مسترخيةً وراضيةً، حيث تعتريها الرغبةُ فى القفزِ إلى داخلِ البرْكةِ لتسبحَ وتشعرَ بالحماس وبإمكانية الحياةِ فى عالم مختلفٍ.

حينَ خَرَجتْ من المنزلِ فى ذلكَ الصباح، فوجئتْ بوجودِ السيارةِ المُسْتأجرَةِ تقفُ على المَمَرِّ أمامَ المنزلِ، وانزعجتْ لما يعنيه وجودُها. كانت جديدةً ولامعةً ومغريةً بلا حدود. حلَّ والدُها مشكلةَ انتقالهِ بمنتهى السهولة والبساطة، باستخدامه البطاقةَ الائتمانيَّةَ.

إذا ما صحا العـالَمُ واكتشفَ غيابَ كلير، فسيكونُ هذا أمرًا عاديًّا؛ ولن يظنَّ أحدٌ أنَّ هناك أىَّ اختلافٍ على الأقلِّ خلالَ أوَّلِ يوم. أما إذا ما اكْتَشفَ غيابَ السيارةِ حتَّى ولو للحظةٍ، فسيتمُّ إبلاغُ الشرطة فى الحالِ. ولكن إذا ما اختفتْ كليرُ والسيارةُ – حينئذٍ، سيشعرون بالحَيْرةِ ولن يعرفوا كيف يتصرَّفُونَ. أعجبها هذا الشعورُ. أرادتْ أن يكافحَ الناسُ عند اتِّخاذِ القرارات.

Twitter: @alqareah

عادتْ راكضةً إلى البيتِ. دخلتْ خِلْسةً، فى أثناءِ نَوْمِ والدِها، وأخذتْ مفاتيحَ السيارةِ ثم مضتْ إلى غرفتها وانتزعتْ «باتونن» من وراءِ الرَّفِّ. مضتْ سنواتٌ عديدةٌ على آخر مرَّةٍ اصطحبتْ فيها كلير دُبَّها معها إلى أىِّ مكانٍ أو تحدثتْ معه بوُدٍّ كرفيقٍ حميم. لقد كَبِرَتْ ولم تعدْ بحاجةٍ لصحبةِ شىءٍ غير حَىٍّ. فوجودُ اللُّعَبِ من الحيواناتِ المَحْشُوَّةِ حولها، يُعتبرُ الآن مظهرًا سخيفًا لا يليقُ. ومع هذا، ففى تلك اللحظةِ، مع شعورِها الشديدِ بالتوتُّرِ والارتباكِ والحَيْرةِ لما يمكنُ أن تفعلَ، لم تجدْ غيره. عندما أصبحَ كلُّ ما كانتْ تريدهُ، هو الهروبُ لأبعدِ مكانٍ وبأسرعِ ما يمكنُ. كانتْ بحاجةٍ لأن تأخذَ معها شيئًا عزيزًا مألوفًا. شىءٌ له تاريخٌ معها. شىءٌ يذكِّرُها بطفولتِها حينَ كانتْ سعيدةً وراضيةً.

Twitter: @alqareah

9

"لَنْ أتفحَّصَ نتائجَ دراستِك بعدَ اليومِ"، قال السيد ليڤانت هذا وهو يدورُ بمقعدهِ مبتعدًا عن مكتبِه ومتوجهًا ليفتحَ خزانةَ مَلفَّاتِه. استخرجَ منها لَفَّةً سميكةً من الأوراقِ المُبَعْثَرَة.

بدتِ الحَيْرَةُ والدهشةُ على وجهِ كلير وهتفتْ: "هل تعنى بأن مقابلاتِنا انتهتْ؟ ولم أعدْ بحاجةٍ للمجيءِ إلى هنا؟"

لمسَ السيد ليڤانت الجزءَ الأعلى من ملفَّاته وسحبَ منها حافظةً كبيرةً للأوراق، وقال لها: "أنا لم أَقُلْ هذا. أخيراً، هذا هو الملف الذى أريدُه". وضعه فوقَ مكتبِه وتطلَّع إلى كلير وأردفَ: "ما عَنيْتُهُ... هو أننى أرى أنه لم يَعُدْ منَ المفيدِ أن أظلَّ مرشدًا لتحصيلك الدراسىِّ، أو أن أحتفظَ بسجلٍ تَقَدُّمك فى الدراسة".

ردتْ كلير متهكِّمةً: "إن كُنَّا لن نتحدَّثَ عن المدرسة، فما الدَّاعِى لمجيئى هنا؟ فأنت إخصائىٌّ استشارىٌّ بالمدرسةِ. أليسَ هذا صحيحًا؟"

Twitter: @alqareah

تراجعَ السيدُ ليڤانت فى مقعده واستمرَّ فى الكتابةِ فى دفترِ ملاحظاتِه.

كان صامتًا، مركِّزًا كما لو أنه يتجاهلُ كلير مُتعمِّدًا. اقتحمتْ كلير صمتَه وقالتْ: "ما الذى تكتُبه؟ لم أقلْ شيئًا يستحقُّ التَّدْوينَ... هل تسمعُنى؟ فأنا أظنُّ أنك أكثرُ اهتمامًا بتقديم تقريرِ جيدٍ بدلًا من الاستماعِ إلىَّ".

– أنا أستمعُ إليكِ يا كلير. فأنت تقولينَ الكثيرَ من الأشياءِ المثيرةِ للاهتمام، وإن كانَ الكثيرُ منها يبدو بلا مَعْنًى – ولكنَّ هذا غيرُ مُهمٍّ... أنا بحاجةٍ لبضعِ ثوانٍ... فأنا أعيدُ استعراضَ بعضِ الأشياء وتنقيحَها.

"ماذا؟"، صرخت كلير وحدقت فى السيد ليڤانت بينما ظل هو مستمرًّا فى عمله.

تردد السيد ليڤانت: "أظن أنك ستجدينها... حسنًا، آمل أن تجديها... على الأقل... مثيرةً للفضولِ". قال هذا وهو يتطلَّعُ إلى كلير بنظرةٍ حادَّةٍ كنظرة الصقر.

– هل تعنى أنه بإمكانى رؤيةُ ما كتبته عنى؟

قال ومازالت أنظارُه على دفتر الملاحظات: "بالطَّبْع".

خَفَضتْ كلير رأسَها قليلًا ومدَّتْهُ إلى الأمام. كانت تحاول أن تلمح عينيه لتتفهَّم ما الذى يعمله. وقالت: "لم يخطرْ لى أبدًا أننى سأتمكَّنُ من رؤية ملاحظاتك".

Twitter: @alqareah

– لن يكونَ بيننا أسرارٌ. فنحن جميعًا بشر. من الممكن أن يكون كفاحنا مختلفًا ولكننا جميعًا نكافح... وأنا أكافح الآن محاولًا أن أظْهرَ العيونَ بشكل صحيح.

– ما هذا الذى تتحدَّثُ عنه؟

– أنا أتحدث عن عيونك يا كلير. فهى تقولُ الكثيرَ.

هزتْ كلير رأسَها وتمتمتْ بشيءٍ من بين أنفاسها وقالتْ: "هل بإمكانى الذَّهابُ الآن؟ لقد أَزِفَ الوقتُ...".

توقفتْ كلير عن تكملة الجملة؛ قلب السيد ليڤانت دفتر مذكِّراته على الوجه الآخر، وحرَّكَهُ أمامها مثل ريحٍ هائجٍ قادم من البحر يعصفُ فى وجهها، ووضعه فوق المكتب بشكلٍ يُمكِّنُها أن ترى ما أنجزه. وقال: "هل هذا ما تَعْنينَهُ؟"

لم تكن الورقةُ تحملُ حروفًا أو كلماتٍ أو فقراتٍ، فقط خطوطٌ تدلُّ على التعبير والانفعال، ضرباتٌ كاسحةٌ شكَّلتْ رسمًا باهتًا لوجهِ فتاةٍ شابَّة. حافَّاتٌ حادةٌ تتباين مع صخورٍ ملساءَ. هُوَّةٌ كبيرةٌ تقطعُ ممرًّا بسيطًا متعرِّجًا. وطفلة صغيرة تُرَكِّز بجَهْدٍ تُمسك بلعبةٍ مَحْشوَّةٍ على شكل حيوان بين ذراعيْها، وتبدو فى عينيها نظرةُ رعبٍ وارتباكٍ.

يجذب المنظرُ المرسومُ المُشاهدَ إلى أسفل اللوحة من عُمْقِ الارتباك والتشويش ثم يعلو به إلى أعلى نحو بريقٍ متزايدٍ للسماءِ، كما لو أن لونًا جديدًا تَشكَّل من لا شيءٍ، إلَّا من قلم رصاص أسود.

Twitter: @alqareah

تساءلت: "هل هذه هى ملاحظاتُكَ؟ أهذا كلُّ ما كنتَ تفعلُ... طوالَ الوقتِ... ترسُمُ فقط؟" فوجئتْ كلير بما رأتْ.

أومأ السيدُ ليڤانت برأسه مؤكِّدًا. وأشارَ نحو بعض الاسكتشات والبورتريهات المُوزَّعة على الجدران وقال: "كما تَرَيْنَ، فبعضُ المشاكلِ لا يمكنُ وصفُها بالكلماتِ".

تلاشت كُلُّ ذَرَّةِ تَهكُّمٍ من صوتِ كلير وقالتْ: "لقد فهمتَنى. أليسَ كذلك؟"

أومأ السيدُ ليڤانت موافقًا وقال: "نعم. فأنا أستمعُ إلى الأفكارِ التى تكمنُ وراءَ الكلماتِ. وأنا أفهمُك لأننى أنا نفسى كنتُ يومًا هناك، قريبًا من الحافَّةِ. أعلمُ بعضًا مِمَّا يُقْلِقُكِ ويجعَلُكِ مُضطربةً".

تراجعتْ كلير إلى الخلفِ فى مقعدِها وأنزلتِ التوتُّرَ عن كَتِفَيْهَا ورفعتْ رأسها. أخذتْ تُنصِتُ بتركيزٍ شديدٍ، كما لو أن ما سيقولُه سينقذُ حياتَها.

قال: "ثَمَّةَ شيءٌ أودُّ لو تفعلِينَهُ من أجلى. أريدُكِ أن تقرئى شيئًا".

تساءلتْ: "تريدُنى أن أقرأ شيئًا؟ ما هو؟"

وضعَ الرسمَ على المكتبِ وتناول كتابًا من فوقِ رَفٍّ قريبٍ وأعطاه لها قائلًا: "أريدكِ أن تقرئى هذا. إنه عملٌ أدبىٌّ قصيرٌ كتبه كاتبٌ روسىٌّ. أريدُ أن أعرفَ رأيكِ بعد قراءته. قد تجدينَ بين صفحاتِه رُوحًا قريبةً من رُوحِك".

Twitter: @alqareah

أخذتِ الكتابَ منه. بدا الغلافُ الجلديُّ رثًّا وباليًا من أطرافه، كما لو أن الكثيرَ من الأيادى تناولتْهُ من قبلُ. فُتح بمنتهى السهولة. كانت صفحاتُه مُصفرَّةً من قِدَم السنين وقاتمةً، طُبعت بكلماتِ صغيرةِ ومزدحمة وبفقراتِ طويلة.

– يبدو مُضْجِرًا للغاية. هل تريدُنى أن أقرأ هذا فعلًا؟

– نعم. ليس سهلًا، ولكن أظنُّ أنك ستجدينه يستحقُّ المجهودَ. سنتحدَّثُ عنه فى لقائِنا القادمِ.

فى ساعةٍ متأخرةٍ من ذلك اليوم قرأتْ بعضًا مِنَ الصفحاتِ الأولى للكتابِ. كانت الجملُ طويلةً جدًّا؛ حتَّى إنها كادت تنسى موضوعَ الجملةِ وهى تكدحُ للوصول لآخرها. تبحثُ عن «الفعل» فى فقرةٍ تمتدُّ بطولِ صفحة كاملة. كانت القصةُ تسردُ غرابةَ أطوارِ شخصٍ يتجوَّلُ هائمًا على وجهه يشتكى من أنه مُدْرِكٌ جدًّا لمؤهِّلاته وشدَّةِ ذكائه، إلَّا أنه كان يشعرُ بالاضطهادِ والاضطرابِ. لا يملكُ أىَّ قِيَم أو أهدافٍ تُثيرُ الخيالَ وترفع من شأن الذات. كان كُلُّ ما يشتكى منه لا يتعدَّى مشاكلَ سخيفةً: مثل عدم مَقْدِرَته أن يصبحَ حشرةً، أو مواقفَ بعيدة الاحتمال، مثل قضائه سنتيْنِ وهو يأخذ حِذْرَهُ كى لا يتنحَّى إلى جانبِ الطريقِ عندما يمرُّ ضابطُ شرطةٍ فى الشارعِ.

Twitter: @alqareah

لم يكن بالقصةِ إلَّا القليلُ من الفعلِ والحركةِ. كما لم يكن فيها إلا بعضُ المقاطعِ القليلةِ من الحَبْكةِ الرِّوائِيَّةِ والحوارِ. وجدتْ كلير أن هذا العملَ الأَدبىَّ مُضْجرٌ ومُبْهَمٌ. وبعد أن أجبرتْ نفسَها على قراءةِ الفصولِ الأولى، وضعتِ الكتابَ جانبًا وهى تظنُّ أنها لن تمسكَ به مَرَّةً أُخرَى.

فى تلك الليلةِ، وبعد أن تمدَّدتْ فى السريرِ، جذبتها غرابةُ القصةِ وغموضُها إلى العودةِ إليها. أمسكتِ الكتابَ وأخذتْ تقلِّبُ الصفحاتِ بدءًا من نهايتها إلى أن وصلتْ إلى البدايةِ. بدأتْ تقرأُ من جديدٍ. تخطَّتْ بعضَ المقاطعِ الوصفيَّةِ الطويلةِ، وخاضتْ من خلال جُمَلٍ تبدو معانيها كما لو أن الكتابَ كُتِبَ بلغةٍ أجنبيَّةٍ. وأخيرًا بدأتْ بعضُ الأفكارِ تلتحمُ وتوحى بأفكارٍ كانتْ قد شَعَرتْ بها، ولكن لم تكنْ قادرةً على التعبيرِ عنها من قبلُ. بدأتْ تقلِّبُ الصفحةَ تلو الصفحةِ، تقرأ بكثافةٍ متزايدة تركِّزُ على كُلِّ كلمةٍ وجملةٍ. انجذبتْ إلى عُمْقِ الروايةِ مثلَ فلينةٍ فى دَوَّامةٍ.

المعاناةُ هى أصلُ الوَعْى.

فإذا ما كنَّا سعداءَ طوال الوقت، تمضى بنا الأيامُ وابتساماتُنا تنفرجُ من الخَدِّ إلى الخَدِّ الآخرِ بشكلٍ دائمٍ. ننطقُ بملاحظاتٍ تافهةٍ وعباراتٍ مُكررةٍ نوجِّهها لكل عابرِ سبيلٍ. نشعرُ بالرضا لامتلاء بطوننا السعيدة، ولحصولنا على كُلِّ ما نحتاجُ إليه، ولتلبية كافَّةِ رغباتِنا، وبأننا محاطون بالرعاية

Twitter: @alqareah

والاهتمام والعناية منذُ نعومةِ أظفارنا وحتَّى آخر العمر، وأن كُلَّ طريقٍ ممهدٌ لنا – هل يمكننا أبدًا أن نتعرَّفَ على أنفسنا؟

سيتمكّنُ العلمُ، في المستقبلِ، مِنْ تفسيرِ كُلِّ تَصَرُّفٍ نقومُ به.

خَطَّطتِ الطبيعةُ للحشراتِ أن تطيرَ منجذبةً إلى النورِ، وللطيورِ أن تهاجرَ، وللدِّببَةِ أن تستسلمَ للسُّباتِ في الشتاء. لَمْ يُترك الإنسان بعيدًا عن هذا المُخَطَّطِ. ولكن، هل تُطبَّقُ قوانينُ الطبيعةِ على كُلِّ إنسانٍ؟ هل يمكنُ تفسيرُ البشرِ كما يتمُّ تفسيرُ حركاتِ الحشرات؟ هل كلُّ تصرفٍ نقومُ به أو كل اعتقادٍ نؤمنُ به ما هو إلا نتيجةٌ لنشاطِ بعضِ الخلايا العصبيِّةِ الموجودةِ في عُقُولِنا؟

يفسِّرُ العلمُ الاختيارَ ببساطةٍ؛ بأنه التصرفُ في اتجاهِ ما فيه فائدةٌ لنا ولمصلحتنا الشخصية.

تساءلتْ كلير إن كان بإمكانها بالفعل، أن تختارَ بحريَّةٍ ما تريدُ أن تفعلَ أو أن ثَمَّةَ قُوًى لا نهايةَ لها قرَّرتْ منذ آلاف السنين، من قبلِ أن تُولَدَ، مَنْ ستكونُ. فنحنُ نعملُ كما لو أنَّ هذا حقيقيٌّ. وهذا هو السببُ الذي يتيح للقانونِ أن يُخْلِيَ سبيلَ شخصٍ مذنبٍ: كان ذَنْبُه محتومًا؛ لم يكنْ بِوُسْعِه تَجنُّبُه. لم يكنْ بإمكانه الاختيارُ بين الفعلِ وعدمِ الفعلِ. إذًا، هل يمكن أن نُلامَ على أيِّ شيءٍ نفعلُه؟ كيفَ يمكنُ لأيِّ واحدٍ منَّا أن يحكمَ دون أن يعرفَ ويلمَّ بالتاريخِ الكاملِ للإنسانيةِ؟

Twitter: @alqareah

إن كان هناك سببٌ لكلِّ حدثٍ، فأين إذًا حريَّةُ الإرادةِ؟ فنحنُ نأكلُ لأننا نشعرُ بالجوعِ، وننامُ لأننا نشعرُ بالتعبِ، ونلعبُ مع أصدقائنا لأننا نريدُ التسليةَ، ونلتقطُ قطعةً من الورقِ لأننا لا نريد رُكَامًا مبعثرًا. هل الإنسانُ آلةٌ تعملُ بشكلٍ عاقلٍ؟ وهل العالمُ مَكنةٌ بدأتْ بالحركةِ وسَتُترَكُ دائرةً إلى أن تُتلفَ كُلُّ أجزائها؟

ماذا يكونُ الإنسانُ بلا رغبةٍ وبلا إرادةٍ حُرَّةٍ؟

وماذا لو لم تنطبقْ قوانينُ الطبيعةِ؟ لمَ علينا أن نختارَ أن نكونَ جزءًا من عالمٍ هو ليس جُزْءًا منَّا؟

ماذا لو أننا كنا لا ننتمي للطبيعة - غيرَ طبيعيِّين؟ ماذا لو أننا نرغبُ بأشياءَ غيرِ منطقيَّةٍ وعاقلةٍ ولذلك لا يمكنُ تفسيرُها بالعلمِ، أبدًا؟ ماذا لو كنا مسئولين بالكامل... مُذْنبين عن كلِّ عملٍ نعمله؟

يمكنُنا أن نقولَ أشياءَ كثيرةً عن تاريخِ العالمِ - باستثناءِ وَصْفهِ بأنه منطقيٌّ أو عقلانيٌّ... أعْطِ هذا الإنسانَ كُلَّ مُباركةٍ أرضيَّةٍ، حَقِّقْ كافَّةَ رَغَباته، أطْفِئْ أقلَّ بادرةَ عَطَشٍ، سيظلُّ راغبًا فى تحطيمِ ما لديه - فقط ليُثْبِتَ أنَّه حُرٌّ.

قررتْ كلير أن تؤكِّدَ حُريَّتَها فى العالمِ، وذلك بأن تصبحَ غيرَ منطقيَّةٍ أو عقلانيَّةٍ وبأن تقومَ بتصرُّفاتٍ لا يمكنُ تفسيرُها

Twitter: @alqareah

أو فهمُها. كان عليها أن تبرهنَ لنفسها أولًا، ثم لغيرها من الناس، بأنه ليس هناك سببٌ، تفسيرٌ عقليٌّ أو منطقيٌّ لكلٍّ عملٍ يقومُ به الناسُ. لم تكنْ تريدُ أن تعملَ في الخَفَاءِ. كانت تريدُ أن يجدَها الغيرُ مذنبةً وتتمَّ معاقبتُها.

مشحونةً بقوَّةٍ كبيرةٍ من الفكرِ، بدأتْ كلير في فرضِ ذاتها، وشخصيتها الفردية، وإنسانيتها. لم تَعُدْ تهتمُّ بالمشاركة بأيٍّ نشاطٍ هادفٍ. وإن ذكَّرها أحد بأن عليها أن تتحمَّلَ مسؤليَّاتِها تَنْأَ بنفسها بعيدًا عنها. إن كان بإمكانها أن تتنصَّلَ من العقلِ والمنطقِ ستصبحْ حُرَّةً. توقفتْ عن ترتيبِ سريرها، ولمِّ ثيابها المبعثرة، وغسل الأطباق. توقفتْ عن الاستحمامِ، والأكل بانتظامٍ، وعملِ واجباتها المدرسيَّة. أحيانًا – وبلا سببٍ – كانت ترمي بصحنٍ زُجاجيٍّ إلى الأرضِ وتراقبهُ وهو ينكسرُ ويتبعثرُ تحت قَدَميْها. كانتْ تريدُ أن تخلُقَ حولها أكثرَ ما يمكنُ من الفوضى وقِلَّة النظام.

فسَّر البالغونَ سلوكَها بأنه صراعٌ إلى أن تكبرَ وتنضجَ، وقالوا إن هذا الموقفَ سيتغيَّرُ مع الزمنِ؛ وأن ما تمرُّ به ما هو إلَّا ثورةُ المراهقين... مَنْ هم أندادٌ لها كانوا يظنون أنها بحاجةٍ لبعضِ البهجةِ والمرَحِ والتسليةِ؛ فهي جادَّةٌ أكثرَ مما ينبغي. تصوَّرَ الجميعُ أنها مرحلةٌ انتقاليَّةٌ ستكبرُ وستتخطَّاها. فالزمنُ كفيلٌ بشفاءِ كُلِّ ما يقلقُها، ويَلْئِم كُلَّ الجروحِ التي

Twitter: @alqareah

قد تُصيبُها فى هذه المرحلةِ... تقدَّم الجميعُ لتقديمِ أسبابٍ وتفسيراتٍ لتصرفاتِ كلير - ولكنَّها بعدئذٍ قامت بعملِ حَطَّمَ تفاؤلَ كُلٍّ واحدٍ منهم .

Twitter: @alqareah

10

"يمكننا أن نفعلَ ما نريدُ. نحنُ أحرارٌ". قالتْ كلير هذا وهى تلتقطُ «باتونز» وتضعُه على حِجْرِها وتُمشِّطُ فراءه بيدها، ثم أردفتْ: "يمكنُنا أن نقودَ السيارةَ إلى أيِّ مكانٍ. نأكلُ ما يَلَذُّ لنا - طالما أننا نسيرُ على طرقاتٍ معبَّدةٍ ونمتِّعُ أنفُسنا بأكلِ «الدُّونَات» بكافَّةِ أشكالِه. فنحنُ أحرارٌ - بنفسِ قَدْرِ الحريةِ التى يتمتَّعُ بها حيوانٌ محجوزٌ داخلَ إناءٍ".

دفعتْ تياراتُ الهواء شَعْرَ كلير ذَهابًا وإيابًا فأخذ يتأرجحُ أعلى كتفيْها بإيقاعٍ ناعمٍ متواترٍ. حركةٌ فَتَنتْ ذا البطن النارىِّ فتخيلها وهى تركضُ حرةً وسعيدةً فوق عُشْبِ تَلٍّ، مُنجذبةً نحو مياهِ بحيرةٍ على البُعْدِ، ولكنَّها غيرُ واثقةٍ من مكانها؛ وهو جاثمٌ على علياء كتفها يتشبَّثُ بمُنْحَدرِ عُنُقِها ويشيرُ إلى موقع البحيرة بقدمه المبتورة.

Twitter: @alqareah

أَدخلتْ كلير يَدها فى الكيسِ وأَمسكتْ بقطعةِ جديدةِ من «الدونات» وأَخذتْ تقضمُها بشراهةِ. تلوَّثتْ شفتُها العُلْيَا بطبقةٍ رقيقةٍ من الشوكولاتة وتناثرَ بعضُ الفُتاتِ على قميصها وعلى حِجْرِها. أَزاحتْها عن بنْطالِها ومسحتْ وجهَها ثم شربتْ شرابًا غازيًّا لتغسلَ ما تبقَّى.

تطلَّعتْ نحو دُبِّها الذى يقبعُ فوق لوحة أَجهزة القياس وقالتْ: "أَرجو أَن تكونَ مستمتعًا بالرحلة يا «باتونز» ... أَنت لا تتغيَّرُ أَبدًا، وهذا ما يجعلنى أَرغبُ فى وجودك هنا معى. أَنتَ كما كنتَ دائمًا منذ أَن كنتُ طفلةً صغيرةً وأَما أَنا فلستُ مثلك، لقد تغيَّرتُ. لم أَعُدِ الشخصَ ذاتَه. اختلفتُ عمَّا كنتُ عليه منذُ عام مَضَى، أَو أُسبوعٍ مضى، أَو حتَّى يوم مضى... قبل أَن أَتحوَّلَ إِلى هاربةٍ وسارقةٍ للسيارات. هل يبقى أَىُّ جزءٍ منِّى دائمًا كما هو.. لا يتغيَّرُ أَبدًا؟"

رفع ذو البطن النارىِّ الكتلةَ فى مُقدِّمةِ قدمه الناقصة ليراها بعينيه ويتفحَّصُها. يديرُ قائمتَه بكُلِّ اتجاهٍ حتَّى يتمكَّنَ من رؤيةِ كافَّةِ جوانبها. أَخذ يتساءل كم كان سيكونُ مختلفًا لو كان لديه أَربعُ أَقدامٍ – ربما، لن يكون هناك أَىُّ اختلافٍ أَبدًا! مدَّ قائمته الناقصة نحو كلير؛ تخيل أَنه يمدُّها بعيدًا عن جسدهِ مثل عودِ قصبٍ لعُشْبةٍ ناميةٍ، حتَّى تَلمَّسَ بلُطْف شعرَ كلير لتحوِّلَ أَفكارَها. تبدَّلَ جسدهُ؛ ولم يعدْ يعوقهُ لفعل أَىِّ شىءٍ يريدُه.

Twitter: @alqareah

مـالَ الطريقُ الآنَ مُلتفًا يحيطُ بمنظرٍ طبيعيٍّ جميلٍ، يحجبُ الرؤيةَ لمسافةٍ بعيدةٍ. أظلمتِ السماءُ، واكفهرَّ لونُ السحابِ وانتشرَ كما لو أنه يحيطُ العالمَ بغموضٍ رَمَاديٍّ. اختلطَ الهواءُ الدافئُ بالباردِ، وهبَّتْ رياحٌ قويةٌ انتزعتْ أوراقَ الأشجارِ البعيدةِ ـ إشاراتٌ تُنْذِرُ الضفدعَ بأن عليه أن يختبئَ، أو أن يحضِّرَ نفسَه لأن تتقاذفَهُ الأمواجُ.

تهدهدَ ذو البطنِ الناريِّ بإيقاع حركةِ السيارةِ وصوتِ الهواءِ المندفعِ. زحفَ تحتَ حقيبةِ يدِ كلير وغرقَ فى النَّوْمِ. فى أحلامِهِ، يصبح كُلُّ اختيارٍ مُمْكنًا:

حينَ عادَ الرَّجلُ إلى السيارةِ كان راضيًا سعيدًا يبدو عليه المَرَحُ. كان يسيرُ مختالًا ويصفِّرُ، لا يبدو كشخصٍ عدائيٍّ سيقذفُ بضفدعٍ صغيرٍ إلى خارجِ السيارةِ.

لم يعدْ ذو البطنِ الناريِّ يحتملُ أن تجعلَه «ماذا لو» عاجزًا عن اتخاذ القرار. زحف من مَخْبَئِه وتسلَّقَ المقعدَ بجانبِ السائقِ، ثم جلس فى وَسَطِه تمامًا. أخذ جَرْعةً من الهواء ونفخَ جَنْبَيْه بمنتهى الثقة ثم رفعَ عَقِيرتَهُ بالنقيقِ. ليس مرةً ولكن ثلاثَ مرَّاتٍ. تطلَّعَ الرجلُ إلى المقعد؛ شاهده وابتسم. التقتْ عيُونهما، عبرًا من خلالها عن منتهى التفاهم. فُتِنَ الرجلُ برؤيةِ الضفدعِ فى وسطِ المقعدِ.

قال الرجلُ: "شيءٌ مدهشٌ. كيف وصلتَ إلى هنا؟ من أينَ جِئْتَ؟" نَقْنَقَ ذو البطنِ الناريِّ مرةً أخرى .

Twitter: @alqareah

"حسنًا، دعنى أجدْ لك وعاءً زجاجيًا. أظنُّ أنك ستستمتعُ بالإقامةِ معنا، فابنتى تحبُّ الحيواناتِ الأليفةَ. سنرعاكَ ونعتنى بك كثيرًا". مدَّ يده ببطء. زحف ذو البطن النارىّ نحو كَفِّه واستقرَّ شاعرًا بالراحةِ والطُّمأنينَة.

اصطحب الرجلُ ذا البطنِ النارىِّ إلى منزله، ووضعه فى حوضٍ كبيرٍ واسعٍ يمتلئُ بالطَّحالبِ الخضراءِ المُورَقةِ وأحواضِ سباحةٍ متلألئةٍ ونقيَّة، وبه شلَّالانِ مُنْعِشانِ يَصُبَّانِ فى جدولٍ صغيرٍ، يتلوَّى مُتعرِّجًا مثل طريقٍ مُبهجٍ يتخلَّلُ غابةً من الطحالبِ وجُذوعِ الأشجارِ الرَّطْبةِ. كان الجرادُ وذبابُ الفاكهة يقفزون ويَثِبُونَ فى كُلِّ مكانٍ منتظرينَ أن يأتىَ دورُهم ليتمَّ صيدُهم. تعجبتْ بعضُ الضفادعِ الصغيرةِ التى كانت موجودةً آنفًا فى الحوض من وصولِ هذا الساكن الجديد الذى سبَّبَ لها الكثيرَ من الحَيْرَةِ.

استقرَّ هذا الحوضُ أمامَ نافذةٍ واسعةٍ جدًّا تطلُّ على منظرٍ طبيعىٍّ رائعٍ من الجبالِ والأشجارِ والبحيراتِ والتِّلالِ. كان بإمكانِ الضفدعِ أن يرى العالَمَ الذى طالما أرادَ أن يُشاهدَه.

عاش ذو البطنِ النارىِّ هناك زمنًا طويلًا. تضخَّمَ جسمُه واستدارَ. كان يشعرُ بالرفاهيةِ، والسعادةِ ومُنْتَهى الرضا.

وفى أحدِ الأيام لاحظَ ضفدعٌ آخر نظراتِه التى كانتْ تتَّجهُ نحوَ البحيرةِ التى تقعُ تحت النافذةِ، وسأله هل فكَّر يومًا بالعيشِ فى الغابةِ. وفى تلك اللحظةِ، لحظةِ تَجَلٍّ غيرِ متوقَّعةٍ، أدرك ذو البطن النارى ما ارتكبه. فبدلًا من أن يختارَ القفزَ نحو العالمِ ليعيشَ حرًّا

Twitter: @alqareah

وبَرِّيًّا، بدلًا من أن يصبحَ ضفدعًا حكيمًا فى شيخوخته؛ ها هو ذا كُلُّ ما بإمكانه قولُه، أنه عاش حياةً مستكينةً مُرفَّهةً. لم يشعرْ أبدًا بالجوعِ الشديدِ ولا بالبردِ القارصِ. عاش فى حوضٍ واسعٍ يبعثُ على الاسترخاءِ – محميًّا، وآمنًا، ومُطمئنًّا.

حدَّثَهُ ذو البطنِ الناريِّ عن كارولين، وعن مغامرته الكبرى بعد أن ضاعَ منها فى السيَّارةِ وكيف أنقذه الرجلُ الطيِّبُ. أخبره بكلِّ التفاصيلِ وبكلِّ الوقائعِ. ولكنَّه، مع هذا، لم يذكُرْ له أنه حين كان على حافَّةِ المغامرةِ الحقيقيَّةِ الكبرى، حين كان بإمكانه أن يثبَ إلى الخلاءِ ويعيشَ حرًّا طليقًا بَرِّيًّا، حين كان من الممكن أن يصبحَ تَوْقُهُ هو واقعَه، بدلًا من ذلك انسلَّ خلسةً متراجعًا أمام بوَّابةِ المجهولِ، ليصبحَ هذا العجوزَ البدينَ البَرِّمائيَّ الذى لا يَمْلِكُ سوى الأمنياتِ.

لم يكُنْ يريدُ أن يكونَ هذا الضفدعَ.

فتحَ ذو البطنِ الأحمرِ الناريِّ عينيه وشاهد كلير، وهى تقودُ السيارةَ متصلبةً ومنتصبةً تحدِّقُ مَشْدُوهةً من خلالِ الزُّجاجِ الأماميِّ للسيارةِ. أقفلَ عينيه واستسلمَ إلى النومِ من جديدٍ.

قاد الرجلُ السيارةَ إلى جانبِ حافةِ الرصيفِ وتوقف ليُنزِلَ ابنتَه وهو يقول: "سأمرُّ عليكِ لأصطحبكِ فى الأسبوعِ القادمِ".

Twitter: @alqareah

قالتِ الفتاةُ وهى ترفع مقبض باب السيارة وتتحضَّر للنزولِ: "حسنًا".

زحف ذو البطن النارىٌ بسرعةِ خارجَ مَخْبئه وتحرك نحو الإفريز إلى أسفل الباب. لا وقتَ لديه ليتطلَّعَ حوله وليفكِّرَ مليًّا فى احتمالِ وجودِ مكانٍ أفضلَ. كان عليه أن يقفز، مَعْميًّا، وفى نفس الوقت، بثقةٍ خارجَ السيارةِ. فلو أنَّه تردَّدَ أو زحف خارجًا ببطءٍ ليحدِّقَ فوقَ الحافَّةِ ليستكشفَ أين سيحطُّ، أو لو أنه نظر وراءه، ولو للحظةٍ، منتظرًا أن يركلَه كائنٌ ما، يدفعَه كى يتَّخذَ قرارًا... فسيجدُ نفسَه حينئذٍ مسحوقًا مقضيًّا عليه.

فتحتِ الفتاةُ البابَ ومدَّتْ إحدى ساقيْها إلى الأرضِ. لمح ذو البطن النارى العُشْبَ الأخضرَ والأشجارَ على البُعْدِ. تسلَّقَ حافَّةَ البابِ وشدَّ قوائمَه. وقفتِ الفتاةُ خارجَ السيارةِ. قذفَ الضفدعُ بنفسهِ فى الهواءِ مُحلِّقًا مُتخطِّيًا ساقها، يكاد أن يلامسَ جِلْدَها. هوى إلى الترابِ ثم استعادَ توازنَه. انطلقتِ السيارةُ مبتعدةً وسارتِ الفتاةُ فى طريقها.

ها هو ذا الآن فى الخارج لأولِ مرةٍ. فى الخارجِ، فى عالمٍ بلا حدودٍ. بإمكانه أن يَثِبَ، ويزحفَ أينما يريدُ. يتجوَّلُ مسافرًا إلى أن يجدَ مكانًا على ضِفَّةِ بِرْكةٍ صافيةٍ مُغطَّاةٍ بأوراقِ زَنْبقِ الماءِ، ومحاطةٍ بالعُشْبِ الأخضرِ الرَّطبِ والأشجارِ العاليةِ المُظلِّلة.

صرخ بأعلى صوته: "أنا بَرِّىٌّ!!"

Twitter: @alqareah

وبسرعةٍ قفزَ نحوِ بعض النباتات الطويلة، ثم نزل نحوَ تَلٍّ مُغطًّى بالعشْبِ. وجد فى أسفله بركةً جميلةً نزلَ إليها. وأخذَ يرشُّ نفسَه ويلعب فى الماءِ كما لو أنه لم يشعرْ بالبَلَلِ من قبلُ. ظلَّ يتقلَّبُ ويلفُّ فى فرحةٍ غامرةٍ إلى أن حلَّ الليلُ وامتلأ الهواء بأصواتٍ ساحرةٍ لأزيزِ جرادٍ مغرٍ ولنقيقِ ضفادعَ بريَّةٍ غريبةٍ. أغمض عينيه وابتسمَ بارتياحٍ كبيرٍ. سيجدُ فى الصباحِ ورقةً لزنبقِ الماء فى وسط البرْكة ويمضى نهارَه يتشمَّسُ ويتنعَّمُ بالنسيمِ الدافئِ العليلِ... وفكَّرَ، بريٌّ.. ها أنذا أصبحتُ بريًّا فى آخر الأمر.

ولكن ما لبثتْ أصواتُ الليلِ أن أصبحتْ غريبةً لا تبعثُ على الراحةِ والطُّمأنينةِ. تَملَّكَهُ القلقُ والخوفُ. تحرَّكتِ الأجماتُ؛ وأصدرتِ الأوراقُ أصواتَ حفيفٍ وخَشْخَشةٍ تُنذرُ بالشَّرِّ. ثَمَّةَ شىءٌ يقترب. وثبَ مبتعدًا. توقَّفَ الحفيفُ للحظةٍ ثم عادَ من جديدٍ. لاحظ تحت ضوء القمر الصاعد طرفَ لسانٍ يندفعُ إلى الداخل وإلى الخارج يتذوَّقُ الهواء. كان السيدُ ثعبان يتطلَّعُ إليه.

توجَّه مرتعبًا نحو حافَّةِ البحيرة وبسرعةٍ شَقَّ طريقَه داخلًا وخارجًا من بين قَصَباتِ العُشْبِ، إلى أن وجد بقعةً محميةً داخلَ كهفٍ مُوحِلٍ ورَطبٍ. مرَّ السيد ثعبان من جواره وتوجَّهَ زاحفًا بعيدًا عنه.

مع تقدُّمه فى السِّنِّ، لم يَعُدْ ذو البطن النارىِّ يجازفُ بالابتعادِ عن الحافة التى تفصلُ بين الماء واليابسة. أصبح ملتزمًا بكُوَّتهِ

Twitter: @alqareah

المُوحلةِ وراضيًا بالاختباءِ داخلَ القصباتِ الطويلةِ بين العشبِ، ولكنه لم يكن سعيدًا. كان مُثَبَّطَ العَزْمِ ومُحْبطًا. أَصبح عالَمُه محصورًا فى مكانٍ ضَيِّقٍ وصغيرٍ جدًّا، ولم يَعُدْ يرى سوى جذورِ الطَّحالبِ الرَّتيبةِ المَنْظَرِ.

كما منعه الخوفُ من متعةِ الصيدِ. كان عليه انتظارُ الحشراتِ التى قد تعبرُ أمامَ كهفهِ، ولكنها كانت قليلًا ما تفعلُ. كان يمضى عدَّةَ أيامٍ خائرًا من الجوعِ. وحينما كانتْ تظهرُ جَرادةٌ وتحومُ حوله كانتْ عادةً سريعةً، وخفيفةَ الحركةِ. من الصعب على ضفدعٍ بقدمين ناقصتين أن يمسكَ بها وهو فى مَكْمَنهِ هذا على أرضٍ منزلقةٍ. حتَّى القلائلُ التى استطاع التقاطَها كان مذاقُها رديئًا ولاذعًا.

عاد بأفكارهِ إلى الضفدعِ العجوزِ الذى التقى به منذُ زمنٍ طويلٍ. كان حانقًا عليه وغاضبًا منه... كُلُّ تلك الحكاياتِ التى تدور عن الحياةِ فى الخارجِ، وعن شعوره كضفدعٍ بَرِّىٍّ. لو أنه لم يلتقِ به أبدًا لَمَا كان يعيشُ الآن فى عالمٍ يخافُ أن يتحرَّكَ فيه لأدنى مسافةٍ، يعجزُ عن الاسترخاءِ والتعرُّضِ لدفءِ أشعةِ الشمسِ، فى مكانٍ قد يمرُّ اليوم بطُولهِ من غير أن يحظى بأكل جرادةٍ صغيرةٍ. كان يَرْغِى ويُزْبِدُ من شِدَّةِ الغضبِ – كان من الممكن أن يقنعَ بالعَيْشِ مرتاحًا وراضيًا كحيوانٍ أَليفٍ .

كان يشعرُ بالمرارةِ. فلو كان بإمكانه الاختيارُ فلن يختارَ صُحْبةَ نفسهِ.

Twitter: @alqareah

استيقظ ذو البطنِ الناريِّ من أحلامهِ المُشَّوشةِ المُضطربةِ وشعرَ بالارتياحِ - فهو فى الواقعِ، لم يفعل شيئًا سوى أنه استسلم للنوم. ولكنه كان مرتاعًا - مازال الاختيارُ مطروحًا أمامه. وجَّه تفكيرَه كُلَّه إلى الداخلِ متجاهلًا أىَّ شىءٍ يمكنُ أن يمسَّ قرارَه. فها هو الآن على حافَّةِ اختياراتٍ عديدة. كان خائفًا أن يتراجعَ مبتعدًا عن المستقبلِ، هذا المستقبلُ الذى سيأتى به اختيارُه. تجمَّدتْ أفكارهُ مثل قطراتِ مطرٍ متبلورةٍ تسقطُ بثقلها إلى أسفلَ، تضربُ الأرضَ وتتبعثرُ. لا يمكن أن نتفادَى مجىءَ المستقبل فهو قادمٌ كأمرٍ مفروغٍ منه، مثل شروقِ الشمسِ وسقوطِ أوراقِ الأشجارِ. إنها حُريَّةٌ كاملةٌ ممتزجةٌ بألم مُبرِّحٍ. حينَ رأى الإمكاناتِ المتاحةَ، وتفهَّمَ ما يمكنُه أن يفعلَ، وما - على الأرجح - سيفعلُه، أدرك أنه لا يريدُ أن يلتقىَ بالضفدعِ الذى يمكنُ أن يكُونَه.

Twitter: @alqareah

11

- لم يستطعْ والداك أن يفهَمَا ما فعلتِ أو لماذا تصرفتِ بهذا الشكل... لقد طلبا منى أن أتحدَّثَ إلَيْكِ حول هذا الموضوعِ.

- حولَ ماذا؟

- أظن أنك تعرفين يا كلير؛ فهما مهمومان، قَلِقَانِ أن تعيدى الكَرَّةَ.

هزتْ كلير كَتِفيْها استخفافًا وهى تجلسُ صامتةً. ضَمَّ السيد ليڤانت يديه ثم فتح كَفَّيْهِ ليشجِّعَها على الردِّ.

هزت كلير رأسها رافضةً الاستجابةَ، وهى تقول: "هل هناك مشكلةٌ؟ فأنا فى الحقيقة لا أفهمُ سببَ انزعاجهما؟" ثم أشاحتْ بنظرِها إلى خارجِ النافذةِ التى تقعُ وراء مكتبهِ.

- كما أشارَ والداك إلى أن نتائج دراستك ما زالت متدهورةً

Twitter: @alqareah

ولم تتحسَّنْ. وهذا صحيحٌ. وهما يتساءلان إن كان للقاءاتنا أيَّةُ قيمةٍ.

رَدَّدتْ كلير من ورائه: "قيمة! هذه فكرةٌ مثيرةٌ للاهتمام. كيف يمكنُ قياسُ القيمة بأية حالٍ من الأحوالِ؟"

– طلبا منى أن أتحدَّثَ إليكِ عن احتمال إحالتك إلى مُعَالِجٍ، ربما إلى طبيبٍ نَفْسَانِىٍّ.

تطلَّعتْ كلير إلى السيد ليڤانت وقالت: "لا قيمةَ لذلك – إنها مَضْيعةٌ تامَّةٌ لوقتى".

– ربما أنك بحاجةٍ يا كلير لأن تتحدَّثِى مع والديْك عَمَّا فعلتِ. تفسِّرينَ لهما ما الذى دعاكِ لهذا التصرف. فهما يرغبان فى إحاطتك بالعناية والاهتمام. هذا كُلُّ ما فى الأمر.

– لن يتفهَّما. فهما لا يفهمان شيئًا.

– ربما أنك تبالغينَ يا كلير. أظنُّ...

مالتْ كلير إلى الأمام ووضعتْ يدَها على مكتبِ السيد ليڤانت وقالت: "أنا لا أبالغُ. هل تظنُّ بأن علىَّ فعلًا أن أرى طبيبًا نَفْسَانيًا؟" اتَّخذَ صوتُها صِفَةً غيرَ مُتوقَّعةٍ من الصدقِ والإخلاصِ.

تردَّدَ السيدُ ليڤانت.

ثم أضافت كلير مقاطعةً: "أنتَ لا ترى أن هذا ضرورىٌّ. أليسَ كذلك؟ أنا على يقينٍ من هذا؛ فطريقةُ تفكيرِك تختلفُ

Twitter: @alqareah

عن معظم الناسِ. باستطاعتي أن أرى هذا الآن بوضوح. قرأتُ ذلك الكتابَ الغريبَ الذي أعطيتَهُ لي. قرأتُ بعضًا من فصوله أكثرَ من مرَّةٍ. ما كنتُ لأجرؤ على مجرد التفكير في القيام بما أقدمتُ عليه لو لم أقرأ ذلك الكتابَ. لقد بدَّلني، غيَّر أفكاري. كنتَ مُحقًّا. وجدتُ روحًا تتلاءم مع روحي. أظنُّ أنك تفهمُني. تفهمُ الأفكارَ وليسَ فقط المشاعرَ والانفعالاتِ".

اتسعتْ عينا السيد ليڤانت ورفع رأسه وسألها: "أخبريني بما فعلتِ".

أخذت كلير نَفَسًا عميقًا وقالت: "إن كنتَ تريدُ، إذا كنتَ تظنُّ أن هذا مُهِمٌّ".

أومأ السيد ليڤانت برأسه مشجعًا.

– حسنًا.

أشار إليها أن تواصلَ حديثَها.

"كنت أجلسُ هادئةً على مائدة الطعام أستمع إلى الحديثِ الدائر بين والدي واثنين من جيراننا. كانوا يُثَرْثِرونَ بكلامٍ رتيبٍ مُمِلٍّ لا ينتهي عن مواضيع لا تثير اهتمامي أبدًا. شغلتُ نفسي باللعبِ بالطعامِ الذي كان في طبقي، أرتبه في أشكالٍ ونماذجَ مختلفةٍ ومتنوعةٍ، أستمعُ إلى نغماتِ أصواتهم لا إلى فحوى كلامهم. سألني والدي إن كنتُ أعاني من مشكلةٍ ما. اكتفيتُ بهزِّ كتفيّ بالنفي.

Twitter: @alqareah

"بعد مُضِيٍّ لحظاتٍ معدودةٍ، دفعتُ بالكرسيِّ بعيدًا عن الطاولة، وقفتُ وسرتُ نحوَ البابِ. توقفوا عن الحديث. نظر إليَّ كُلُّ شخصٍ منهم، كُلُّ من كان جالسًا حول الطاولة. علَّق والدى بما يعنى بأننى فى إحدى حالاتى المزاجية، ثم عاد إلى متابعة حديثه. توجهتُ خارجةً من البابِ الخلفيِّ للمنزلِ".

سأل السيدُ ليڤانت: "لمَ غادرتِ المائدةَ؟ هل بسببِ شيءٍ قيلَ فى أثناءِ المحادثةِ. شيء كانوا يتحدثون عنه؟"

"لم يكن لدىَّ أىُّ سببٍ. ولا أىُّ مبررٍ يمكن أن أفسِّرَه، حتَّى لنفسى. وهذا هو الجواب الصادق الأمين. سرتُ بكل بساطةٍ فى طريقى كأننى شخصيةٌ فى حُلْمٍ. شريكةٌ سلبيةٌ لا حولَ لها ولا قوةَ تركبُ عربةً منجرفةً تجرُّها أحصنةٌ بلا قائدٍ يَسُوسُها ويوجِّهها. مضيتُ منساقةً فقط - بلا أىِّ سببٍ".

- وبعد ذلك؟...

- مشيتُ حافيةَ القدمين من خلالِ الفناءِ الخلفى وقطعتُ حقلًا منبسطًا مكسوًّا بالحُزَمِ العُشْبيَّةِ يمتد إلى الغابةِ التى تقع وراء المنزل. سرتُ حول ومن خلالِ مَمَّراتٍ متعرجةٍ، ثم توجهتُ نازلةً نحو ركنى المفضل. فعلى مقربة من الغابةِ وفى اتساعٍ من الأرضِ بين الأشجار تستكينُ بركةٌ صغيرةٌ، جميلةٌ ومغريةٌ.

انحنتْ كلير إلى الأمام وأكملتْ حديثَها بنبرةِ صوتٍ مختلفةٍ.

Twitter: @alqareah

– كان يحيطُ بالبحيرةِ عِدَّةُ أشجارِ كستناءَ آسيويَّةٍ... كما ترى فلديَّ بعضُ المعلوماتِ عن أشجارِ الكستناء.

ابتسم السيد ليڤانت.

استمر الممرُّ بالانزلاقِ إلى أسفل نحو أوتادِ النباتاتِ المائيةِ. كانت الأرضُ صُلْبَةً وغيرَ مستويةٍ. ثقبت خشونتُها قدمَىْ كلير ولكنها لم تُبد رَدَّ فعلٍ للألم؛ كان جسمها مخدرًا وفاقدًا الإحساسَ بأيِّ أَلَمٍ. واصلتِ السيرَ نحوَ حافَّةِ الماءِ، تتطلَّعُ نحو كثافةِ الأشجارِ فى الأرضِ المُبلَّلةِ التى لا يمكنُ اختراقُها فى الناحيةِ الأخرى. لن تلبثَ الظُّلْمةُ أن تخيِّمَ. مالتِ الشمسُ وأرسلتْ أشعَّتَها فوق أغصانِ الأشجارِ المتمايلةِ. انعكستْ على سطحِ البركةِ ظلالُ الغيومِ البعيدةِ، وقد اصطبغتْ بتوهُّجٍ قُرْمُزيٍّ.

أحستْ كلير لأولِ مرَّةٍ بمشاعرَ لم تحسَّها من قبل: اتِّساعٌ أكبرُ ممَّا يمكنُ لها أن تتخيَّلَهُ. بدتِ البركةُ ممتدَّةً تتخطَّى الأفقَ تتَّسعُ نحوَ منظرٍ طبيعيٍّ بلا حدود. شعرتْ بنسمةٍ عليلةٍ ناعمةٍ تلامسُ شعرَها وبالماءِ يجذبُها نحو انعكاسٍ لضوءٍ لا نهائيٍّ. أخذتْ نفسًا عميقًا ووافرًا. رفعتْ ساقيْها ببطءٍ وتروٍّ وأنزلتهما فى الماءِ، وهى تستشعرُ بحرصٍ كل انطباعٍ تتركه الأرضُ المُثْقَلةُ بالمياهِ على قدميْها،

Twitter: @alqareah

بينما كان بطنُ البركةِ العضوى والمزدهر بالكائنات ينتشرُ حول جِلْدِها.

تسرب الطينُ من بين أصابع قدميها وحول كاحليها صاعدًا نحو ساقيها، وحين وصل ماءُ المستنقع إلى ثنية ركبتيْها توقفتْ ساكنةً، بلا حراكٍ حتَّى فقدتِ الإحساسَ برجليْها كأنما كانتا لا تنتميان لجسدها. جلستْ بعدئذٍ، على أرضِ البركةِ وتركت الوحلَ يطفو فوق أعلى ساقيها ويحيطُ بخَصْرِها. مدَّتْ قدميْها باتِّجاهِ الشمسِ، ومالتْ للخلفِ على يديْها، وحدَّقتْ إلى ما بعد البركة. لم تعدْ تشعرُ، ولا تفكرُ، ولا تأتى بأىِّ فعلٍ.

وفيما كانت البركةُ تغمرُها، أخذتْ كلير تراقبُ الشمسَ وهى تحوم فوق الأشجارِ ثم تنسلُّ غائبةً وراء الأفق. ومن خلال نور الغَسَقِ، شاهدتِ الجذورَ السوداء لشجرةِ الكستناءِ تتمدَّدُ فى التربةِ، ثم تميلُ وتدورُ لتأخذَ أشكالًا وتصبحَ جزءًا من قشرةِ الأرضِ، ثم تتحوَّلَ إلى ديدانٍ تصلُ إلى أعلى نحو السماء وتتموَّجُ فى مَهبِّ الريحِ؛ وقد فقدتِ استدارتَها وانبسطتْ مثل شرائط قُذفت إلى أعلى فى الهواءِ. تتناثر وتنتشر بعيدًا عن حدودِ الأشجارِ، ثم تمزجُ وتؤلفُ ما بين الغيوم من أعلى، والأغصانِ المقطوعةِ من أسفلَ. يكادُ لا يتباينُ الآن لونُ الأغصانِ عن لونِ السماءِ التى اسودَّتْ واكتستْ لونًا أسودَ

Twitter: @alqareah

كالإسفلت. عتمة تربط وتغطى كُلَّ شىءٍ بشكلٍ هُلامىٍّ، تُضبِّبُ كل شىءٍ لتصبحَ الحدودُ غيرَ واضحةٍ بينَ الشجرةِ والبركةِ والسماء.

لمحتْ كلير هذا المنظرَ من قبلِ. هذه المجابهةُ أدخلتِ الرُّعبَ إلى قلبِها فى الماضى. جعلتْهَا ترتجفُ من القلقِ وأجبرتَها على البحثِ عن شىءٍ يشتِّتُ أفكارَها الشاردةَ ويُلْهِيها بالتفكيرِ فى أمورِ الحياةِ. كانتْ تتظاهر أن إحساسها بهذه التجربة ليس حَقِيقيًّا. ولكنَّها، هذه المرةَ اعتنقتِ التجربةَ وعانقتها. شعرتْ بحضورٍ هائلٍ وقاهرٍ. انقشعَ الخوفُ مبتعدًا. شَعَرتْ بنفسها صغيرةً جدًّا وتافهةً مثل ذَرَّةٍ فوقَ محيطٍ شاسعٍ؛ لا تلبثُ أن تتلاشَى. ولم تعدْ ترى كلير سوى العَدمِ والفَراغِ.

ظلتْ مُمدَّدةً فى البركةِ وهى تحدِّق فى ظُلْمةِ السماءِ تشعرُ كما لو أنها تطفو، أحسَّتْ بأنها مُعلَّقةٌ فى عالم ما بين اليابسة والماء. انتشر الطينُ ببطءٍ من خلال شَعْرِها عابرًا إلى مقدمةِ عُنُقِها.

ظلتْ كلير على هذا الوضعِ إلى أن رأتْ بريقَ أولِ نورٍ للنجومِ. وشعرت بدبيبِ الحياةِ فى البركةِ لدى استماعها لأصوات صَريرِ الجراد ونقيق الضفادع. استنفدتْ كلير معظمَ طاقتها وبدتْ وكأنها قد تستسلمُ للنوم لتغطسَ فى الأرضِ وخارجَ هذا العالم. حطَّتْ بعوضةٌ فوق خَدِّها. راقبت كلير جسمَ

Twitter: @alqareah

الحشرة وهو يتضخَّمُ لضعفِ حَجْمِهِ ويتحوَّلُ لونُه إلى الأحمر، بعد أن امتلأ بالحياةِ من عروقها. استدارتْ وضغطتْ وجهَها بالطينِ لتصرفَ شعورَها بالحِكَّةِ. زحفتْ بعدئذٍ نحو ضَفَّةِ البحيرةِ وهي تستخدمُ ذراعيْها فقط. جرجرتْ رجليْها كما لو أنها لم تَعُدْ تشعرُ بوجودهما ولم تعودا جزءًا من جسمها؛ مثل فَرْخِ ضُفْدعٍ يحاولُ السباحةَ على اليابسةِ.

"ظَلَلْتُ نائمةً على العشبِ إلى أن أيقظتني برودةُ الفجرِ الباكرِ. وحين تحرَّكتُ قليلًا شعرتُ بجفافِ الأرضِ يتكسَّرُ تحت جِلْدِي. انتصبتُ واقفةً وشعرتُ بوخزٍ في جميعِ أنحاءِ جسمي. استدرتُ مبتعدةً عن الغابةِ ومشيتُ ببطءٍ عائدةً إلى المنزلِ.

"كانتْ أنوارُ المنزل مُضاءةً. ظلَّ والدي صاحيًا طَوالَ الليل يبحث عنِّي في كُلِّ مكانٍ، في الجوارِ وعند الجيران ويتَّصلُ بأصدقائي. كان على وشك أن يكلِّمَ الشرطةَ حين دخلتُ المنزلَ. كان في حالة يُرْثَى لها أكثر مني. بدا الاضطرابُ والقلقُ واضحيْن على وجهه.

"سألني ماذا حدث. أجبتُه وكأنَّه أمْرٌ عاديٌّ، بأنني استسلمتُ للنومِ فوقَ الوَحْلِ في البركةِ. تحوَّل وجهه من الغضبِ إلى الدهشةِ ثم من عدم التصديق إلى الحزنِ.

Twitter: @alqareah

"ظلَّ يسألُنِى لماذا فعلتِ هذا. ماذا حصل وأين ذهبتِ. آلافٌ من الأسئلة. التزمتُ الصمت. انتظرتُ بصبرٍ إلى أن توقَّفَ عن الحديثِ. كان ثَمَّةَ هدوءٌ غيرُ مريحٍ فى المسافةِ التى تفصلُ بيننا ونحن نتبادلُ التحديقَ. استمعتُ إلى صوتِ صرير صرَّار الليل الصباحِىِّ الخافتِ. تدلَّتْ ذقنُ أبى إلى صَدْرِهِ ووضعَ يدَه إلى جانبِ رأسِهِ. استدرتُ وسرتُ مبتعدةً".

Twitter: @alqareah

12

ضربَ عصفُ الرياح السيارةَ وجعلها تتأرجَحُ من جانبٍ إلى آخرَ. أخذ الطريقُ يميلُ صاعدًا نحو التلال. ضغطتِ الغيومُ الهابطةُ من السماءِ فحجبتْ أىَّ أثرٍ للزُّرْقةِ وجعلت اتِّجاهَ الشمسِ غامضًا وغيرَ واضحٍ. امتلأ الهواءُ بقطراتٍ صغيرةٍ منَ المطرِ تسربتْ إلى داخلِ السيارَةِ ولطمتْ وَجْنـــةِ كلير لتنسابَ على وجهها برقَّةٍ وبطءٍ كالدموع.

تمتمتْ كلير بصوتٍ رقيقٍ: "أُريُد أن أجدَ لنفسى بركةً وأتمدَّد فيها"، ابتعد ذو البطن النارىِّ عن حقيبتها. ونظر إلى جانبِ وجه كلير الأملس وتساءل: بركة؟ ما الذى يجعلُ كائنًا من البشر راغبًا فى بركةٍ؟

نظرتْ إلى «باتونن» وقالت: "هل تريدُ أن تأتىَ معى؟ أريدُ

Twitter: @alqareah

أن يسحَبنى الطينُ ويشدَّنى إلى داخلِ البركةِ. يُغلِّفنِى إلى أن أصبحَ جزءًا منه... أريدُ أن أذهبَ إلى هناك وأبقى... أريدُ أن أمتصَّ إلى داخلها مثلما يتخلَّل الماءُ داخلَ الإسفنج". تحشرجَ صوتُها وتلعثمتْ كلماتُها.

اقتربَ ذو البطنِ النارىِّ أكثرَ بمقدارِ بوصةٍ إلى أن أصبحَ جسمُه كُلُّه مكشوفًا. كان ما سمعه شيئًا مثيرًا للفضولِ، خاصَّةً، أنه صادرٌ من إنسانٍ، ماذا يعنى لها هذا؟ هل تريدُ أن تصبحَ بريَّةً أيضًا؟

قالت: "تعالَ معى يا «باتونن». سنجلسُ فى رَشْحِ الأرضِ". ثم صَمتتْ تمامًا. وبدأتْ يداها ترتعشانِ على مقودِ السيارةِ.

أراد ذو البطن النارى أن يعطيَها فكرةً عن الحياةِ فى البركةِ، أن ينبِّهَها بأنه لا يمكنُ للإنسان الاختباءُ فى داخلها، كما أنه لن يستطيعَ السباحةَ والبقاءَ فى الماءِ طَوالَ النهار، ولا أن يحفرَ جحرًا تحتَ الوحلِ أو أن يختبئَ داخلَ الحشائش. هذا ما تفعلُه الضفادعُ؛ لا البشرُ.

وضعتْ يدَها فى الحقيبةِ وأخذتْ تتلمَّسُ باحثةً عن قطعةٍ أخرى من «الدُّونات» وصرختْ هاتفةً: "اللعنة، لم يبقَ شىءٌ منها. أنا بحاجةٍ إلى المزيدِ. سأتوقَّفُ للمرةِ الأخيرةِ. هذا كل ما سأفعلُه".

Twitter: @alqareah

تسلَّقَ ذو البطن النارى إلى الإفريزِ تحت النافذة المفتوحة. شاهد كلير وهى تسيرُ باتجاهِ محلٍّ صغيرٍ على البُعْدِ. كان رأسُها يميلُ إلى أسفلَ مدفوعًا ضد قوة الرياح، وكانتِ الأشجارُ تتأرجحُ وراءَ المبنَى تحتَ السماءِ المُعْتمة. كانت هناك شُجَيْراتٌ كثيفةٌ لم يكتملْ نُمُوُّها بَعْدُ وعُشْبٌ أخضرُ زَيْتونِيٌّ يومئُ لذى البطن النارىِّ، يجذبهُ إليه ويغريه بأنه سيحميه. ما هى إلا سلسلةٌ من القفزاتِ الطويلةِ والسريعةِ سيصبح بعدها على حافةِ الطريقِ الإسفلتى ليبدأ حياةً جديدةً.

أحس بلدغةِ الوجود فى الخارجِ حين سَلَختْ جِلْدَه ذرَّاتٌ صغيرةٌ من الرمال التى عصفتْ بها الريحُ. تطلَّعَ نحوَ الأرضِ المنبسطة والقاسية تحت السيارة، ربما، ستكونُ القفزةُ الأولى غيرَ متوازنةٍ، ولكنه اعتادَ على أن يَهْوِى فى كُلِّ مكانٍ ويرتطم. باستطاعته أن يُصْلِحَ من وضعهِ سريعًا ويتابع مسيرته. أحسَّ بقدميه الخلفيتين وكأنَّ رباطًا مطاطيًّا رفيعًا يوترهما. حَرَّك جسدَه إلى أعلى والى أسفل عِدَّةَ مَرَّاتٍ ليُلَيِّنَ عضلاته المتوتِّرةَ، محاولًا أن يستمرَّ فى القيام بما عَزَم عليه.

آن الأوانُ. ربض منحنيًا وتحضَّر للقفزِ. وعدَّ: واحد، اثنان... ست قفزاتٍ كبيرةٍ وطويلةٍ وسيصبح بعدها بين الأشجار حُرًّا وبَرِّيًّا. ألقى نظرةً خاطفةً نحو «باتونز» وتوقَّفَ... ذكَّره بفتاةٍ صغيرةٍ أصبحتِ الآن فى غياهب الذكرى. تطلَّع ثانيةً نحو أرض

Twitter: @alqareah

الشارع. قفزةٌ واحدةٌ وسيصبحُ فى الخارجِ، خارج السيارة، بشكلٍ دائمٍ. لا مجالَ بعدها للعودةِ. أخذ لمحةً أخيرةً مقتضبةً إلى الحيوانِ المَحْشُوِّ بالقطنِ؛ بدا شكلُه مألوفًا. هل ثمة شيءٌ آخرُ وراءَ الزَّغبِ والفراءِ؟ لا يستطيعُ إلَّا أن يُشبعَ فُضُولَهَ. من الممكن أن تنتظرَ القفزةُ لحظةً أخرَى.

زحف نحو لوحة السيارة واقترب من «باتونز» بمنتهى الحرص. جلس بالقرب منه مترددًا. يكاد يتوقعُ أنه سيتحرَّك. كلماتُ كلير إليه جعلته يبدو حقيقيًّا بالفعلِ. إلَّا أنه كانت تنبعثُ منه رائحةٌ تُنْبِئُ عن قِدَمِه. كانت عيناه جامدتيْن كالزجاج. مدَّ قدمه الناقصة ولمس فروته الباردة والمتيبسة. لم يكن ثَمَّةَ ما يشيرُ أنه حَىٌّ. لن يفهمَ الدُّبُّ كلير أبدًا ولن يساعدَها أو يقدمَ لها أَيَّة نصيحةٍ. لن يحدِّثَها عن مغامراته أو يوازن لها القرارات الصعبة. كل ما يمكنُه فعلُه هو الجلوسُ فى مكانه راكدًا وهامدًا.

«طَاخْ!». سمع ذو البطنِ النارىِّ صوتَ بابِ المحلِّ وهو يُقفَلُ بقوةِ لفحةِ ريحٍ عاتيةٍ. التفتَ وراقب كلير وهى تخرج منه. كانت تقبضُ متشبثةً بكيسٍ من الورقِ كما لو أنه يحتوى على شيءٍ فى غايةِ الأهميةِ. ارتفع صوت الرياح وهى تُزَمجِرُ وتُصفِّرُ وكأنها أصواتٌ صادرةٌ من البرارى. كانتِ الأشجارُ تتأرجحُ مثل أيادٍ تدعوه وتشير إليه أن يقترب. ابتعد عن الدُّبِّ

Twitter: @alqareah

وزحفَ بسرعةٍ نحو الإفريز أسفلَ النافذةِ المفتوحةِ. كانتِ الطبيعةُ تناديه وتدعوه. تَعِدُه بالبريةِ والمغامرةِ، تغويه بإمكاناتهما فى منحه الإحساسَ بالعظمةِ والفخامةِ والنجاحِ. بَدَتِ الأشجارُ أكثر قربًا مما كانت عليه منذ لحظةٍ سابقةٍ. قفزةٌ واحدةٌ وعددٌ من الوثباتِ وسيكونُ هناك.

تطلَّع إلى كلير والريحُ تعصفُ وتضربُ ظهرَها. تدفعُ شعرها ليغطى وجهها. كانت تبدو مثل شيءٍ غامضٍ لا وجهةَ له يتحرَّكُ ضِدَّ قوةٍ قاهرةٍ. كانت تبدو وحيدةً جدًّا وبعيدةً كُلَّ البعد. لا يعلمُ أحدٌ ماذا تفعل وبماذا تفكر، وما الذى يجرى لها فى داخلِ السيارةِ. لن يفيدَها فى شيءٍ التهامُها لقطعةٍ أخرَى منَ «الدُّونَات».

لمستْ كلير البابَ ورفعتِ المقبضَ. توتَّرَ ذو البطن النارى وشد أقدامه وتحضَّر متحفزًا، ثم وَثَبَ مُتَحررًا من التوتُّرِ فى قفزةٍ مفاجئةٍ. أحسَّ بلفحةِ ريحٍ خفيفةٍ على ظهره حينما حطَّ... داخل السيارة. أعاد توازنه بسرعة وانطلق مسرعًا ليختفىَ تحت حقيبةِ يدِها.

جلستْ كلير فى السيارةِ، وقد أرخت كتفيْها ووضعتْ يَدَيْها على جانبَى رِجْلَيْها. أنزلتْ رأسَها وضغطتْ به على مِقْوَدِ السيارةِ وتمتمتْ من بين يديها: "ماذا سأفعلُ؟ وأين سأذهبُ؟" تطلَّعتْ نحو «باتونن» وأغمضتْ عينيها، وقالتْ: "ماذا كنتُ أنا

Twitter: @alqareah

قبل أن تكونَ أنتَ دُبًّا؟ كنتَ أنتَ قُطْنًا وقُمَاشًا، ولكن أنا، ماذا كنتُ؟"

هزتْ رأسها وقادتِ السيارةَ من جديدٍ باتجاهِ الطريقِ العُلْويِّ السريعِ.

Twitter: @alqareah

13

أحيانًا نتردَّدُ على حافَّةِ اللحظةِ لفترةٍ أطولَ مما يجبُ. تأتي الفرصةُ إلينا، تمرُّ من أمامنا مثلَ ورقةِ نباتٍ طافيةٍ يحملُها نهرٌ سريعٌ. نقفُ على الضِّفَّةِ وليس أمامنا سوى فرصةٍ واحدةٍ للإمساكِ بالورقةِ. نتدربُ على ضبطِ الوقتِ. نضرب بأطرافنا ضرباتٍ سريعةٍ وخفيفةٍ. نتشبَّثُ بسطحِ الماءِ حيث نتخيَّلُ أن الورقةَ ستمرُّ. نعيدُ ونكرِّرُ هذه الأفعالَ مرةً، بعد مرةٍ. ربما يومًا بعد يوم إلى أن نصبحَ واثقين من مهارتنا. ومن ثَمَّ، حين تظهرُ ورقةُ النباتِ، إن أضعنا الفرصةَ بالتردُّدِ ومحاولةِ التأمُّلِ فيما تعنيه للحظةِ أطولَ مما يلزمُ، أو إذا ما انتابنا القلقُ بأن أقدامنا قد تنزلقُ على حافَّةِ النهرِ... فالفرصةُ تمضي دُونَ عودةٍ.

"لستُ واثقةً أين سأذهبُ". كان صوت كلير منبسطًا

Twitter: @alqareah

طبيعيًّا ولا يبدو عليه أيُّ تأثُّرٍ، واستطردتْ: "فخوفى مما تركته ورائى أكبر من خوفى مما سألقاهُ أمامى. لم يَعُدْ هناك أيُّ مجالٍ للعودةِ". ثم تطلَّعتْ نحوَ الحيوانِ المَحْشُوِّ المَرْمىِّ على لوحةِ القياسِ.

"ما الذى يمكننى أن أقوله؟ يااااه، لقد نسيتُ، لم يكن من المفروض أن آخذ السيارةَ؟ هذا سُيشعل ويزيد من غضب والدىَّ. سيكون ثَمَّةَ غرامةٌ كبيرةٌ علىَّ تحمُّلها. على الأرجحِ سأذهبُ إلى السجنِ. سيُطلبُ منى الإجابةُ عن ألفِ سؤالٍ وسؤال. لن أعودَ. لن أفعلَ هذا. لن أرضى بفعلِ أىِّ شىءٍ من هذا القَبيل. سأستمرُّ فى قيادةِ السيارةِ إلى أن يَنْفَدَ كلُّ ما معى من مالٍ ووقودٍ. بعدئذٍ سأبدأ فى السير إلى أن أجدَ بركةً. سأتمدَّدُ فوق الوحل وأتحلَّلُ، تحت الأمطار التى ستضربنى بعنفٍ والشمس التى ستجفِّفُنى مثل كتابٍ مَنْسىٍّ ومَرْمىٍّ على قارعَةِ الطريقِ".

تضخَّمتْ قطراتُ الأمطارِ وأخذتْ تضربُ سقفَ السيارةِ كما لو أنها ملايين من الجراد يقفز على قطعةٍ من الصفيحِ. أقفلتْ كلير النافذةَ، أرادتْ أن تغلِّف أفكارَها وتقفلَ عليها بإحكام شديدٍ داخل قوقعتِها المعدنيَّةِ. تغلغلَ صوتُ الرَّعْدِ فى داخلى؛ ليس فقط من خلال أذُنىَّ، بل من خلال جسمى كُلِّه. انتشر شَلَّال المطر فوق الزجاج الأماميِّ للسيارةِ كما لو

Twitter: @alqareah

أنه مُلاَءةٌ مائيةٌ تغطى جسدًا غارقًا، وهو ينزلق غاطسًا تحت الماء. رفعت كلير من سرعةِ ماسحات المطر التى أتاحت لوهلةٍ قصيرةٍ مجالًا للرؤيةِ. من حينٍ إلى آخر، كان يقتحمُ صوتَ ضجيجِ المطرِ انطلاقُ بُوقٍ على البُعْدِ ثم يتلاشى مختفيًا.

لم أَعُدْ، بعد الآن، مشاهدًا أستعرضُ الأحداثَ من داخلِ حوضٍ زُجاجيٍّ. أصبحتُ مثلَ قطعةٍ من الإسفنجِ أمتصُّ كُلَّ ما يجرى فى هذه السيارةِ. أصبحتُ مثل الصُّنْبورِ أتدفَّقُ بغزارةٍ وأشاركُ بما لدىَّ من قدرةٍ على الفهمِ.

أغمضتُ عينىّ وتخيَّلتُ كلير تقودُ السيارةَ متجهةً نحوَ سماءٍ غارقةٍ بالماءِ. تصوَّرْتُها وقد أصبحتْ ضفدعةً بأربعِ أقدامٍ ذات وتراتٍ كأقدام الإوزِّ وعينيْن ناتئتيْن كعيون الضفادع. تَتبَّعتُها أسبحُ خلفها. بدأتْ تسبحُ داخلَ بركةٍ واسعةٍ تسترشدُ بنورِ غروب الشمس الخافت. كُلُّ حركةٍ تحاكى التى سبقتَها: تندفعُ–تنزلقُ، تندفعُ–تنزلقُ، تندفعُ–تنزلقُ، إلى ما لا نهاية، باتِّساقٍ ورتابةٍ.

غَربتِ الشمسُ وتاهت كلير. اتجهت إلى اليسارِ ثم إلى اليمينِ، بعدئذٍ إلى أعلى نحو السطح ثم إلى أسفلَ نحو الأعماق.

فجأةً، ظهرَ شىءٌ قاتمٌ على البعدِ، ما لبثَ أن بدأ يتضخَّم أكثرَ وأكثرَ. يبرز من فمه الواسع أسنانٌ حادَّةٌ. كان يتقدم

Twitter: @alqareah

باتِّجاهنا وهى تسبحُ نحوه، نحو فَجْوةِ فَكٍّ مفترسٍ. انْغلق الفمُ واختفت فى داخله. سبحتُ مبتعدًا عنهما.

فتحت عينىَّ وتطلعتُ إليها. كانت تعبيراتُها الجوفاءُ الخاليةُ من أىِّ انفعالٍ قد عَلَتْ وجهها مرةً أخرى. لم تكن مهتمةً بكُلٍّ ما يجرى حولها. عليها أن تبحثَ عن مَأْوَى. مكان للاختباءِ إلى أن تنزاحَ العاصفةُ ثم بعدها يمكنُنا مواصلةُ السير. ولكن لا الغيومُ ولا المطرُ ولا الظلامُ أعاقتها لترتدعَ وتتراجعَ عن مُخطَّطِها. كانت تقودُ السيارةَ إلى الأمامِ غافلةً وغيرَ مهتمةٍ بالجوِ.

أغمضتُ عينىَّ وتَخيَّلتُ نفسى أخرجُ من مخبئى وأربتُ على كتفِ كلير وأقول لها: "خَفِّفى السرعةَ. أوقفى السيارةَ. انتظرى حتى تنقشعَ العاصفةُ ويصفو الجَوُّ. امنحيه، فقط، بعض الوقت. ما من سببٍ يدعوكِ للاستمرارِ فى القيادةِ بهذا التهوُّرِ، وأنتِ وحيدةٌ؛ ما من شخصٍ أو شىءٍ تسترشدينَ به إلى الطريقِ الصحيحِ".

فتحتُ عينىَّ وتطلعتُ إليها. من الذى سيقولُ لها هذه الكلماتِ البسيطةَ؟ من الذى سيخبرُها بأن هناك فى العالمِ أشياءَ أهمَّ من التى تراها الآن؟ لستُ سوى ضفدعٍ صغيرٍ بقدمٍ ناقصةٍ فى الأمامِ وقدمٍ ناقصةٍ فى الخلفِ. لا أستطيعُ أن أتحدَّثَ بأسلوبٍ يمكنُها فَهْمُه. ثَمَّةَ هُوَّةٌ تفصلنا واختلافٌ

Twitter: @alqareah

كبيرٌ بيننا. هناك فراغٌ واسعٌ جدًّا بين هذه الإنسانة الصغيرة، الكبيرة الحجم المرتبكة والمُشوَّشة، وبين هذا الكائن الصغير البرمائيِّ الغريب الشكل الذى هو أنا.

تحركتُ حول المقعد وضربتُ بقدميَّ فوق الجلد الأحمر. كنتُ أريدُها أن تسمعَنِى. فتحتُ فَمِى وأطلقتُ نقيقًا وآخر ثم آخر. ولكنها لم تتطلَّعْ نحوى. كانت أصواتى مكتومةً تغطيها ضَجَّةُ ذبذباتِ انهمارِ المَطَرِ الغزيرِ. لم يكن بإمكانُها أن تسمعَ إلَّا نفسها.

حانَ الوقتُ. هذه هى لحظتى للاختيارِ. ما سأقومُ به الآنَ سيخلُقُ منِّى ما سأكونُ عليه. فهو ليس بالقرارِ الذى لن يعقُبَه تداعياتٌ، كما أنه ليس بالقرارِ غيرِ المُهِمِّ، فهو ليس كقرار أيَّة جرادةٍ سآكل أو على أيَّة ورقةٍ من أوراقِ زَنْبقِ الماء سأنامُ، أو فى أىِّ مكانٍ سأختبئُ. فلو لم أستطعم مذاقَ الجرادةِ سأبصُقُها من فمى. إن لم أسترحْ على ورقةِ الزَّنْبقِ سأبحث عن أخرى. إذا لم يعجبنى مكانُ الاختباء سأتحرك نحو غيره. هذا النوعُ من القراراتِ يجعلنى مشغولًا ومُتسلِّيًا، مفتونًا وراضيًا. ولكن هذا القرار المهم سيحوِّلنى. لن أبقى الضفدعَ القديمَ الذى كنتُ عليه. لن يتبدَّلَ لونى ولن يتغيَّرَ شكلى. سأبقى كما أنا ضفدعًا بقدمين ناقصتين. سأبقى كما أنا أقفزُ من مكانٍ إلى آخر أبحثُ عن زوايا منعزلةٍ وكُوَّةٍ لأختبئَ داخلها. سأظل على عهدى

Twitter: @alqareah

ألعبُ لعبةَ حركة الجرادة وقفزة الضفدع. ولكن لو تطلَّعتَ إلىَّ بتمعنٍ كافٍ، وبأسلوبٍ غير مباشرٍ، سترى أننى بدَّلتُ جلدىَ القديمَ.

ليس ثَمَّة أىُّ سببٍ أو منطقٍ لِمَا أنا عازمٌ على فعله - ولكننى سأفعلُه. ربما سترمينى إلى أرضِ السيارةِ وتدهسُنى بقدمها. ربما ستمسكُنِى فى يدها وتعصرُنى حتَّى أَنْفُقَ وأموتَ، ربما ستقذفُنى من النافذةِ نحو الطريقِ العُلْوِىِّ السريع. أو أسوأ من كُلِّ هذا - ربما، لن تكترثَ ولن تبالىَ. كما لو أننى لم أفعلْ شيئًا.

سأقومُ بما عزمتُ عليه عن إيمانٍ، وليس كَرَدِّ فِعْلٍ. سأفعلُ ما يفعله الضفادعُ دائمًا، فى كُلِّ مكانٍ، سأقفزُ وأثبُ من أعلى، من خلالِ السماء. سأقومُ بأكبرِ قفزةٍ قفزتُها طوالَ حياتى... سأتجرَّعُ مِلْءَ فمى جرعةً من الهواءِ ليتوسَّعَ جسمى وينتفخ. سأحتفظ برأسى صلبًا وقويًّا، وبظهرى مستقيمًا ومشدودًا وبقرارى ثابتًا لا يتزعزع. سأحطُّ فوق رجليْها مثلَ هديةٍ لا تتوقَّعُها.

انحنيتُ إلى الأمام. ثبَّتُّ قدمى الخلفية وقدمى المبتورةَ فوقَ دَرْزَةٍ على نسيجِ مقعد السيارة. كانت قوائمى محنيَّةً بشدَّةٍ ومتقلصةً وعضلاتى متوترةً مشدودةً ومستعدةً للاندفاعةِ الأخيرةِ. هيأتُ نفسى، تخيَّلتُ أننى أطيرُ ثم أدورُ، أطير ثم أدور

Twitter: @alqareah

فى دَوَّامةٍ من الهواءِ. يعلو البطنُ الناريُّ ويهبطُ من السماءِ مثل شروقِ الشمس وغُرُوبِها.

والآنَ ها أنذا أنطلقُ: الاندفاعُ، الهجومُ، القفزةُ. ها أنذا أندفعُ إلى أعلى وأعلى ثم أعلى، نحو الهواء وأطيرُ عاليًا. أعلى مما كنت أتخيَّلُ. وها أنذا أدور وأدور فى دوامةٍ؛ إلى أن أصابنى الدُّوَار. كانت قدماى الأماميتان تنزاحان إلى الخلف تضغطان جسدى بشدة، وقدماى الخلفيتان تمتدان لأقصى درجةٍ. كان جسدى ينسابُ منبسطًا كشكل الحَيَّةِ الأملسِ المصقول. اخترقتُ الهواءَ مثل انقضاضِ الصقرِ. استدرتُ نصفَ دَوْرةٍ أحلِّقُ عاليًا باتجاهِ الغُيوم وعاليًا باتجاهِ وجه كلير. كنتُ ألمعُ، أبرقُ وأشعُّ... ونعم، بالتأكيد، كنتُ مخيفًا ومرعبًا. أبعدتْ كلير نظرَها عن واجهةِ السيارةِ الزجاجيةِ وحدَّقَتْ، لا تُصدِّقُ ما ترى. شاهدتْ الاحمرارَ الناريِّ يُحلِّقُ حولها. ارتفع حاجباها واتسعتْ عيناها وسقط فَكُّها من فَرْطِ الدَّهْشةِ. صرختُ بينى وبينَ نفسى وأنا أحطُّ على حِجْرِها.

انتبهى، لاحظى قُوَّةَ ذِى البطنِ النَّارِىِّ!!!

Twitter: @alqareah

14

"ابتعدى عنى أيتها الحشرةُ القذرةُ!". أخفضتْ كلير بصرَها وتطلَّعتْ إلى ذى البطن النارىِّ الذى يتمدَّدُ جامدًا، صلبًا، بلا حركةٍ فى حِجْرِها، مثل لُطْخةٍ مُقزِّزَةٍ من الصِّبْغةِ الحمراءِ. قطبَّتْ وجهها مشمئزةً وقوَّست حاجبَيْها وعصرتْ وجهها بتعبيرٍ مُتوتِّرٍ تختلطُ فيه المفاجأةُ بالارتباكِ. غطَّتْ فمَها وهى تأخذُ نفسًا مترددًا تحاولُ أن تُبْعد أيَّة رائحة بغيضة.

صرَختْ: "شىءٌ مُقزِّزا"

تراجعتْ برأسها وقلبت كَفَّها للخارجِ ضاغطةً مفاصلَ أصابعها على شفتيها وأنفها. ببطءٍ أخفضتْ يدَها وشدَّتْ ذراعها وقلَّصتْ عضلاتها كما لو أن ذا البطن الأحمر حشرةٌ تريدُ أن تقضِىَ عليها.

Twitter: @alqareah

سُمع، فجأة، صوتٌ صاخبٌ لمكابحِ عجلاتِ سيارةٍ قريبةٍ. تشبثتْ كلير بسرعةٍ بالمِقْوَدِ وانحرفتِ السيارةُ فجأةً بشكلٍ خطرٍ. وقع باتونز من أعلى لوحة السيارة إلى الأرض. أجبرت كلير نفسها للنظر ثانيةً إلى الطريقِ وهى ترتجف.

تساءلتْ متعجبةً، لا بد أن هذا مجرد حُلْم. فقد شربتُ الكثير من القهوةِ وأكلتُ الكثيرَ من «الدُّوناتس» ولم أنم إلَّا قليلًا. لا يوجد شيءٌ على حِجْرِى. ليس هناك شيءٌ لَزِجٌ ومثيرٌ للاشمئزازِ. ربما أننى، من شدةِ التعبِ، بدأتُ أتخيلُ أشياءَ غريبةً. ربما ما رأيتُه ليس سوى قطعةٍ من الورقِ الأحمر اللامع. هذا كُلُّ ما فى الأمر. لا بد أن أحدًا ترك مجلةً أو كيسًا من الورقِ والذى تمزقَ لسببٍ ما؛ وبشكلٍ ما بقيتْ هذه القطعةُ فى السيارةِ ثم جاءتْ لفحةُ هواءٍ وحملتها من الركنِ الذى كانت فيه رفعتْهَا إلى أعلى وأسقطتْهَا فى حِجْرِى. هذا كلُّ ما فى الأمرِ. ليستْ سوى قطعةٍ من الورقِ.

تطلعتْ كلير داخلَ السيارةِ تبحثُ فوق المقاعدِ وعلى الأرضِ. تلفُّ بعينيها فى كل ما يحيطها. تميل بجسدها جيئةً وذهابًا. تبحثُ عن جوابٍ أو تفسيرٍ؛ أثرٍ لشىءٍ مُمزَّقٍ أو مقطوع.

لاحظتْ أن «باتونز» يستلقى على جنبه مثل لُعْبَةٍ مَرْمِيَّةٍ ومنبوذةٍ. كان قريبًا لقلبها لأنه يرتبط بطفولتها.

Twitter: @alqareah

ذكرى لحياتها كطفلة، حين كان من الممكن العثورُ على حَلٍّ لكلِّ مشكلةٍ، حين كان من الممكن أن يلتئمَ الجُرحُ بِضَمَّةٍ وضمادةٍ، حين كان من الممكن الإجابةُ عن سؤالٍ معقدٍ بكلماتٍ بسيطةٍ، حين كان «رَافْلِسْ» يرحبُ بحضورها بحماسٍ راسخٍ لا يتزعزع؛ هازًّا ذيلَه وعارضًا كُلَّ الدفء والترحيب.

أرادتْ كلير أن تلتقطَ باتونز وتتحدث إليه، وتسألَه ما العملُ. أرادتْ أن يكونَ «باتونز» صديقَها وأن يساعدَها فى محنتها، ويخبرَها عمَّا حدث، وما هذا الشيءُ الغريبُ الذى يستقرُّ على حِجْرِها. ترقرقتْ دمعةٌ على وجنتها. ولَّى زمنُ الاعتقاد بأن لُعَبها المحشُوَّةَ أصدقاءُ يشاركونها حفلاتِ الشاى الوهميَّةَ. باتونز ليس إلا لُعْبةً محشوة. فمع كلبها دفنت، أيضًا، جزءًا من طفولتها.

أعادتْ كلير النظرَ إلى الطريق وهى تتنهَّدُ بعمقٍ. تطلَّعتْ إلى أسفلَ نحو حجرها، تحدق بنظرةٍ سريعةٍ، إلى الانتفاخِ الأحمر المتألق من اللحمِ. رفعتْ نظرها بسرعةٍ إلى أعلى. ارتجفتْ يداها كما لو أنها تُمسكُ بعمودٍ من الصخرِ المتفتت.

كانتِ السياراتُ تتخطَّاها مسرعةً تلطِّخُ النوافذَ بشرائطَ من الماءِ الموحل القذر. كان مَنْ يقودون السياراتِ يطلقون أبواقَ سياراتهم إلى أن تتلاشى الضجَّةُ المزعجةُ على البُعْدِ. بدا الطريقُ مثلَ نَفَقٍ رَمَادِىٍّ غامتْ علاماتُ الدخول والخروج

Twitter: @alqareah

عليه بضبابٍ كثيفٍ قاتمٍ. أمطارٌ غزيرةٌ ضربتِ السيارةَ بعنفٍ شديدٍ مصحوبةً بقصفِ رعدٍ أبيضَ صاعقٍ يُغلِّفها مثل غلافٍ يحيط بيَرقَةٍ؛ يعصرها إلى الداخلِ، يُحرضها على الانسلاخِ للخروجِ للعالم أو على الهلاكِ.

ترقرقتْ دمعةٌ أخرى على وجنةِ كلير. تطلعتْ إلى الطريقِ بانتباهٍ أكبرَ. استرختْ كتفاها واستقام ظهرُها وأصبحت جِلْستُها أكثر توازنًا. نظرتْ نظرةً خاطفةً إلى حِجْرِها وتساءلت بصوتٍ مُنْهكٍ ونبرةٍ لا تحملُ أيَّ انفعالٍ. أمالتْ رأسها قليلًا إلى الأمام ثم نحو حِجْرِها. بادرتني بفضولٍ بسيطٍ وتعجبٍ. تساءلتْ: "ماذا تكونُ؟"

لم يتحرك ذو البطن الناريّ. ظل ساكنًا. لن ينسحبَ أو يَجْفُلَ هاربًا. لن يسمحَ لكلماتِها أن تؤثِّرَ على قراره. ها هو ذا يجابهُها بجوهرِه، بحقيقةِ ما هو عليه - بريقٍ مُشعٍّ من جلدٍ ملطخٍ ببقعِ الشمس. إنه المجهولُ، الغامضُ، غير المتوقَّع. من ناحيته، كان قد اتَّخذَ قرارَه، والآن على كلير أن تختارَ.

انقلبَ ذو البطن الناري على بطنه ثم جثمَ على قوائمه ليبدوَ على شكلِ ضفدعٍ عاديٍّ يحدِّقُ متطلِّعًا إلى كلير. طرفَ بعينيه عِدَّةَ مراتٍ وأطلق نقيقًا خفيفًا.

Twitter: @alqareah

نظرتْ كلير إلى حِجْرِها وتساءلتْ: "ضفدعٌ؟ هذا مستحيلٌ. والآنَ انقلبَ لونُك إلى الأخضر. ماذا تكونُ؟ هل أنت حرباء؟"

ضحك ذو البطنِ الأحمرِ بينه وبين نفسه.

تمتمت كلير: "ضفدع... ضفدع". يجبُ أن أُوقِفَ السيارةَ. كانتْ نغمةُ صوتِها ناعمةً تبعثُ على الطُّمأنينة.

توقفتْ على جانبِ الطريقِ. انسابَ عن جبينِها وعن خَدَّيْها الشاحبتيْنِ قطراتٌ من العَرَقِ. كانت لا تزالُ ترتجفُ. نظرتْ إلى الأمام تحدِّق من خلال الزجاج، تراقبُ السياراتِ وهى تنطلقُ مسرعةً كما لو أنها تتَّجهُ بلا هدفٍ نحو وجهةٍ غير معلومةٍ. مدَّت يدَها نحوَ لوحةِ أجهزةِ القياسِ وأشعلتِ الأنوارَ الأماميَّةَ للسيارةِ.

تطلَّعتْ ثانيةً إلى ذى البطن النارىِّ وقالتْ له: "لم تعدْ الآن مُخيفًا كما كنتَ. فأنتَ الآن، أقربُ لضفدعٍ. ربما أنك ضفدعٌ بالفعل. ضفدعٌ مُميَّزٌ. هذا لا ريبَ فيه، خاصَّةً فى هذه المنْطقةِ. أنا لا أخافُ من الضفادعِ. قد تثيرُ لدىَّ الفضولَ والارتباكَ ولكن ليس الخوف. كل ما فى الأمر أنك فاجأتنى. هل تعلم؟ حين كنتُ صغيرةً كان لدىَّ ضفدعٌ أليفٌ".

تفحَّصتْ كلير السيارةَ من الداخلِ والنوافذ وتساءلتْ: "كيف دخلتَ إلى السيارةِ؟ هل قفزتَ من خلالِ النافذة أم دخلتَ حين توقَّفتُ وفتحتُ الباب؟ يا لها من قفزةٍ كبيرةٍ...

Twitter: @alqareah

يا لها من قصةٍ من الممكن أن تحكيَها لي!!!"

التفتتْ ثانيةً نحو ذي البطن الناريِّ وتطلَّعتْ إليه بدقةٍ وهي تحرِّكُ رأسَها من جانبٍ إلى الآخر تتفحَّصُ الراكبَ غير المنتظَرِ، ثم قالت: "لديك قدمان فقط! قدمان فقط! هذا شيءٌ غريبٌ. غير عاديٍّ. لا يُصدَّق. من أينَ جئتَ؟ كم مضى عليك وأنتَ في السيارة؟"

أحنتْ رأسها قريبًا من ذي البطن الناري وتفحَّصتْ نوعَ ولونَ جلده. وقالت: "لا أعلمُ من أين جئتَ. وبلا ريبَ لا علمَ لي أيضًا إلى أين أنت ذاهبٌ، ولكنَّني لن أستطيعَ أن أتخلَّى عنك هنا. لن أتركَك في وسط الطريق العلويِّ السريع بعيدًا عن أيِّ مكانٍ كنتَ تُقيمُ فيه. هل أنت جائعٌ أو عطشانُ؟".

طرف ذو البطن الناريِّ بعينيه ببطءٍ. كان قد نسي جوعه. انفتحتْ شهيتُه الآن لشيءٍ آخرَ غير الطعام.

"أشكُّ في أنك ستتمكَّنُ من الإجابةِ عن أسئلتي. ولكني أعلم تمامًا أن عليَّ أن أحضرَ لك بعضَ الماء والطعام، وأن أجدَ لك مكانًا مريحًا لتقيمَ فيه. كما أنك أيضًا ظريفٌ ولطيفٌ".

غمرتْ ذا البطنِ الناريِّ أحاسيسُ ومشاعرُ دافئةٌ ومألوفةٌ. أراحتْ كلير ظهر يدها في حِجْرِها. زحف ذو البطن الناري نحو كَفِّها وجلس ساكنًا. ساكنًا تمامًا. أحاطت جسمه بيديها

Twitter: @alqareah

ثم رفعته وحملته قريبًا من وجهها. ما إن التقتْ نظراتُهما، حتَّى توحَّدتْ أفكارُهما. كان كلاهما يتعجَّبُ متسائلًا ما الذى جمعَ بين هذيْن الكائنيْن الغامضيْن فى مثلِ هذا العالم المُتَّسعِ والمثيرِ للدهشةِ والارتباكِ. قرَّبته من وجهها وقبَّلَتْه ثم أبعدتْهُ بلُطْفٍ.

أعادتْ كلير ذا البطن النارى إلى حِجرها، وهى تقول: "اجلسْ ها هنا ولا تتحرَّكْ. سأساعدُك". شغَّلت محرِّك السيارةِ ثم تطلَّعتْ إلى كلا الاتجاهين ومضت مبتعدةً عن العاصفةِ.

Twitter: @alqareah

15

أشارتْ كلير بقلقٍ وتوترٍ إلى سيارةِ الشرطةِ التى كانت تقفُ على الممَرِّ أمامَ منزل والدها وقالتْ لصديقها الجديدِ: "انظر، هاهم قد جاؤوا ليبحثوا عنَّا. إذا تَمَّ القبضُ عليَّ سنذهبُ معًا إلى السجنِ وستُساعدنى على الهروبِ". ظهرتِ ابتسامةٌ لطيفةٌ على وجهها الشاحبِ. رفعتِ الضفدعَ الصغيرَ عن حضنها ووضعتْهُ بحرصٍ فوقَ لوحةِ القياسِ فى السيارةِ.

تلفَّتَ ذو البطن النارى حولَه ينقلُ نظراته ما بين كلير وأشكالِ الناسِ فى داخلِ المنزلِ. لم يكن واثقًا ممَّا يحدث. ولكن بالنسبة له، ما سيفعله كان يبدو واضحًا جَليًّا.

توقفتِ الأشكالُ فجأةً عن الحركةِ، وشكَّلتْ صَفًّا من الوجوهِ الضاغطةِ على زجاجِ النافذةِ تتطلَّع إلى الخارج نحوَ السيارةِ. أخيرًا فُتح البابُ الأماميُّ للمنزلِ. وَضَحتِ الظلالُ

Twitter: @alqareah

ببطءٍ كمجموعةٍ منظمةٍ منَ الناسِ. كانوا يتقدمون بحرصٍ من المدخلِ الرئيسي للمنزلِ نحو الممر الخارجيّ.

مدّتْ كلير يديها إلى ذي البطن الناري ليزحفَ نحو كفيْها الدافئتين والرطبتين، وقالتْ له: "عليك أنت أن تقومَ بشرح وتفسير كُلِّ شيءٍ". ابتسمتِ ابتسامةً عريضةً ثم ضَحِكتْ ضَحِكةً خافتةً وهي تخرجُ من السيارةِ. دفعتِ البابَ بنعلِ حذائها وأقفلته. توقَّفَ الحشدُ في وسطِ المدخلِ الرئيسي وانتظر تاركًا مدًى واسعًا بينه وبين السيارة الحمراء.

ناداها والدها قائلًا: "هل أنتِ على ما يُرام يا كلير؟"

توقفتْ فوقَ الرصيف وتطلَّعتْ إلى التعبيراتِ المختلفةِ التي ارتسمتْ على كُلِّ وجهٍ من الوجوهِ. وقف والداها جنبًا إلى جنبٍ ينظران إليها بارتباكٍ وقلقٍ. ووقف على الجانب الآخر رجلان من رجالِ البوليس بزيِّهما المُوحَّد الأزرق بأذرعٍ مضمومةٍ وحواجبَ عابسةٍ، كما وقف زوجان من الجيران يحدِّقانِ بفضولٍ واستغرابٍ.

في خلفية هذا التجمهر الغريب وقف السيد ليڤانت وقد أضاء وجهَه انعكاسُ نورِ شمسِ الأصيلِ عليه.

أحاطتْ كلير ذا البطن الناري بكفيها بإحكام. رفعتْ ساعديْها إلى أعلى وواصلتْ سيرَها ببطءٍ نَحْوَ الحَشْدِ وأجابتْ بثقةٍ: "أنا في أحسنِ حالٍ". كان صوتُها ناعمًا ورقيقًا.

Twitter: @alqareah

تلوَّى ذو البطن النارى وأخذ ينقرُ بقوائمه يدَىْ كلير، محاولًا أن يدفعَ برأسه من خلال أصابعها.

همستْ له كلير: "أوقف دغدغتك".

سأل أحدُهم: "ماذا قلتِ؟" كانت عيونُ الحشدِ مركَّزةً عليها لا تَطْرُفُ وأفواهُهم مشدوهةً لا تَنْبِسُ بكلمةِ. توقفتْ على بُعْدِ وَثْبَةٍ واحدةٍ كبيرةٍ منهم. ظلُّوا يواصلون التحديقَ إلى كفَّيْها المشبوكتين، وهم يشعرونَ بالاضطرابِ والحَيْرةِ مما عليهم أن يقولوه أو يفعلوه؟ لم تقدم لهم كلير أَىَّ تفسيرِ. كانت تقفُ ساكنةً تاركةً لهم فرصة القرار.

سألها والدها: "هل ثَمَّةَ شىءٌ ألمَّ بيديكِ؟"

– لا شىءَ، إنهما فى أحسنِ حالِ.

– ما الذى تحملينَهُ بينهما؟

دسَّ ذو البطن النارىِّ وجهَه بين أصابعها واختلسَ نظرةً سريعةً نحو حَشْدِ العيونِ الذى يحدِّقُ ببلاهةِ. كأنهم كائناتٌ مفترسةٌ تنتظرُ الفرصةَ للانقضاضِ. انقلب على ظهره بشكلٍ غريزىٍّ. وبلُطْف، نفخَ بطنَه الأحمرَ النارىَّ.

قالت كلير: "هل يمكنُ أن تتوقَّفَ. أنت تدغدغنى".

تساءل والدها: "ماذا تقولين؟"

تطلَّعتْ وجوهُ المجموعةِ نحو يديْها. أبعدتْ ببطءٍ أصابعها لتفتحَ كفيْها. تألَّقَ وميضٌ من بقايا نور النهار انعكسَ فوق بطنِ الضفدعِ.

Twitter: @alqareah

قالت: "انظروا!".

لم يأتِ أىٌّ منهم بحركةٍ. ولم يَنْبِسْ أحدٌ بكلمةٍ. تأرجح الوقت على مدى لحظةٍ طويلةٍ وحَيَّةٍ. تطلعتْ كلير إلى السيد ليڤانت، التقتْ نظراتهما. ابتسم وهزَّ رأسه.

سأل أحدُ رجال الشرطة: "ما هذا؟"

– هذا صديقى. إنه يشعرُ بالجوعِ والعطشِ الشديدِ، علىَّ أن أرعاه.

سأل أحدُ الحضورِ: "أين وجدتيه؟"

– كان داخلَ السيارةِ، وهو بحاجةٍ للمساعدةِ.

انقلب ذو البطن النارى على بطنه وبدأ يختالُ ويتبخترُ حول يديها، مستعرضًا جِلْدَه الأخضرَ المُبَرْقشَ، ثم قَبَع فى مكانه يحدِّقُ فى الحشدِ. وظَلَّ ساكنًا.

قال أحدُهم: "هل شاهدتم هذا؟ هل شاهدتم؟ إنه ينقلب على ظهره ويغيِّرُ لونَه. هل هو ضفدعٌ مائىٌّ؟ هل هو ضفدعٌ طِينىٌّ؟"

قال آخرُ وهو يقتربُ ببطءٍ وقد مدَّ إصبعه يتحضَّرُ لأن يلكزَه: "ربما أنها حرباء. هل هى حَيَّةٌ؟"

سحبتْ كلير يديْها وأدارتْ كتفها إلى الرجلِ الأخرقِ الذى سألها وقالتْ: "طبعًا. إنه حىٌّ". ثم رفعتْ ذا البطنِ النارى إلى أعلى بعيدًا عن عيون الحشد وأصابعهم

Twitter: @alqareah

الممدودة لتجسَّ وتتحقَّق. أفسح ذو البطن النارى الطريقَ كما لو أنهما كانا يَشُقَّانِ مَمَرًّا بين أَجَمةٍ كثيفةٍ شائكةٍ. كانت عيونُ الحشدِ تتطلَّعُ إلى أعلى نحوَ هذا المخلوقِ الغامضِ ثم تنزلُ نحو كلير. يقود الضفدع النارى الطريق كأنه يشقُّ مَمرًّا بين كتلةٍ كثيفةٍ منَ الأغصانِ الشائكةِ. تفرَّق الجمهورُ ووسَّع مكانًا لكلير لتمرَّ. لم يلفظْ أيٌّ منهم بكلمةٍ، ولم يحاولْ أحدٌ أن يقفَ فى طريقها.

وبينما كانت تسير متخطيةً السيد ليڤانت، أخرج من جيبه قلمًا ولفَّه بين أصابعه. توقفت كلير وأنزلت يديها. أومأ برأسه وقال: "أنا متفهِّمٌ تمامًا".

أجابته: "أعلم هذا. فأنت تجيدُ الاستماعَ مثل الشاعرِ. تعلمُ كيف توصِّلُ وتربطُ بين الكلماتِ التى يجدُها الآخرون غيرَ متواصلةٍ أو مفهومةٍ. أنت تعرف كيفَ أنَّ الأفكارَ تشكِّلُ وتوجِّهُ مجرى حياتِنا". فتحتْ كفَّيْها ليشاهدَ ذا البطن النارىِّ واستطردتْ: "هذه هى فكرتى الكبرى".

– أريد أن أراك غدًا صباحًا فى مكتبى.

– هل يمكنُنى أن آخذ الصورةَ التى رسمتَها لى؟

قال: "بالطبع. أريدُ أن أضعَ عليها اللمساتِ الأخيرةَ".

قالت كلير: "سأحضر مُبكِّرَةً".

– حسنًا.

Twitter: @alqareah

قاطعها أحدُ الشرطيين: "أرجو المعذرةَ يا آنستى، ولكننا نريدُ أن نسألَك بعضَ الأسئلةِ بخصوصِ السيارةِ".

التفتتْ إليه وتوقفتْ: "نعم؟"

– هل تعلمين أنه لا يحقُّ لك قيادةُ هذه العَربةِ؟

"نعم، أعلمُ ذلك. ولكنَّنِى كنتُ محتاجةً لأن أبحثَ عن شىءٍ. أنا آسفةٌ لأننى أخذتُ السيارةَ وآسفةٌ لأننى لمْ أخبرْ أحدًا. أعلم بأننى أخطأتُ بالذَّهابِ ولكن ها أنذا عُدْتُ". كانت عباراتُها قصيرةً ومقتضبةً؛ لا أثرَ فيها للندم أو للأسف العميق، بل مجرد وقائع أعلَنتْهَا، بلا مبالاةٍ أو انفعالٍ.

تحسَّسَ الضابطُ كلماتِه مرتبكًا وهو يقولُ: "هل تعلمين... ماذا كنتِ..."، ثم توقَّفَ عن الكلامِ. وضع يديه فى جيبيه وهو يُغيِّرُ وَضْعَ قدمَيْهِ على الأرض فى عدم ارتياحٍ. تطلَّع إلى كُلِّ فردٍ من البالغينَ ثم عاد بأنظاره نحو كلير وسألها: "من فضلكِ يا آنستى، هل يمكن أن تخبرينا عَمَّ كنتِ تبحثين؟"

مَّدتْ كلير يديها تعرضُ ما بداخلهما. كان ذو البطن النارىِّ يجلسُ بجرأةٍ منتصبًا: "انظر. كنتُ أبحثُ عن صديقى الذى كان تائهًا. اسمه... اسمه... عاطف، من كلمة مُتَعاطف. يَسرُّنى أن أجيبَ عن أيَّةِ أسئلة تطرحُها؛ ولكن علىَّ أولًا أن أجدَ له طعامًا وماءً ومكانًا مريحًا ليخلُدَ إليه. فقد أمضى رحلةً من أغربِ الرحلاتِ وأشدِّها روعةً".

Twitter: @alqareah

تنهَّدَ الضابطُ وقال: "حسنًا... هذا أمرٌ خاصٌّ بينك وبين والديْك، وأما نحن فسنغادرُ الآن".

قال والدُ كلير: "شَعَرْنَا بالقلقِ الشديدِ عليكِ يا كلير. لم نكن نعلمُ أين ذَهَبتِ. آسفٌ جدًّا بالنسبة «لرافلس» هل تريدين...".

قاطعته كلير قائلةً: "أنا متفهِّمةٌ للأمر. لسنا بحاجةٍ لأن نتحدَّثَ عن هذا الموضوع بعد الآن". كانتْ تودُّ لو تأخذُ قبضةً من الألوان الزيتية وتَنْثُرُها بيديها على قطعةٍ من قماشِ الرسم لتشكِّلَ لوحتَها؛ لعلَّها تجعلُه يفهمُها. كانتْ تريدُ أن تكتبَ قصيدةَ شعرٍ تثير مشاعرَه؛ فتسيلُ دموعُه من الدهشةِ والتعجُّبِ. كانت تريد أن تستلقيَ إلى جانبه كتفها إلى جانب كتفه وظهراهما على طينِ البركةِ ينظران إلى النجومِ اللامعةِ المتلألئةِ فى السماءِ ساعة الغَسَق. كانت تريدُ أن ترسم «إسكتشًا» يبيِّنُ حُدُودَ وَجْهيْهِما ليشاهدَ ما حصل، وما الذى تَبدَّلَ، كيف يمكن لفكرةٍ بسيطةٍ، حتى ولو كانت ببساطة ضُفْدعٍ بقدميْن ناقصتيْن، أن يكونَ لها كُلُّ هذه القوَّةِ والتأثيرِ.

لم يكن بإمكان كلير أن تفسِّرَ. كان بإمكانها الإجابةُ فقط بالصمت. فمشاكلُها لم تُحلَّ كما يحدث عادةً فى الفصلِ الأخيرِ من المسرحيةِ، وحالُها لم ينصلحْ كما تُصلحُ وتُلصقُ رُقَاقةٌ

Twitter: @alqareah

مكسورةٌ من آنيةٍ فَخَّاريَّةٍ بتثبيتها فى مكانها من جديدٍ. كُلُّ ما عَرفَتْهُ من خلالِ تجربتها، هو أنه لكى نتمكَّنَ من عبورِ الحافَّاتِ الحادَّةِ للحياةِ، فكل ما نحتاجُه، أحيانًا، فَرْدَتا حذاءٍ بِنَعْلٍ رفيعٍ.

لن تجدَ الكلماتِ المناسبةَ لتخفِّفَ من قَلَقِ والديها وخَوفهما. لن تكون هناك مواقفُ دراميةٌ لتملأ القصة. ولا بَصيصٌ من التفاهمِ يرشدُهم ويمكنُهم كُلُّهم الاتفاقُ عليه. كان هناك فقط، إدراكُ كلير أنها لن تستطيعَ العودةَ أبدًا إلى اطمئنانِ ورضا الطفولةِ. فقد بلغتِ الآنَ فترةَ التشوُّش والارتباك وسوء التفاهم والحوارات الغاضبة. مرحلة الخسارة المؤلمة. مرحلة الانجذاب والتقرُّب، أو الصَّدِّ والابتعاد. فترةُ الحزنِ الذى لا يمكنُ مواساتهُ والبهجةِ التى لا يمكن إخمادُها. مرحلةٌ تصبحُ فيها بريَّةً، فترةٌ لكى تتعلَّمَ كيف تعتنى وتهتمُّ. دخلت كلير فى منتصف قِصَّتِها. هذا الجزءُ من الحياةِ الذى نخلقُه بأنفسنا. هذا الجزءُ الذى ينقلُ كُلَّ انفعالاتنا وعواطفنا ورغباتنا إلى العالم.

– بابا، أين حوضُ السَّمكِ؟ الحوضُ الذى كنت أُربِّى فيه أسماكى؟ أريدُ أن أهيِّئَهُ الليلةَ ليكونَ بيتًا لعاطف. كان اليومُ طويلًا ومرهقًا. أشعرُ بالتعبِ الشديدِ. لن أذهبَ إلى أىِّ مكانٍ دُونَ أن أُبلغَك. ولكن فى الوقت الحاضر، كل ما أُريدُه، هو أن أبقى هنا معكَ لفترةٍ وأعتنىَ بُضفْدَعِى.

Twitter: @alqareah

خَاتِمَةُ الرِّوَايَةِ

لن أصبحَ أبدًا، بريًّا، منطلقًا وحُرًّا أفعلُ ما أشاءُ. لن أسبحَ أبدًا فى بركةٍ محاطةٍ بالأشجارِ الباسقةِ والأعشابِ الطويلةِ. لن أتمكَّنَ أبدًا أن أثبَ إلى مكانٍ بعيدٍ وأسافرَ إلى أماكنَ نائيةٍ. لن أشاهدَ أبدًا توهُّجَ شمس الصباح تنعكس من قطرات النَّدى على ورقةِ زنبقِ الماءِ الطافية. سأعيشُ، بدلًا من ذلك، دومًا وأبدًا فى عالمٍ محاطٍ بالحافَّاتِ والحدودِ. سأسبحُ دومًا وأبدًا بحركاتِ دفعٍ مقيدةٍ وانزلاقٍ صغيرٍ. سأتمكنُ فقط من القفزِ مرتين قبل أن أحتاج إلى التحرُّكِ فى الاتجاهِ المعاكسِ. سأراقبُ أحداثَ العالَمِ الخارجيِّ وأحوالَه من خلالِ جدرانٍ زجاجيَّةٍ شفَّافةٍ تحمى وتُقيِّدُ.

Twitter: @alqareah

أقولُ كُلَّ هذا لأشيرَ إلى ما أنا عليه، وليس لوصفِ شعورٍ بالافتقاد أو بالبؤس. ثَمَّةَ أشياءُ أريدُها أهمُّ بكثيرٍ من أربع أقدام ومجموعةٍ من الجرادِ وآفاقٍ لا نهاية لها. أحيانًا، حينَ نكونُ في ورطةٍ، في حيرةٍ، وليس أمامنا سوى اختيارين فقط لا غير، علينا ألّا نرضى بأيٍّ منهما. يجب أن نتطلَّعَ إلى ما بينَ القِمَّتَيْنِ ونبحثَ عن إمكاناتٍ أخرى.

معظمُ الحيواناتِ الأليفةِ تحظى بمَنْ يرعاها، ولكن القليل منها، خاصَّةً الضفادعَ، تُتاح لها الفرصة لتعتنيَ بالآخرين. لم أعُدْ مجرَّدَ ضفدعٍ بقدمين وبطنٍ أحمر كالنار. لن يمكنك أن تلحظَ تفرُّدى وتميُّزى بإلقاءِ نظرةٍ خاطفةٍ؛ فأنا الآن أهَمُّ من ذلك بكثيرٍ. فإذا ما أخذتَ الوقتَ الكافيَ وراقبتَنى عن قُرْبٍ، فسترى بأن قلبىَ البرِّىَّ ينتشرُ ويمتدُّ إلى الخارجِ من خلال الزجاج نحوَ الفتاةِ الشابَّةِ. إن راقبْتَها ستلاحظْ أنَّ تأثيرى عليها أكبرُ بكثيرٍ من جسمى الصغير. ستلاحظ أن جزءًا منى ينفذُ ويتغلغلُ إلى عوالمَ، عادةً، لا يُمنحُ للضفادعِ امتيازُ دخولها.

بالنسبةِ لكلير، ظَلَلْتُ لغزًا كبيرًا غامضًا. إشارةٌ لها دلالةٌ ومغزًى فى عالم يبعث على التشوُّش والاضطراب. حين أفكِّرُ بهذا الأمر أبتسمُ وأتذكَّرُ ضفدعًا عجوزًا عرفتُه يومًا. من أنا

Twitter: @alqareah

وما الذى يمكنُ أن أكونَه أصبحَ الآن واضحًا لى تمامًا. ربما، فى يومٍ ما، ستتمكَّنُ كلير من معرفة كُلِّ ما تريدُ أن تكونَ عليه. فأنا لستُ من عالمٍ سِحْرِيٍّ ولستُ تعويذة. لم أحضرْ منجذبًا إليها من حُلْم. كل ما هنالك، وبكل بساطة؛ أننى اخترتُ بمحض إرادتى أن أقفزَ نحوَ شيءٍ أكبرَ منى. اتّخذتُ قرارًا، وهذه المرة، لن أتراجعَ عمَّا عزمتُ عليه ولن أتطلَّعَ إلى الوراءِ.

ولكنى أعودُ بأفكارى إلى الوراءِ. أفكِّرُ فى بيتٍ تقاسمتُ فيه المعيشةَ فى أيامٍ خَلَتْ مع فتاتى الصغيرةِ كارولين ووالدِها. أتساءلُ إن كانت ما تزالُ تشعرُ بالحزنِ لأننى تهتُ منها. هل ستشترى ضفدعًا آخر عِوَضًا عنى؟ على الأرجح ستفعلُ. هل سأخطرُ على بالِ والدها؟ هل سيفكرُ بالضفدعِ الصغير ذى البطن الأحمر النارىِّ وهو يقوم برحلته الرُّوحانية للبحثِ عن الذاتِ؟ على الأرجح لن يفعلَ...

لقد خرجتُ من حياتهما؛ ولكنِّى غير حزينٍ لأننى أعلمُ ما حدثَ. أودُّ فقط أن يعلما ما أصبحتُ عليه والإنجاز الذى وصلتُ إليه. سيشعران هما أيضًا بالسعادة. لو كان بإمكانى أن أتمنَّى أمنيةً واحدةً، وأنا فعلًا أتمناها بشدَّة. فأنا أرغبُ فى الحديثِ مع الفتاةِ الصغيرةِ ووالدها مرةً واحدةً، فقط، وأخيرةً. سأخبرهما عمَّا عرفتُه عن هذا العالَم. إنه مكانٌ واسعٌ

Twitter: @alqareah

جدًّا. أكبرُ مما يمكن لأىِّ كائنٍ أن يتصورَ أو أن يقيسَ. ثَمَّةَ أشياءُ كثيرةٌ تحدثُ فيه لا يمكن لنا أبدًا معرفتُها. الأحداثُ الصغيرةُ والتى نظنُّ أن لا قيمةَ لها، يمكنُ أن تكونَ أيضًا عظيمةً ورائعةً. تقعُ الأشياءُ العظيمةُ حولنا فى كُلِّ وقتٍ وكُلِّ حينٍ، أشياءُ عظيمةٌ تمرُّ بنا فلا نُعيرُها اهتمامًا أو نتجاهلُ وجودَها، قصصٌ عظيمةٌ تضيعُ فى نسيجِ العالمِ، لا ينكشفُ لنا ولا نلمُّ إلَّا بالجزءِ اليسيرِ والفُتاتِ منها.

لا علمَ لأحدٍ بالقصةِ كُلِّها، ولكن أحيانًا نرى ظلًّا لها يتحرَّكُ من خلال حياتنا. وفى لَحْظةٍ كلَمْحِ البَصَرِ يمكنُنا أن نتشبَّثَ لنتفهَّمَ ولنُدْرِكَ سِرَّ الوجودِ.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

حاشية الرواية

لمَنْ يريدُ أن يعرفَ المزيدَ عن الضَّفادعِ ذَوَاتِ البطنِ النَّارِيِّ
وعن الوجودية

Twitter: @alqareah

ضفادعُ طينيَّةٌ ذاتُ بطْنٍ أحمرَ كالنَّارِ

نعم، هناك بالفعل ضفادعُ ذاتُ بطنٍ أحمرَ كالنارِ.مع أنَّ الاسمَ الشائعَ لهذه الفصيلة من الضفادع هو: ضفادعُ طينيَّةٌ ذاتُ بطنٍ أحمرَ من أصلِ آسيويٍّ «شَرْقيّ». من الممكن أيضًا أن نشيرَ إليهم كضفادعَ فقط، بما أنهم لا ينتمون إلى فصيلةِ «الضفادع الطينيَّة» ولا إلى «الضفادع المائيَّة».

وأمَّا الاسمُ العلميُّ لهذه الفصيلة من الضفادع فهو: «**بومبيناتوريدا**». يقع تحت هذا التصنيف النوع «**بومبينا**» والذى يضمُّ ستةَ أنواعٍ؛ وينتمى الضفدعُ ذو البطن النَّارِيِّ إلى واحدٍ منها: فصيلة «أورينتاليس».

تعيشُ الضفادعُ الطينيةُ ذاتُ البطن الأحمر النارىِّ على مرتفعاتٍ تعلو ما بين 1500 إلى 3000 متر فوق مستوى سطح البحر، فى مناطقَ معتدلةِ الحرارةِ ورطبةٍ بالقربِ من الجداولِ والبِرَك، فى أجزاءَ من الصين، وكوريا، وتايلاند. أصبح الآن من المألوف أن تراها فى محلَّاتِ بيعِ الحيوانات الأليفة، ومن الشائع جدًّا اقتناؤهم وتربيتُهم، لأنه من السهلِ الاعتناءُ بهم، فهم يُثيرُونَ دهشةَ مَن ينظرُ إليهم ويُسلُّونَ مَن يراقبهم.

Twitter: @alqareah

يتَّصفون أَحيانًا بالهدوءِ، خاصةً الإناثَ منهم واللاتى يبدو أنه لا يصدرُ عَنْهُنَّ أىُّ صوتٍ. وأحيانًا أخرى، يستمرُّ الذكورُ منهم فى إطلاقِ جَلَبةٍ وضَجيجٍ مُتواصلٍ ليلاً ونهارًا، بنقيقٍ يشبه صوتَ عُواءِ جَرْوٍ صغيرٍ.

حينَ يحلُّ زمنُ التزاوج يعتلى الذَّكَرُ ظهرَ أىِّ ضفدعٍ يقتربُ منه. لو صدفَ وكان الضفدعُ الآخر ذَكَرًا، يطلقُ صوتَ نقيقٍ معلنًا: "أخطأتَ". أما إذا كانت أنثى، فَيلقِّحُ بَيْضَها أثناءَ قيامِها بوضعه حولَ الصخور والأعشاب فى المياهِ الضَّحْلَةِ.

يفقسُ البيضُ بعد عِدَّةِ أيامٍ. تمضى اليرقاتُ المتناهيةُ فى الصِّغَرِ الأسبوعَ الأول وهى تمتصُّ وتتغذَّى على كيسِ صفارِها. وبعدئذٍ، تبدأ فى أكلِ الطعامِ الشهىِّ الذى يطفو فى الماء. فى خلال ستة إلى ثمانية أسابيعَ، تبدأ القائمتان الخلفيَّتان والرئتان فى النُّمُوِّ. وفيما بين ثمانيةٍ إلى أربعةَ عشرَ أسبوعًا، تبدأ علاماتُ التحول فى الظهور على أفراخ الضفادع. تُمتصُّ ذيولُهم فى داخل أجسامهم ويبدؤون فى الزحف إلى اليابسةِ.

على عكسِ معظم الضَّفادعِ العاديَّةِ والضفادعِ الطينيَّةِ، فالضفدعُ ذو البطنِ الأحمرِ النارىِّ لا يمتدُّ لسانهُ خارج فمه. ولذا فهو يقتربُ كثيرًا من فريسته، كُلُّ ما يحتاجُه رؤيةُ ذبذبةٍ

Twitter: @alqareah

أخيرةٍ لقرنِ استشعارِ جشرةٍ أو نَقْرةٍ سريعةٍ لقائمتها، حينئذٍ يهجمُ على غذائهِ وهو فاغرُ الفَم.

حينَ يخافُ الضفدعُ ذو البطنِ النَّاريِّ يحاولُ الاختباءَ فى الماء. أما إذا كان على اليابسةِ، فيرفعُ رأسهَ ويعرض الألوانَ البرَّاقةَ لبطنهِ. إذا ما شعر برعبٍ شديدٍ ينقلبُ على ظهرهِ، يدفعُ رأسه إلى الوراء ويمدُّ قوائمَهَ وينفخُ إلى أعلى بطنَه الأحمرَ كالنَّارِ، ثم يفرزُ فُقَّاعاتٍ صغيرةَ متلألئةً من مادَّةٍ سامَّةٍ بيضاءَ كاللَّبَنِ.

فى وضعهِ الدفاعيِّ الاستثنائيِّ هذا، لا تجدُ أيَّ تشابهٍ بينَ هذا الشكلِ وبينَ الضُّفدعِ الأخضرِ المُبَرقَشِ الذى كان عليه. يبدو هذا البريقُ المُشعُّ منه كعلامةِ إنذارٍ تقولُ: "تَرَاجَعْ إلى الوراءِ".

المرَّةُ الوحيدةُ التى شاهدتُ فيها ضفدعًا من هذا النوع مرتاعًا جدًّا بهذا الشكلِ، كان المشهدُ يشملُ فتاتيْنِ، وحَوْضَ استحمام، وبعضَ المياهِ الساخنةِ.

إنْ أردتَ أن تصاحبَ ضُفْدعًا ذا بطنٍ ناريٍّ، رجاءً، أحْسِنْ رعايَته. غَذِّه بالجراد، حافظْ على نظافةِ حَوْضهِ الزُّجَاجِيِّ، ولا تحملْهُ إلَّا عند الضرورةِ القُصْوَى. عامِلْهُ بعنايةٍ واحترام... فأنتَ لن تعرفَ أبدًا فِيمَ يفكرُ ضُفْدَعٌ.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الفلسفة الوجودية

حين تمسك بين يديك كتابًا مِثْلَ كتاب «مارتينْ هيديجرْ»: «الوجود والزمن» أو مثل كتاب «چانْ پول سارتر»: «الوجود والعدم»، تجدُ أنَّ وزن هذه الكتب، فى حَدِّ ذاته، مخيفٌ ومَهُولٌ، فما بالك بكَمٍّ الجبال المتراكمة من النصوص التى يصعُب اختراقها. هل تُعدُّ هذه الكتبُ إنجازاتٍ قيِّمةً جديرةً بالاعتبار قام بتأليفها مثقفون متميزون، أم أنها مجرد ابتكاراتٍ إبداعيةٍ غريبة ومُستهجَنة؛ ليست سوى نتيجة اعتكاف مؤلفين مجانين؟ مهما كان رأيُنا وتقييمُنا لهذه الأعمالِ، وبينما نقومُ بتقليبِ صفحاتٍ عُتمت إلى ما لانهاية بالفقراتِ والجُمَلِ المُعقَّدةِ والملتويةِ، نجد أنفسنا منجذبين نحوَ غموضِ الأفكارِ التى تكْمُنُ داخلَها.

وباعتبارى كاتبًا، أجدُ نفسى مستمتعًا بفتح مثل هذه الكتبِ الكثيفةِ، أسلِّط عليها ضَوْءًا وأعطى حياةً جديدةً لهذه الأفكارِ العظيمةِ. يضىءُ الشعاعُ الأوَّلُ منها أحدَ المواضيعِ المركزيةِ لكلٍّ من رواية «الضفدع النارىّ» والفلسفة الوجودية، موضوعٌ فى نفس الوقت بسيطٌ ومعقدٌ، وعلى قَدْرِ ما هو سهلٌ وعادىٌّ على قدر ما هو عسيرٌ جَمُوحٌ لا يذبُل، فكرةٌ نعرفُها ونألفُها ومع ذلك نكافحُ لنفهمَها: إنها فكرةُ الوُجُودِ.

Twitter: @alqareah

وبدلًا من أن أنغمسَ فى شرح الوجود وتعريفه، أودُّ أن أبدأ البحثَ بالارتفاع إلى ما يقرُب الذُّرْوَةَ ثم أتهادى محلِّقًا نحوَ هذه الوَحْدةِ المنفصلةِ المُخَادعة. اسم هذا الجبلِ الذى أُريدُ تسلُّقه العَدَدُ. نحن جميعًا نألفُ الأعدادَ مثل العدد ثلاثة وتسعة أو ستة عشر... إلخ. ونَحن نفهمُ بوضوحٍ كيفَ يُستخدَمُ العددُ لوصفِ الكَميَّةِ والطُّولِ أو ترتيبٍ ما. فإذا كنا مثلًا نفكرُ فى ثلاثةِ ضفادعَ أو خمسةِ أطنانٍ أو تسعةِ أمتارٍ، فنحنُ فى هذه الحالاتِ نستخدمُ العَددَ كصفةٍ لوصفِ المقدارِ والكَمِّ والطولِ.

ولكن لو استعملنا العددَ كاسمٍ بدلًا من صفةٍ مثلَ أن نقول «لدىَّ ثلاثة» أو «أضف ثلاثةً إلى ثلاثة». فى هذه الحالةِ نبدأ فى تذوُّق المُجَرَّد. ربما أننا لا نستطيع أن نُعَرِّفَ العددَ بهذا الأسلوبِ – حاول أن تُعَرِّفَ العددَ ثلاثة دونَ اللُّجوءِ إلى أمثلةٍ – لكننا نعرفُ كيفيةَ استخدامِه، والتفكيرِ فيه، والتحدُّثِ عنه. فنحنُ نجمعُ أعدادًا مُجرَّدةً طوالَ الوقتِ دون أدنى تردُّدٍ أو حاجةٍ لتعيينِ شىءٍ ما.

فى محاولةٍ لتعريفِ العددِ اقترحَ «برتراند راسل» أنه إذا كان لوَحْدَتيْنِ منفصلتيْن العددُ ذاتُه، فمن الممكن أن نربطهما بعملِ مطابقة واحدٍ إلى واحدِ. فكِّرْ فى أن ترْسُمَ خطوطًا خياليةً بين ثلاثِ ورقاتِ نباتٍ وبين ثلاثةِ مستوياتٍ للسعادةِ، وبصرفِ النظرِ عمَّا إذا كان الاسمُ عينيًّا أو مُجرَّدًا يمكننا

Twitter: @alqareah

أن نتصورَ ارتباطًا بين أشياءَ لها نفسُ العدد. فَمثلًا، إذا ما استخدمنا العددَ ثلاثة كصفةٍ وطبَّقناه على كلِّ الأشياءِ التى يمكننا تصورُها، فسنبدأ فى فهم الاسمِ المجردِ العَلَم ثلاثة. فالعددُ ثلاثةُ العَلَمُ هو النتيجةُ الأَساسية والعلاقة المتسبِّبة لهذا الارتَباط. وحين نتعاملُ مع الأعداد الأخرى بأسلوبٍ مماثلٍ مثل أربعة كاسمِ عَلَمٍ وخمسة كاسمِ عَلَمٍ ثم نستمرُّ على هذا المنوال مع شبكتنا فى الارتباط لنضمَّ جميع الأعدادِ ونعتبر أنها مُحوِّلاتٍ لكلِّ الأشياءِ، فنحن فى هذه الحالةِ نقتربُ من ما هو وراءَ الفكرةِ كما نقتربُ من القِمَّة، تلك القمة الخاصة بالعددِ العَلَم؛ الأوحد.

ونحن الآن نتركُ وراءنا الماديَّ ونقتربُ من المحيطِ النَّادرِ للميتافيزيقيِّ. ومن هنا يمكنُنا أن ننظرَ نحوَ مَدَى الأفكارِ البَحْتةِ ونرى درجةً من التجريدِ الذى لا يمكنُنا أبدًا تصوُّرُه قبلَ تحليقنا فى هذه المرتفعاتِ الفكريةِ.

أودُّ أن أتوقفَّ لبُرْهةٍ وأقومَ ببعضِ الحِيَل. أريدُ أن أُحلِّقَ لأنتقلَ إلى جبلٍ آخرَ اسمهُ الوَحْدةُ (ذاتية الوجود). وعلى الرغم من أننا نحطُّ فقط على جزءٍ من الطريقِ إلى أعلى، إلَّا أننا من هذا المنظورِ الجديدِ نتمكَّنُ أن نسألَ سؤالًا تَصوُّريًا مماثلًا فيما يخصُّ هذه الوحداتِ فى العالَم. فمثلًا ما الذى يشتركُ فيه كلٌّ من الضُّفْدَعِ والإنسانِ؟ ما الروابطُ الأكثرُ أساسيَّةً التى يمكنُنا

Twitter: @alqareah

وضعُها لربط واحدٍ بالآخر؟ في هذا المحيطِ الميتافيزيقيِّ لا نبحثُ عن تطابُقٍ في الصفاتِ الماديَّةِ التي يمكنُ لشيئين أن يتشَاركا فيها؛ فمثلًا لكلٍّ من الضفادع والبشرِ قلوبٌ وعيونٌ وعقولٌ... إلخ. ولكن بدلًا من ذلك، ما يهمُّنا هو هذه العلاقةُ المجرَّدةُ التي تربطُ بينهما والمماثلة لما وجدناه في «العدد» حين بدلنا استعمالَه من صفةٍ إلى اسم.

سيتبدَّلُ مفهومُنا للأمرِ حين نأخذُ الأشياءَ، ونعزلُ عنها الصفاتِ التي نستعملُها لوصفِ خصائصها ثم نبدأ في تصوُّرِ ما يتبقَّى. "ماذا يبقى حين يُزال كل أثر يتركه اللون، والحجم، والشكل، والمَلْمَس، والرائحة؟ ماذا يبقى حين تُنزع الانفعالاتُ والعواطفُ والأفكارُ الخياليَّةُ؟ حين يختفي ويتلاشى ويُنزع ويُزال من حياتنا كلُّ شيءٍ يمكن أن تطلق عليه اسمًا. ما الذي يبقى؟" رَدُّ سارترْ على هذه التساؤلاتِ هو: الوجودُ.

ها نحن نتسلَّقُ بسرعةٍ لأعلى. يصيبُنا الصعودُ بالدُّوَارِ، وإذا ما واصلنا الصعودَ إلى مستوياتٍ أعلى سنصابُ بضيقٍ في التنفسِ ونصبحُ بحاجةٍ للأوكسچين. هذا هو المكانُ الذي يرغبُ الفلاسفةُ المحترفونَ البقاءَ فيه والتحدُّثَ عن أشياءَ مثل الوجود.. الوجودُ كاسم عَلَمٍ.. مكانٌ لا يستطيعُ معظمنا ارتقاءَه بل نُترك ونحن نهرشُ رؤوسنا ونتساءلُ كيفَ يمكنُ لأيٍّ

Twitter: @alqareah

شخصِ التحدُّثُ بهذه الصورةِ. وبدلًا من البقاءِ في هذا المكانِ العالى لفترةٍ طويلةٍ أريدُ أن أحلِّقَ إلى جبلٍ مختلفٍ، وأصغرَ من الجبلِ السابقِ قليلًا. ستجدُ هذه القمةَ مريحةً وسهلةَ الفهمِ ومألوفةً. على قمةِ هذا الجبلِ ستجدُ شيئًا اسمه **الأنا**.

تحذير: أمامَكَ جَرْفٌ شاهقٌ!

قبلَ أن أحدثك عن **الأنا** أحتاجُ أن أنبِّهَكَ. فمن هذا الموقع، العالمُ كُلُّه موجودٌ فقط في وَعْينَا الشخصيِّ. ولذا؛ فمن السهلِ جدًّا أن نقعَ في خطأِ التفكيرِ بأن **الأنا** هو الجبلُ الوحيدُ في هذا العالم. وأن كُلَّ ما عداه ما هو إلا حُلْمٌ مُحْكَمُ الصَّنْعة. فإذا ما بدأنا في الاعتقادِ بأن **أنا** الوحيدُ الموجودُ أو بأن أنا الكائنُ الوحيدُ المُهمُّ في الوجودِ، نبدأ حينئذٍ في الانزلاقِ نحوَ التركيزِ على الذَّاتِ وعلى ما يُسمى الأنانةَ. إن أردتَ أن تعرفَ إلى أيِّ مدًى من الجديَّةِ قد تؤخذُ هذه الفكرة، اقرأ عن «جابرييل جيل» في رواية «**الشاعر والمجانين**». كان ما ألهم «ج. ك. تشسترتون» كتابةَ هذا الكتابِ هو تأثُّرُه بتجربته كشابٍّ يتسم بالأنانة. إن كان لديكَ إدراكٌ لمعنى الأنانة ستجِدْها قصةً شائقةً، وإن لم يكن لديك – أغلب الظنِّ – ستجدها قصةً غريبةً كتبها كاتبٌ غريبُ الأطوارِ.

الأسلوبُ المنطقيُّ الوحيدُ لتفنِّدَ الأنانة هو فعلُ المستحيلِ: أن تصبحَ شخصًا آخر. "أريدُ أن أكونَ أيَّ شخصٍ، فقطْ للحظةِ

Twitter: @alqareah

قصيرةٍ، لفترةٍ أستطيعُ من خلالِها أن أرى العالمَ من وجهةِ نظرِ شخصٍ آخرَ. أريدُ أن أعلمَ إن كانتِ الألوانُ تبدو له هي ذاتها كما أراها. إن كُنَّا نحن الاثنين نشعرُ بالألم ذاتِه. إذا كانتْ معاني الكلماتِ هي نفسها. أريدُ أن أعرفَ كَمْ من حياتي ما هو إلَّا حُلْمٌ أعيشُ من خلاله ... لو كان بإمكاني أن أكونَ شخصًا آخر، ولو للحظةٍ، سأتمكَّنُ حينئذٍ من فَهْم الكثير".

استخدمَ الفيلسوفُ هيديجرْ أسلوبًا مثيرًا جدًّا للاهتمامِ للتحدُّثِ عن الأنا: وسمَّاه حرفيًّا الوجود-هنا؛ ليشيرَ إلى الوحداتِ المتفرِّدةِ التي نحَنُ عليها. وهو يناقشُ أن التفرُّدَ في وجودنا مرتبطٌ بشكلٍ جوهريٍّ بزماننا ومكاننا في هذا العالم؛ بـ«هنا». فنحنُ نعيشُ في زمانٍ ومكانٍ محدَّديْن هما ما يجعلانِنَا فريدينَ كبشرٍ ويمنعانِنَا من أن تكونَ لنا طبيعةٌ إنسانيةٌ عالميةٌ يمكن لها أن تسموَ وتعلوَ وتتجاوزَ التاريخَ والثقافةَ. بدِّل سنةَ ميلادنا أو المجتمع الذي نعيشُ فيه وننتمي إليه، ستجدُ أنَّ مَنْ نكونُ أو ما الذي يمكنُ أن نصبحَ عليهِ سيختلفُ بشكلٍ جوهريٍّ. "فحدودُ جسدي ليست هي التي تقرِّرُ من أكونُ وماذا باستطاعتي أن أفعلَ وأين يمكنُني الذَّهابُ، إنما حافَّات كل الأشخاص وكل الأشياء هي التي تعمل على نحت كافَّةِ إمكاناتي... أريدُ أن أعرف إن كان أسلوبُ تفكيرِي، ومُعْتقدَاتِي، وأفعالي وسلوكي، هل كُلُّ هذا ما هو إلا

Twitter: @alqareah

عباءةٌ اجتماعيَّةٌ تضغطُ عليَّ وتقودُ حياتى. إن استطعتُ أن أعيشَ فى مكانٍ آخرَ، فى زمانٍ آخرَ، حينئذٍ يمكنُنِى أن أزيحَ بعيدًا كُلَّ الخِداعِ والزَّيْفِ الذى فُرضَ علىَّ، وأكتشف ما يبقى منى".

أن تفهمَ معنى كلمةِ «الوجود-هنا» هو إنجازٌ ثقافىٌّ جديرٌ بالاعتبارِ، ومن الواضح الآن أننا نسينا أن هذه كانتْ فى يوم ما فكرةً جذريةً. تصور أن هناك ضابطًا فى الجيشِ شهدَ اندلاعَ الحرائقِ ونَهْبَ مدينةٍ مُعَاديةٍ وسَلْبِها. يصلُ إلى تلك المدينةِ ليجدَ جنودَه يعملون فى حُمَّى مجنونةٍ على تشويهِ المدينةِ وإيذاءِ سُكَّانها ونهبِ الغنائم. وفى وسطِ النيرانِ واللَّهبِ الذى يحيطُ بالمدينة يسمعُ الضابطُ صوتًا مألوفًا لبكاءِ طفلٍ حديثِ الولادةِ. يترجَّلُ الضابطُ عن ظهرِ حصانه ويلتقطُ الطفلَ ويُهَدْهِدُهُ بين ذراعيْه، ثم يتساءلُ فيما بينَه وبين نفسه: ما الفرقُ بيْنَ هذا الطفل وطفله الذى هو من صُلْبِه؟ وما إن التقتْ نظراتُهما حتى وجدَ نفسَه وقد اصطدمَ بفكرةٍ جديرةٍ بتحطيمِ الثقافةِ: هذا الطفلُ سيكونُ، بكلِّ صورةٍ منَ الصُّوَرِ، كأنَّه طفلهُ؛ ما يفصلُنى **أنا** عن **الآخر** ما هو سوى حادثةٍ فى الزمان والمكان. (انظر إلى: «**أنا وأنت**» للكاتب «مارتن بوبر» فى نصٍّ شاعرىٍّ وقوىٍّ عن الوجود مع الآخرين فى هذا العالم).

يمكنُ لعالمٍ فى العلوم أن يقولَ إن هذا **الوجودَ-هنا** فى العالم لا يكفى كى يفسِّرَ إنسانيتَنا بطريقةٍ ذاتِ دلالةٍ ومعنًى. فنحنُ

Twitter: @alqareah

بحاجةٍ لأَن ننظرَ ونطَّلعَ على طبيعتنا من الناحيةِ البيولوچيةِ، فتاريخُنا الطبيعىُّ هذا لا يحدِّدُ فقط صفاتِنا الفيزيائيَّةَ (الماديَّة) مثلَ لونِ عيوننا وطولِ شعورِنا وعددِ أقدامنا؛ ولكنَّه يحدِّدُ أيضًا صِفَاتٍ أقلَّ وضوحًا وجلاءً مثلَ غرائزنا وعاداتنا ورغباتنا. سيقولُ ذوو السلوكِ السطحىِّ المتطرِّفِ بأنه لكى نتفهَّمَ **الأنا**، علينا أن نفسِّرَ أفعالَنا الجديرةَ بالملاحظةِ فى مصطلحاتٍ سببيةٍ مرتبطةٍ فى النهاية بحاجتنا المنطقيةِ لأَن نعيشَ. "نحنُ نأكلُ لأَننا نشعرُ بالجوعِ، وننامُ لأَننا نشعرُ بالتعبِ... ونلتقطُ قطعةً من الورقِ لأَننا لا نريد رُكَامًا مبعثرًا".

«دستويڤسكى»، وهو واحدٌ من طليعةِ المُنادِينَ بالفلسفةِ الوُجوديَّةِ، رفضَ فكرةَ تعريفِ الإنسانِ بأنَّه حيوانٌ عاقلٌ يبحثُ عمَّا يلائمه وما هو مفيدٌ له فى هذا العالم، وبأنه لا يكفُّ عن الكفاحِ حتى يصلَ إلى الكمالِ وإلى أن يسكنَ دنيا مثاليةً على الأَرضِ. فى كتابه «**ملاحظاتٌ من باطنِ الأرضِ**» يقدِّمُ لنا صورةَ البطلِ الضد الذى أراد أن يكونَ على النقيضِ منَ الإنسانِ العاقلِ والواضحِ والذى يعتقد أن المنفعةَ هى غايةُ الفضيلة. هذه الشخصيةُ، التى عبَّرَ عنها دستويڤسكى فى كتابه، تركِّزُ على تجربتها الشخصيَّةِ والذاتيةِ والفرديةِ فى العالم. فهى تعبِّرُ عن إنسانيتها وعن وجودِها **-هنا** وعن حُرِّيتِها فى الاختيارِ من خلالِ ثورةٍ وفَوْضَى شخصيَّةٍ.

Twitter: @alqareah

"أحيانًا – وبلا سببٍ – كانت ترمى بصحنٍ زُجاجىٍّ إلى الأرضِ وتراقبهُ وهو ينكسرُ ويتبعثرُ تحت قَدَميْها. كانتْ تريدُ أن تخلُقَ حولها أكثرَ ما يمكنُ من الفوضى وقِلَّةِ النظام". أن نكون أحياء موازٍ لأن نسبب المتاعب؛ وأنه على عكس المتوقع أن يحدث تحول فينا مضاد لهذه الميول.

فالإنسانُ ليس كالضفدع الذى يمتلكُ طبيعة من الممكن تخيُّلُها حتى قبلَ أن تتكوَّنَ. لا يملكُ الإنسانُ طبيعةً أساسيةً باستثناءِ ما نخلُقُه من خلالِ اختياراتنا. إعلانُ سارترَ بأَنَّ وجودَنا سابقٌ لجَوْهرِنا قَلَبَ الرؤية الغربيةَ للإنسانيةِ رأسًا على عَقِبٍ. إذ لَمْ يَعُدْ هناك وجودٌ للذاتِ الداخليَّةِ أو للطبيعةِ الإنسانيَّةِ أو لصفاتٍ مَنَحها لنا اللهُ. فنحنُ لسنا سوى اختياراتنا. ومع أَنَّ سُقْرَاطَ يتوسَّلُ إلينا «أن نتعرَّفَ على أنفسنا»، فإن سارتر من جانبه يدعونا «أن نخلُقَ أنفسنا». بالنسبةِ إليهِ هذه هى الحُرِّيَّةُ، حرِّيةٌ أوسعُ بكثيرٍ منَ الحريةِ التى جرى البحثُ عنها فى الحلبةِ السياسيَّةِ. فى روايةِ سارتر «الغثيان» يبدأ بطلُ الروايةِ فى الشعورِ بالقلقِ والكَرْبِ ثم بالغَثَيانِ، حينَ يدركُ تمامًا عواقبَ أن: "ما سأقومُ الآنَ به سيخلُقُ مِنِّى ما سأكونُ عليه".

وماذا فعلنا بهذه الحريةِ؟ قُمْنَا بتجنُّبِها. نستهترُ بأعمالنا. ونجرِّبُ أنواعًا جديدةً من الطعامِ لنبعدَ عنا الإحساسَ بالرتابةِ.

Twitter: @alqareah

نسافرُ إلى أماكنَ جديدةٍ لنمنعَ الإحساسَ بالمللِ. نستخدمُ العيدانَ كالصِّينيينَ كأداةٍ لتناولِ طعامنا لنكونَ مغامرينَ. نبحثُ عمَّا يشتِّتُ أفكارَنا ويلهينا، ونبذلُ جَهْدًا لنبتعدَ عن القلقِ واليأسِ. يُسمِّى «كيركجارد» هذه المُلاحقةَ المَحْمُومةَ للأشياءِ الجديدةِ، تعاقُبَ المَحاصيلِ. "حين أنظرُ من خلال الزجاج إلى عالَمهم، أرى أنهم يبحثون عن شيءٍ أكثرَ، أكثر مما لديهم. يأتون إلى هنا لاقتناءِ قطَطٍ وكلابٍ وفئرانٍ وسحالٍ وضفادع. أنا لستُ واثقًا، ولكنِّى أحيانًا أتساءل قد يكونون بحاجة إلى كائنٍ يهتمُّ بهم لا العكس. بحاجة لشخصٍ أو شيءٍ ليعتنىَ ويهتمَّ بهم".

الاهتمامُ هو السبيلُ الوحيدُ الذى ينقذُنا حتى لا نكونَ منَ المزعجينَ النَّاقرينَ الذين ينقرونَ هنا وهناك بحثًا عن المتعةِ. وحتى نُحسنَ الاهتمامَ، يلزمُنا التحرُّكُ نحو مستوًى جديدٍ من القِمَمِ والجبالِ، التى تقعُ على مسافاتٍ بعيدةٍ. نحنُ بحاجةٍ حينئذٍ إلى قَفْزةٍ مثلَ التى قفزها كيركجارد، قفزةٍ مبنيةٍ على إيمانٍ وثقةٍ تامةٍ، قفزةٍ تحوِّلنا إلى نفسٍ نبيلةٍ وقلبٍ حَىٍّ وروحٍ استثنائيَّةٍ. نحتاجُ لأن نهتمَّ جدًّا بهذا العالم الذى نعيشُ فيه وأن نصبحَ قادرين على الاستغناءِ عن كُلِّ شيءٍ فى سبيلِ فكرةٍ، ليس بالضرورةِ أن تكونَ فكرةً منطقيةً وعقلانيةً، ولكن لاعتقادٍ ما، يحتملُ الشَّكّ. "ليس ثَمَّةَ أىُّ سببٍ أو منطقٍ

Twitter: @alqareah

لِمَا أنا عازمٌ على فعله – ولكنى سأفعلُه. ربما سترمينى إلى أرضِ السيارةِ وتدهسُنِى بقدمِها. ربما ستمسكُنِى فى يدِها وتعصرُنى حتَّى أَنْفُقَ وأموتَ".

هناك وسائلُ متعدِّدةٌ لاتخاذ هذه القفزةِ. فى رواية «هيرمانْ هِيسَّه» «سيدهارتا» كانت القفزةُ دينيةً. تخلَّى سيدهارتا عن الحُبِّ والنعيمِ الذى كان يتمتعُ بهما فى جَوِّ أسرته، تَخلَّى عن أساتذتِه وأصدقائِه وأقام فى كوخٍ على ضفةِ النهرِ ليُلاحِق هدفًا غيرَ ملموسٍ: الاستنارة. وفى رواية «زوربا» للأديب اليونانى « نيكوس كازانتزاكيس»، نجد أن بطلَ الروايةِ زوربا قد انغمس فى عالمٍ دُنْيَوِىٍّ. فهو فى آنٍ واحدٍ فَجٌّ وعاطفىٌّ شديدُ الحساسيةِ. يرقصُ من شِدَّةِ الفرحِ أو من قسوةِ الحزنِ. أراد فى صباه أن يكونَ صانعًا ماهرًا للأدوات الفَخَّارِيَّةِ ولكن مع كل لَفَّةٍ لدُولابِ تصنيعِ الفَخَّارِ كانت أصابعُه الصغيرةُ تحطُّ فى وسط الطِّينِ الخَزَفِىِّ وتهدمُ الإبداعَ الجديدَ الذى كان يعملُ على صُنْعِهِ. لم يتمكَّنْ من تحمُّلِ خَرْقه وعدم إتقانه للصَّنْعةِ، فما كان منه إلا أن قام باقتطاعِ جزءٍ من إصبعه بالفأسِ.

كثيرًا ما ننكمشُ ونتراجعُ إلى الوراءِ ونحن نقرأ هذه الأعمالَ لأننا غيرُ واثقين إن كانتْ شخصياتُ هذه الرواياتِ تتَّسمُ بالعقلِ. ننظرُ بعيدًا ثم نغلقُ الكتابَ. ولكنَّنا بطبعنا فُضُوليُّونَ سَرْعانَ ما نعودُ للنظرِ من جديدٍ. "نحن دائمًا نعيد

Twitter: @alqareah

النظر إلـى الوراء. أليـس كذلك؟" نعيدُ التقاطَ الكتـاب ونقلبُ الصفحةَ. ومع أننـا لسـنـا معتـادينَ لهذه الدرجةِ منَ الالتزام إلَّا أننا ننجذبُ إليها "مثلما يتخلَّل الماءُ داخلَ الإسفنجَ".

من النـادرِ أن تجدَ شـخصًا ملتزمًا تمامًا بفكرةٍ ما لدرجةٍ لا يسمحُ لأىِّ شىءٍ أن يقفَ فى طريقه للالتزامِ بها والوصولِ إليها؛ فـارسُ الإيمانِ يخطو فى طريقٍ معاكسٍ لكلِّ ما يُحْبِطُ إمكاناتنا، ويرفضُ أن تكونَ المؤلفاتُ التافهةُ والهَزْلُ الثقافىُّ هو البنيانُ الوحيدُ فى الحياةِ؛ كائنٌ موجودٌ قفزَ قفزةً نحو مَرْتَبةٍ بعيدةٍ وساميةٍ.

"لَن يتبدَّلَ لونى ولن يتغيَّرَ شكلى. سأبقى كما أنا ضفدعًا بقدمين ناقصتين. سأبقى كما أنا أقفزُ من مكانٍ إلى آخر أبحثُ عن زوايا منعزلةٍ وكُوَّةٍ لأختبئَ داخلها. سأظل على عهدى ألعبُ لعبةَ حركة الجرادة وقفزة الضفدع. ولكن لو تطلَّعتَ إلىَّ بتمعُّنٍ كافٍ، وبأسلوبٍ غير مباشرٍ، سترى أننى بدَّلتُ جلدىَ القديمَ".

Twitter: @alqareah

استمر في التفكير!

Twitter: @alqareah

رواية / أدب
12 سنة - كبار

استمر فى التفكير!

من الممكن أن أعيش
حُرًا على حافة المغامرة.
أو أن أعيش آمنًا مطمئنًا لا
أشعر أبدًا بالخوف أو بالبرد.
الاختيار، فى حدّ ذاته، يجمدنى
ويشلُّ حركتى.

رحلة إلى قلب الفكر

رؤيةٌ جذابةٌ ومُميَّزة للفلسفة.
"كيركوس"

لغةٌ بسيطةٌ. بناءٌ أنيقٌ. تتَّسمُ بدهاءٍ
وظُرْفٍ رائعيْن.
"مجلة رايترز نوتس"

ممتعةٌ كقصَّةٍ. مُوسّعةٌ للعقل كروايةٍ رمزيةٍ.
"بوك پليچيرز"

حائز على ست جوائز للكتابة
وخمس جوائز للتصميم

دار البلسم للنشر والتوزيع
Al-Balsam Publishing House
www.al-balsam.com
ISBN 9776171133
9 789776 171138